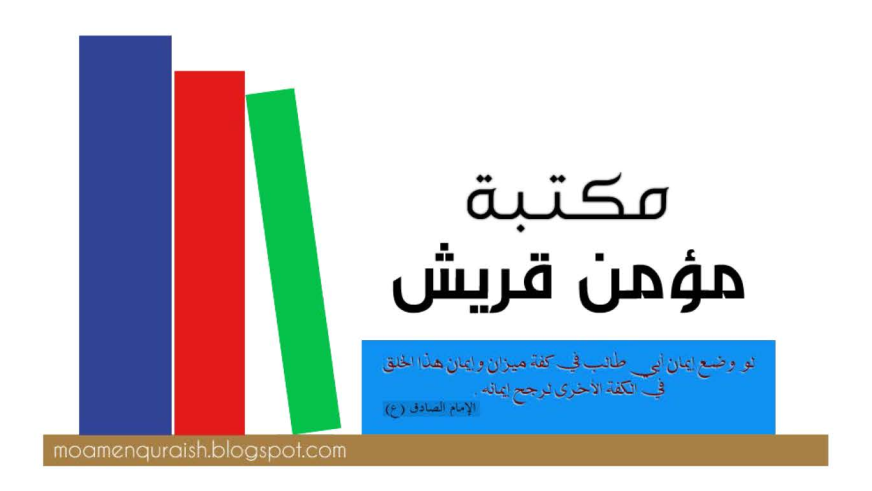
سيدني لانجفورد هايند

سقوط عرب الكونغو



ترجمة: أحمد العبيدلي



سقوط عرب الكونغو

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

سقوط عرب الكونغو
سيدني لانجفورد هايند

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

HT655. H6612 2010
Hinde, Sidney Langford , 1863 - 1930
[The Fall of the Congo Arabs]

سقوط عرب الكونغو / سيدني لانجفورد هايند، ترجمة: أحمد العبيدلي - ط. 1 - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
240 ص؛ 14 x 21 سم.
تدمك: 978-9948-01-587-1
1 - المرجبي، حمد بن محمد بن جمعة، 1840 - 1905 2 - مانييما (الكونغو) - التاريخ العسكري - القرن التاسع عشر. 3 - العرب - الكونغو - تاريخ - القرن التاسع عشر.
4 - تجارة الرقيق - تاريخ.
أ - العبيدلي، أحمد. ب - العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
The Fall of the Congo Arabs (1897)
Sidney Langford Hinde



info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+، فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 300 6215 2 971+، فاكس: 059 6336 2 971+

سقوط عرب الكونغو

تأليف: سيدني لانجفورد هايند

فارس برتبة الأسد الملكي

عضو شرف الجمعية الجغرافية البلجيكية

الضابط الطبي للداخل، شرق أفريقيا البريطانية

نقيب سابق بقوات دولة الكونغو الحرة

ترجمة: أحمد العبيدلي







سيدني لانجفورد هايند

Sid. L. Hinde

المحتويات

مقدمة

[1] في سنة 1892، كان الصراع بين قوى الشرق والغرب، قد وصل إلى أزمة. لقد بدا أن صداماً كان لزمن قيد الانتظار بين تلك القوى، تمثل من جانب في عرب زنجبار، ومن جانب آخر في الأوروبيين القادمين من جهة مصب نهر الكونغو. فقد أصرّ كل طرف على انتزاع الهيمنة، وبدا واضحاً أن تلاشي إحدى القوتين هو المخرج الوحيد لحل المشكلة.

ولطالما تاقت مجموعة من التجار العرب، ومن صيادي العبيد والعاج[1]، أن يحولوا تجارة أفريقيا الوسطى بكاملها إلى زنجبار؛ في حين أن البلجيكيين سعوا من دولة الكونغو الحرة، ولاحقاً في حقل المعركة، إلى تحويل تجارة الداخل إلى مصب الكونغو، ثم، وبشكل أساس، إلى أوروبا.

[2] في القرن الحالي تضافرت ظروف عدة، لتجعل العرب الزنجباريين من صيادي العبيد والمنخرطين في تجارتهم الأكثر شهرة في العالم. ولم يعرف بوضوح إلاّ القليل عن تاريخهم المبكر، عدا عن حقيقة أن هناك مستوطنات عربية قد تواجدت على طول الساحل الشرقي لأفريقيا.

1 - يعمد الكتاب إلى استخدام مصطلح صيادي العبيد والعاج (hunters of slaves and ivory) لوصف بعض العرب الذين كانوا يمارسون تلك التجارة. وقد صدف أن ثبتت تلك الصفة بنحو أكبر وأوسع على العرب دون وجه حق. فالأوروبيون ربما كانوا أكثر الشعوب التي مارست صيد العبيد والاتجار به أكان في الحضارات الكلاسيكية القديمة في اليونان وروما أم بعد اكتشاف الأمريكتين. كما أن العديد من القبائل الأفريقية، وكما سيظهر في هذا الكتاب، كان يمارس تلك العادة. وكانت الدول الأوروبية من أوائل الدول التي أوقفت ممارسة العبودية. أما بالنسبة إلى صيد الفيلة والاتجار بعاجها فقد كان الأوروبيون والأفارقة والعرب جميعاً منغمسين فيها، وقدر أن ينتظر العالم حتى حلول منتصف القرن العشرين تقريباً لبدء تغير جدي في هذا الاتجاه.

وفي أي حال، فلربما لكون منطقة شرق أفريقيا من آخر المناطق التي منع فيها الاتجار بالرقيق، فقد سلطت الأضواء على بعض ممارسي التجارة من العرب. ولم توضع تلك الممارسة في سياقها التاريخي (المترجم).

كان البرتغاليون قد سيطروا على هذه المستوطنات بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وبعدها استعادها أئمة عُمان في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

وشكلت جزر زنجبار وبيمبا (Pemba)[2] أهم المراكز ضمن موجة السيطرة العربية الثانية؛ وعبر هذه الجزر وعبر اختلاط الدماء العربية بالزنجية نشأ جنس من العرب السود. على أنهم وعلى الرغم من احتلالهم الطويل لساحل زنجبار والمناطق المجاورة، فإن العرب لم يتقدموا في الداخل إلا في الأزمنة الأخيرة.

وقبل ما يقرب من الجيلين تطورت جزيرة بيمبا لتصبح مزرعة عظيمة للقرنفل، يعمل فيها العبيد على شاكلة مزارع القطن والسكر [3] في أمريكا. وبعد فترة، تزايدت أعمال بعض تجار زنجبار مع ممولیهم، فهاجروا إلى شرق أفريقيا لسبر آفاق تجارة العاج. وبالنظر إلى نفوق حيوانات النقل بذباب التسي تسي[3]، وجدوا أن من الضروري استخدام السكان المحليين للحمل؛ وهكذا ترافق ذلك مع ترحيل الأفارقة إلى أسواق العبيد في زنجبار، كمنتوج برز إلى جانب تجارة العاج، في الوقت نفسه الذي برز فيه الطلب الهائل للعمال في مزارع القرنفل في بيمبا. وتزايد عرض العبيد إلى حدٍّ سمح معه بتصدير واسع عبر البحار إلى الدول الإسلامية.

وإذ فشل العديد من صيادي العبيد والعاج في تحقيق ثرواتهم، أو أُخذوا بسحر الحياة البدائية، فإنهم ظلّوا في الداخل؛ ونما بالتالي نظام من

---

2 - بيمبا أو الجزيرة الخضراء كما تعرف محلياً. جزء من أرخبيل زنجبار وعلى بعد 50 كيلومتراً شمال جزيرة زنجبار إلى الشرق من تانزانيا الحالية، وتشتهر بالخصوبة وزراعة التوابل وخصوصاً القرنفل (http://en.wikipedia.org/wiki/Pemba_Island) (المترجم).

3 - ذبابة (*Glossinidae glossina*) تنتشر في وسط أفريقيا وتسبب أمراضاً للحيوانات والبشر منها المعروف بمرض النوم (http://en.wikipedia.org/wiki/Tsetse_fly) (المترجم).

خطـوط التجارة والمراكز العربية يسـيطر عليه زعماء عـرب معروفون. وعبر تلك الخطوط، وبمســاعدة العرب، أو في بعضـ الأحيان في مواجهتهم، تنقل المستكشفون الأوروبيون في مناطق البحيرات، ومنابع نهري الكونغو والنيل.

وهكذا سـار علـى الطريق الرئيسـي بين باجامويـو (Bagamoyo) [4] (قبالـة زنجبار)، وفي تابـورة (Tabora) في أونيانيمبـي (Unyanyembe) إلى أوجيجـي (Ujiji) فـي تنجانيقـا كل مـن بيرتـون (Burton)[4] وسـبيك (Speke)[5] وليفنجسـتون (Livingstone)[6] وستانلي (Stanley)[7] وكاميرون (Cameron)[8] وجزئيـاً سـبيك وجرانـت (Grant)[9]. ويتفـرع مـن الطريـق

4 - Sir Richard Burton السير ريتشارد بيرتون (19 مارس 1821 - 20 أكتوبر 1890) مكتشف إنجليزي متنوع المواهب والتخصصات عمل إضافة إلى مهام أخرى كمترجم وكاتب وجندي ومستشرق ودبلوماسي. عرف برحلاته في أفريقيا وآسيا ومعرفته باللغات والثقافات، وترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية (http://en.wikipedia.org/wiki/Richard_Francis_Burton) (المترجم).

5 - John Hanning Speke عمـل جـون هانينـج سـبيك (4 مايـو 1827 - 15 سـبتمبر 1864) ضـابطاً فـي الجيشـ الهنـدي البريطـاني وقـام بثـلاث حمـلات استكشـافية فـي أفريقيـا، وارتبـط اسـمه بنحـو خاصـ بالبحـث عـن منابـع النيـل (http://en.wikipedia.org/wiki/John_Hanning_Speke) (المترجم).

6 - David Livingstone ديفيـد ليفنجسـتون (19 مارسـ 1813-1 مايـو 1873) اسـكوتلندي مـن رواد العمـل الطبـي الإرسـالي والاستكشـاف فـي أفريقيـا. كان أول أوروبـي يـرى مسـاقط فكتوريـا، وأطلـق عليهـا الاسـم تكريمـاً لعاهلتـه، الملكـة فكتوريـا (http://en.wikipedia.org/wiki/David_Livingstone) (المترجم).

7 - (Sir Henry Morton Stanley) السير هنري مورتون ستانلي (28 يناير 1841-10 مايو 1904) صحفي ويلزي ومكتشف، اشتهر بعمله الاكتشافي في أفريقيا وبحثه عن ديفيد ليفنجستون (http://en.wikipedia.org/wiki/Henry_Morton_Stanley).

8 - (Verney Lovett Cameron) فيرنون لوفيت كاميرون (1 يوليو 1841 - 24 مارس 1894) رحالة إنجليزي في وسط أفريقيا وأول أوروبي يقطع خط أفريقيا الاستوائية من البحر إلى البحر. عمل لوقت طويل في كبح تجارة العبيد بشرق أفريقيا (http://en.wikipedia.org/wiki/Verney_Lovett_Cameron) (المترجم).

9 - James Augustus Grant جيمسـ أوجسـتوس جرانـت (11 أبريـل 11 - 1827 فبرايـر 1892) مستكشـف اسـكوتلندي لشـرق أفريقيـا الاسـتوائية (http://en.wikipedia.org/wiki/James_Augustus_Grant) (المترجم).

ممرٌ من أوجيجي وعبر تنجانيقا، وعبر بلاد المنييما (Manyema)، بمحاذاة كابامباري (Kebambari) وكاسونجو (Kasongo) إلى نيانجوي (Nyangwe) على نهر اللوالابا (Lualaba).

وحتى ذلك الحين، اتبعت حركة الكشوف الأوروبية خطى العرب من زنجبار كأساس. لكن احتلال الأوروبيين الجاد لوسط أفريقيا بدأ برحلة ستانلي برعاية الجمعية الدولية من مصب الكونغو حتى أعلى النهر؛ ومنذ ذلك الحين، بات قيام مواجهة أمراً محتماً مهما جرى تأجيلها. ولم يكن موقع حدوثها أقل حتمية من ذلك، ولا بموازاة أي الخطوط الاستراتيجية، سيأخذ الصراع مجراه. كان لدى الأوروبيين اتصال لعابرات القارات البخارية حتى متادي، قرب أسفل يلالا فولز (Yellala Falls)، وبناء على ذلك فهم وباستخدام النقل المائي، بعيدون عن التدخل العربي وذلك حتى ستانلي بول (Stanley Pool). ومن بول يمكن لقواربهم النهرية البخارية أن تبحر دون مقاطعة، من ناحية، إلى الشرق وعبر النهر الرئيس [5] وحتى ستانلي فولز، ومن ناحية أخرى، من مصب كوا (Kwa)، باتجاه الجنوب عبر أنظمة كاساي (Kasai) وسانكورو (Sankuru). وحيث إن المساقط تقع في الشمال، وسانكورو إلى الغرب من بلاد المنييما، امتلك البلجيكيون خطين منفصلين للتقدم، ليلتقيا من قاعدتين منفصلتين على نيانجوي رأس الطريق من زنجبار. لذلك شكلت بلاد المنييما المركز الطبيعي للعرب للهجوم والدفاع.

وعندما مرت الحملة البلجيكية، والتي كان النقيب هايند عضواً فيها، من كاساي إلى الجنوب إلى بلدة النحاس في كاتنجا، عرّضت نفسها إلى هجوم جانبي من الشرق في وقت كان فيه العرب محميين على مقربة من المساقط، حيث دمروا محطة الدولة هناك عام 1886. بعدها اتجهت الحملة شرقاً، بعد تعزيزها بالقائد دانيس (Dhanis)، لمواجهة العرب، وتقدمت نحو نيانجوي، مجتازة روافد الكونغو دافعة العرب من خط نهري إلى خط نهري

آخر. وحدثت مواجهات في لوبيفو (Lubefu) ولوالابا، حقق فيها البلجيكيون اجتيازات جديدة.

[6] استطاع العرب أن يصمدوا طويلاً في لوالابا، وهكذا احتل الطرفان ضفتي النهر، وراحا يتبادلان إطلاق النار عبره، ويحاولان أحياناً اجتيازه عبر حركات هجومية. وفي مرحلة لاحقة للحملة، وعندما استمر القتال في الشرق على نحو أكبر، إلى كاسونجو، تمكّن البلجيكيون وبعد أن استعادوا موقعهم في منطقة الشلالات، من إحضار تعزيزات من الشمال - راسمين بذلك خط التقدم الثاني الذي فتح الطريق لقوات الدولة الحرة.

لخّص[10] النقيب هايند نتائج الحملة البلجيكية قائلاً:

«لقد تغيرت الجغرافيا السياسية لأعالي حوض الكونغو تماماً، نتيجة الحملة البلجيكية على العرب. ولقد قيل إن جميع طرق هذه المنطقة من أفريقيا تؤدي إلى نيانجوي. فلقد انتهت هذه المدينة وسوف تتلاشى، وهي المدينة التي زارها ليفينجستون وستانلي وكاميرون، والتي كانت إلى عهد قريب أحد أعظم الأسواق في أفريقيا. ولم أر مكانها وكما رأيت في آخر مرة إلا منزلاً منفرداً. لقد أزيلت كاسونجو تماماً، وهي مركز حديث وإن كانت أكبر حجماً وتضمّ 60,000 ساكن، إلاّ أنها لم تعد ممثلة إلاّ بمحطة للدولة الحرة على بعد تسعة أميال، على ضفة النهر.

«واتفاقاً مع هذا التغير السياسي تغيرت بدورها الطرق التجارية تماماً، وباتت الطرق التي تبدأ من نيانجوي ولوالابا، عبر تنجانيقا إلى أوجيجي (Ujiji)، أو بالالتفاف على البحيرة وحتى زنجبار، باتت تنحدر مع نهر الكونغو إلى ستانلي بول وإلى الأطلسي.

---

10 - ورقة مقدمة بعنوان:

"Three Years' Travel in the Congo Free State", the Royal Geographical Society 11th March 1895.

«وعلى الرغم من نزوعهم إلى الهجمات لاصطياد العبيد خلال الأربعين سنة من سيطرتهم، فإن العرب قد حولوا مانييما (Manyema) وماليلا (Malela) إلى أحد أكثر المراكز ازدهاراً في وسط أفريقيا. وتذكّر المناظر الطبيعية وبقوة حين تبدو من أعالي المرتفعات بجوار نيانجو وكاسونجو، بالريف الإنجليزي المعتاد المزروع. وليس هناك ما يشبه ذلك في أي مكان في حوض الكونغو؛ ولكن مع ذلك، فإن العرب أبقوا في ماليلا على جماعة من أكثر آكلي لحوم البشر تأصلاً في تلك العادة على وجه البسيطة».

وكان زعيم العرب الذي أقام هذه الدولة داخل الدولة في مقاطعة مانييما ضمن الحدود المعترف بها لدولة الكونغو الحرة - كان قانص العبيد العظيم تيبو تيب[11]. لقد تداخلت أحداث الخمس والثلاثين سنة الأخيرة مع شخصية هذا الرجل إلى حدّ يصعب معه إدراك أهميتها الكاملة دون فكرة القوة الدافعة التي كانت وراءها. وتوفر لنا حياة تيبو تيب المهنية المفتاح لموقف العرب قبل تواجه القوى التي أدت إلى انتقال السلطة في وسط أفريقيا.

تحدر حمد بن محمد بن جمعة، الذي عرف في العالم بلقبه [8] تيبو تيب[12]، من عائلة تجار أغنياء ومؤثرين استوطنوا زنجبار[13]. والده عربي نصف أفريقي، وكانت أمه زنجية بالكامل. وعلى الرغم من العنصر الزنجي القوي الذي يجري في عروقه، فإن تيبو تيب وفي مجمل تكوين صفاته العقلية هو عربي جوهريًّا؛ ومن هذا الجانب من تحدره تنبع تلك الإرادة التي لا تقهر،

---

11 - هو حمد (أو حميد) بن محمد بن جمعة بن رجب بن محمد بن سعيد المرجبي (13 يونيو 1840 - 1905)، تاجر ووجيه عماني في شرق أفريقيا، وعرف بتيبو تيب بين غير العرب (المرجبي (2005)، 11 وما بعد؛ المغيري (1979)، 223؛ Brode (2000), 7 ff.

12 - تيبو تيب أو «جامع الثروة معاً». وبحسب بعض النظريات فإن الاسم قد تحدر من كثرة استخدامه لبنادقه، فوصفه السكان المحليون بأنه تنبع منه قرقعة تشبه: «تيب-أو-تيب-أو-تيب».

13 - حيث إن السيد ستانلي قد وصف تيبو تيب عام 1876 بأنه «في حوالي الرابعة والأربعين من العمر»، فإنه يتوقع أن يكون قد ولد في حوالي عام 1832. (والأصح أنه ولد عام 1840، راجع الهامش المتعلق بحياة المرجبي) (المترجم).

وتجد بلا شك جذورها فيه، والتي رفعته من تاجر زنجباري إلى موقع حاكم على بلاد مترامية الأطراف.

لقد تمكن تيبو تيب، وفي عمر مبكر، من أن يختطّ طريقاً مستقلاً لنفسه، فاستطاع أن يجمع مئات المقاتلين من الرجال، الأمر الذي مكّنه من التوغل في قلب أفريقيا للبحث عن العاج والعبيد. وبعد نهب مقاطعات كبيرة وإرغام السكان فيها على الولاء، [9] عاد مرة أخرى إلى زنجبار لكي يسوّق العاج الذي استولى عليه ولتجنيد قواته. وقد حقق ذلك بنجاح، فعاد إلى أفريقيا ثانية على رأس قوة مسلحة كبيرة من الأتباع.

ومع تزايد هذه القوة لتيبو تيب تمكن من توسيع غاراته، ومن التوغل في مناطق كانت غير مكتشفة وبالتالي فتح آفاقاً جديدة للعاج. وتكتيكاته، المنطلقة والمتشكلة من دافع حَكَم حياته - من طمع لا يُشبع للثراء - كانت أكثر طموحاً من أقرانه تجار العبيد؛ وعلى الرغم من أن السياسة التي تبناها، بشكل عام، تمثلت في نظام معتاد من الهجوم والنهب، فإنه تحلى بصفات رجل الدولة تقوده ظروف خاصة توجب عليه التعامل معها. وبناء على ذلك، وفي أكثر من حالة، استخدم طريقة استثارة السخط والغيرة بين الزعماء المحليين المتصارعين، وعبر خلق حالة تؤدي إلى نزاع يفضي إلى الحرب، كان يحصل على مبتغاه عبر مماثلة نفسه بالجانب المنتصر والمطالبة بنصيب وافر من الغنيمة. وهناك الكثير من المناسبات التي تظهر كيف كان يستفيد من إمكانياته الهائلة لتحقيق مصالحه الخاصة. يقال [10] إنه وفي وقت ما حين شحت ذخائره إلى حدٍّ كبير بحيث بدا أن من الأصلح اتخاذ إجراءات عاجلة، تمكن من أن يدخل هو وأتباعه سلمياً إلى قلعة محصنة بقوة عبر التظاهر بأنه ابن أخت الملك، الذي سقط في العبودية لسنين خلت في وقت الحرب. وقد حققت استراتيجيته نجاحاً كبيراً إلى حدّ أن الملك تنحى لصالحه، ووجد تيبو تيب نفسه على حين غرة عاهلاً يحكم ما يقرب من ثلاثين إلى أربعين

ألف نسـمة. وانطلق من الموقع المواتي لغزو الزعماء المجاورين، واسـتولى على غنائمهم وعاجهم. وعبر اسـتخدام هذه الأساليب المترافقة مع تثبيت حلفائه فـي مواقع مهمة فـي المقاطعات المحيطة، تزايد تأثيره إلى حدّ اسـتحال النيل منـه على الإطلاق تقريباً. وفي عدة مناسـبات كان الزعمـاء المحليون للقبائل المجاورة يتحدون ضـده، تدفعهم قسوته للقيام بهجوم مشترك عليه، لكن تيبو تيـب كان يقـود أعـداءه في كل مرة إلى سـحق قواتهم وقراهـم تماماً. وبهذا انتشـر الفـزع من اسـمه إلى حـدّ أن العديد مـن الزعماء قدمـوا مدخراتهم من [11] العاج إليه طوعاً، قاصـدين بتلك الوسـائل من الرشـاوى أن يضمنوا السلامة من غاراته. وعلى الرغم من أن تيبو تيب قدّر هداياهم، فإنه لم يتأثر بها، واستمر فـي استنزاف المقاطعة من أنفس منتجاتها.

وبعد مرور سنوات عدة، راكم خلالها ثروة عظيمة وتأثيراً قارَب أن يكون مطلقـاً فـي لامحدوديتـه، بدأت حياة الغـارات تلك توهن تيبو، فقـرر أن يقوم برحلة إلى المسـتوطنات العربية فـي كاسـونجو ونيانجوي. وفي نيانجوي، والتي وصـلها سـنة 1874، التقـى كاميرون، الـذي كان قد عرف عـن قانص العبيد العظيم من خلال ليفنجستون. وكان تيبو تيب قد قطع طريق ليفنجستون مبكراً منـذ عام 1867، وتمكـن بين ذلك التاريخ ومقابلته لكاميرون من أن يضـاعف نفـوذه وأهميته ثلاث مـرات. وبعد أن رافق كاميرون حتـى لوالابا وذهب بعيداً حتى يوتوتيرا، وزوده بعدد كاف من المرافقين لتمكينه من مواصلة رحلته، تقدم تيبو حتى كاسـونجو. وهنـاك واعترافاً بموقعه كأكثر العرب قـوة فـي الداخل، انتخـب حاكماً. لكن حياة الاسـتقرار تحتـوي على [12] مغريـات أقل لقانص العبيد الشديد الحراك، وقام بعد وضع ابنه سيف على رأس المستوطنة، بتوجيه نشاطاته إلى مهاجمة المقاطعات المجاورة، ولزيادة ثرواته وقوته بنحو أكبر.

وصـل سـتانلي عام 1876 إلى نيانجوي فـي رحلته العظيمة منحدراً نحو نهر الكونغو، وهناك قابل تيبو تيب. وتعود العلاقة بين منظمي القوى المتصارعة - دولة الكونغو الحرة والدولة العربية المسـتقلة فـي كاسـونجو إلى هذا اللقاء فـي نيانجوي. كان تيبو تيب فـي ذلك الوقت، وكما وصـفه ستانلي، «في الرابعة والأربعين من العمر تقريباً، بقامة متوسـطة وبشـرة داكنة وشـفتين دقيقتين».

وتمثلت عاداته بعادات أي عربي مهذب، يضـفي حضوره شعوراً بالنفوذ القوي والحيويـة. وبصـعوبة بالغة تمكن سـتانلي مـن إقناع تيبو تيـب والكثيرين من أتباعـه من شـعبه، بمرافقته في جزء من رحلته. وتضـمن الاتفـاق بينهم أن يقوم تيبو تيب ضمن شروط معينة وضعها بنفسه، [13] بمهمة الحرس لمسافة ستين معسكراً، على أن يتسلّم لقاء خدماته مبلغ 5000 دولار.

بدأت الحملة من نيانجـوي في الخامس من نوفمبر 1876، ولكن، ومنذ البداية، بدأت تظهر مصـاعب ضخمة مما جعل تيبو تيب يفقد رباطة جأشه؛ وبعد بضـعة أسـابيع من التردد بين رغبته في الحصـول علـى الـ 5000 دولار واقتناعه بأن المهمة مستحيلة، قام أخيراً بمغادرة ستانلي في فينجا نجارا في الثامن والعشرين من ديسمبر.

ومن هذه النقطة اتخذ تيبو تيب مسـاره مجتازاً البلاد - مهاجماً وناهباً حيثمـا يمـر - إلى أوجيجي، حيث توقف قبل أن يواصـل رحلتـه نحو زنجبار. وهنـاك وفي تابـورة (فيها وسّـع مـن نطـاق تعرفه علـى الرحالـة الأوروبيين بمقابلة المكتشـف فيسمن)، أسـس أتباعاً مخلصين، تمثلت مهمتهم في تسلّم بضـائعه وإعادة توجيهها، والمحافظة على الطريق مفتوحة. وبضـربة حظ من الدبلوماسية، نجح في إقامة السلام بين المستوطنين العرب في أوجيجي [14] وزعيم محلي معاد قام بسد الطريق التجاري ولسنوات. وقد مكّن هذا الإنجاز تيبو تيب من الحصـول على عطف كل من السـلطان والقنصل البريطاني في زنجبـار؛ وفي ضـوء موافقتهما أقام لفترة مطوّلة في الجزيرة، مسـتفيداً من تلك الإقامة في استثمار قدر كبير من ثروته في الأسلحة النارية والبارود.

ولمـا عـاد تيبو تيب مرة أخـرى إلى الداخل عاد كملك غـير متوج لأراض شاسـعة يرأس أتباعاً بالآلاف. فتقدم باتجاه شـلالات سـتانلي، حيث قرر أن يجعـل مقر قيادته؛ وكان وصـوله بعيد تأسـيس الدولة الحرة مباشـرة، وبعد تأسيس محطة الشلالات، على يد ستانلي.

ومـن الشـلالات كقاعدة، بـدأ تيبو نظامـاً جديداً من العمليـات. فأقام معسـكرات صغيرة محصنة في المقاطعات المحيطة؛ في حين أن جماعات من

عربه بدأت القيام بغارات منظمة في أقاليم واسعة، وألقت القبض على عبيد وقامت بمقايضتهم مع قبائلهم لقاء العاج.

استمرت هذه الأوضاع حتى 1886، حين [15] صمم على القيام برحلة جديدة إلى زنجبار ولأسباب خاصة به. وفي الطريق قام بالتفتيش على مستوطناته بطول طريق التجارة، ليلتقي صدفة الدكتور لينتز (Lenz)[14] والدكتور يونكر (Junker)[15]، اللذين رافقهما في عودته إلى زنجبار.

وخلال غياب تيبو تيب هذا أغار العرب على محطة الشلالات التابعة للحكومة الحرة ودمروها. وعلى الرغم من أن تيبو نفسه كان غائباً عن المشهد، فإن من غير الممكن التصور بأن التخطيط لهذا الهجوم قد تم دون معرفته، ولربما كان من المحتمل أنه هو المحرك لهذا التطور الجديد للمشروع العربي.

كانت هذه العلاقات العدائية قد برزت منذ البدء بين قائد الموقع في المحطة والزعماء العرب في الجوار، وهم الذين كرهوا سلطة الرجل الأبيض. وكان تيبو تيب لدى مغادرته باتجاه الساحل، قد ترك شريكه بوانا نزيجي نائباً عنه لإدارة أمور شعبه؛ ومارس نزيجي وابنه رشيد (راشد) سيطرة مطلقة على المحليين وتدخّلا إلى حد كبير في شؤون تتعلق بإدارة المحطة. تصاعد الاحتكاك الدائم بين [16] الضابط الأوروبي ونزيجي وحصل صراع مفتوح حول السلطة، التي أعطت العرب السبب، لشن هجوم على المحطة وهو الأمر الذي سعوا إليه طويلاً. لقد عرفوا بشكل جلي، أن الفرصة لن تسنح لهم ثانية،

---

14 - هو من المرجح Oscar Lenz أوسكار لينتز (13 أبريل 1848-1 مارس 1925) جيولوجي ومستكشف ألماني - نمساوي وأدار حملة الكونغو المجرية النمساوية بين عامي 1885 - 1887 والتي تضمنت اجتياز الكونغو من الغرب إلى ساحل المحيط الهندي إلى الشرق لاستكشاف الإمكانات الاقتصادية لدولة الكونغو الحرة المؤسسة حديثاً حينها (http://en.wikipedia.org/wiki/Oskar_Lenz).

15 - هو من المرجح فيلهيلم يونكر Wilhelm Junker (6 أبريل 1840-13 فبراير 1892) مستكشف روسي من أصل ألماني عمل على استكشاف منابع النيل المرتبطة بالكونغو (http://en.wikipedia.org/wiki/Wilhelm_Junker).

فلقد كانت المحطة منقطعة تماماً من أي إمكانية لتعزيز قواتها، وكانت تخضع لرحمة أيّ قوة مهاجمة تفوق قدرتها على المقاومة. ومنذ البداية، وعلى الرغم من المقاومة اليائسة التي أبداها الضابط القائد، دين (Deane) والذي تمكن مع عدد قليل من الرجال من منع العدو من التقدم لمدة أربعة أيام فإن سقوط المحطة كان محتماً.

لم تجر محاولة سريعة لاستعادة الموقع من قبل الدولة، وتُرِك العرب لوقت من الزمن يسيطرون عليه دون منازع.

وبعد سقوط محطة الشلالات، التقى تيبو تيب وستانلي مرة أخرى في زنجبار، حيث كان ستانلي ينسق حملة إنقاذ أمين باشا. وكان الموقف المطلوب مواجهته في غاية الصعوبة؛ وليست هناك من ضرورة للدخول في الدوافع التي أدت بستانلي لتبنّي سياسة تعيين المحرك الأساس للهجوم وأكثر قانصي عبيد الداخل شهرة [17]، كحاكم يتبع الدولة على الشلالات. وكما هو متوقع فلقد وافق تيبو تيب فوراً على هذا الاقتراح، وهكذا وفي عام 1887، جعلت حياة المغامرة تاجر العبيد المشهور تيبو تيب يتحوّل إلى ممثل للنظام والقانون باسم حكومة معترف بها.

ومنذ البدء، كانت غرابة المسألة غير مستساغة لمسؤولي الدولة، الذين وجدوا من الصعوبة بمكان أن يوفقوا بين مجاهرة تيبو تيب بالنوايا الطيبة مع خصائصه المعروفة. ولذلك وحتى يقووا دفاعاتهم إزاء أيّ خيانة عربية، أرسلت حكومة الدولة الحرة ضابطاً بلجيكياً مع قوة صغيرة لاحتلال الجزيرة المهجورة[16] في شلالات ستانلي. تجاهل تيبو تيب اللامبالي هذا الأمر ظاهرياً، وإن عمل في الوقت نفسه وبهدوء على تحصين معاقله، التي بدأت في احتلال أبعاد مهولة. [18] فلقد أسس حلفاؤه العرب أنفسهم في كل من الحالتين: إن كانت ضمن الحدود التي رسمتها الدولة أو خارجها، ومن الجوانب كافة، في مقاطعات لم يجر فتحها من قبل، وإن كانت التقارير قد بدأت ترد عن استغلالهم للسلطة.

---

16 - بنيت محطة الدولة على جزيرة في النهر، قريباً من أسفل الشلالات. كان معظم العرب قد استوطنوا البر الرئيسي، لكن بعضهم استقر في قرية على الجزيرة نفسها.

تـوازى التقـدم العربي مـع توسع التأثـير الأوروبي؛ وكمـا عرفت كل قوة أن الصـراع قد بـدأ يحتل أهمية أكبر، وأخذت مظاهـر العداء تتخذ مسارات محـددة. فلقـد بدأ البلجيكيـون الذين أقامـوا معسكرات محصنـة على أنهر أرويمي واللومامي والسنكورو، بدفع المراكز الأمامية للعرب إلى الخلف، وعملوا على احتلال البلاد لمنع أي تجاوزات أخرى. وفي الوقت نفسه، فإن العرب وبعد أن وعـوا كامل أبعاد المخاطر القائمة حول الموضوع، صمموا على أخذ المبادرة. ولأجـل تحقيق ذلك تحالفـوا، كأتباع لتيبو تيب، مع زعمـاء أقوياء فـي المناطق المحيطـة، تمتعـوا بأوسـع الأثر ومن بينهـم لوبونجـو (Lupungu) وجونجو لوتيته (Gongo Lotete). كما احتل الاثنان، وخصوصاً جونجو لوتيته، مركزاً محورياً في تشكيـل مسيرة [19] الأحـداث اللاحقة. فلقـد أدّى فشل هزيمة الهجوم الذي قاده جونجو ضد الدولة، وهروبه اللاحق إلى الدولة الحرة، إلى استثارة الغزو العربي بأعلى مداه بقيادة سيف بن تيبو تيب: وهو ما فتح الباب أمـام الحملة التي سوف تـروى في الصفحات التالية علـى يد النقيب هايند. وفيما لو قيض لمحاولة العـرب أن تنجح، فلربما تأسست امبراطورية إسلامية مشابهـة لدولـة الخليفة فـي السودان. لكن الظـروف تجمعت ضد العرب، وفي محاولتهـم لطمس تأثير الرجـل الأبيض فـي وسط أفريقيـا عجّلوا بسقوطهم نفسه، وقرّبوا من تحكيم قوة علىٍ الرغم من أنها لا تظهر على خرائطنا، فإنها من الناحية الفعلية كانت منافساً مستقلاً لدولة الكونغو الحرة.


الفصل الأول

[21] وجدت ضمن حدود دولة الكونغو الحرة، كما رسمها مؤتمر برلين[17]، مقاطعة كبيرة وسمّيت بكاسونجو أو مانييما في خريطة أفريقيا، والتي لم تمارس عليها حكومة الكونغو الحرة أيّ سيطرة، فيما عدا تيبو تيب أو رشيد أو واحد أو اثنين من العرب ممن عينوا كمسؤولين في بلادهم بواسطة حكومة دولة الكونغو الحرة. لقد أسست في تلك المقاطعة العظيمة منظمة عربية قوية، احتفظت باتصال دائم مع زنجبار عبر الطريق البري خلال أوجيجي، وعبر طرق محيطة أخرى. وعت هذه القوة العربية أنه وما إن يقوى التأثير الأوروبي بشكل كاف في [22] حوض الكونغو فإن صداماً بين القوتين سيصبح حتمياً. وفضلاً عن ذلك، فإن العرب عرفوا أنه في حال النجاح الأوروبي، فإن الجزء الأكبر من تجارة العاج والمطاط سيؤخذ من أيدي المسلمين، وبالتالي، سوف يتخذ طريقه، بدل الاتجاه نحو الشرق، عبر الكونغو نحو الأطلسي. وسيخسرون إلى الأبد البلاد العظيمة، التي كانت تشكل أراضي الصيد للغزوات وقنص العبيد. وبتوقعهم لهذا، اختاروا لحظتهم بدقة، في وقت لم تكن فيه الدولة الحرة مستعدة للحرب. وعبر نجاحات المهدي من قبلهم، في تأسيس إمبراطورية طرد الأوروبيين منها، تشجعوا بدورهم آملين القيام بشيء مماثل في حوض الكونغو. وكانت حركتهم الأولى هي إبادة حملة هوديستر (Hodister)[18]، مع الرجال البيض الذين تركوا في المحطتين التجاريتين اللتين أقامهما ضمن أراضيهم؛ وبعدها قتلوا أمين (Emin)

---

17 - مؤتمر برلين ويسمى أحياناً بمؤتمر الكونغو (1884 - 1885) وقد عقدته الدول الأوروبية لاقتسام أفريقيا (http://en.wikipedia.org/wiki/Berlin_Conference_%281884%29) (المترجم).

18 - هو (M. Hodister) إم هوديستير ممثل الشركة التجارية البلجيكية وشكّل مقتله وعشرة بلجيكيين آخرين باللومامي الأعلى بداية الحرب العربية البلجيكية (http://www.1911encyclopedia.org/Congo_Free_State) المترجم.

باشـا[19]، الذي كان حينها رحالة مسـالماً، في بلادهـم، وبحماية زعيم عربي قـوي. وأخيراً، نظموا جيشـاً قويـاً، وهاجموا الحملة التي كنـت مرتبطاً [23] بها؛ والتي كان هدفها إقامة محطات في كاتنجا، وهي مقاطعة ليست خاضعة للسيطرة العربية. ولو قيض لهم النجاح في القضاء علينا، فسيكون من السهل عليهم متابعة السـير براً حتى سـتانلي بول؛ وفي الوقت نفسـه يأملون أن يكون هجومهم على محطة شلالات ستانلي هجوماً ناجحاً، وهي حالة ستؤدي إلى أن يهبطوا في نهر الكونغو نفسـه برتل آخر، وحينها لن يجدوا صـعوبة كبيرة في طرد الأوروبيين المتبقين، وبالتالي تأسيس امبراطورية إسلامية. وكما سيظهر فـي الصـفحات التالية، فـإن حظاً فائقاً للعـادة، ترافق مع القيـادة الجيدة، كان سـبب نجاحاتنا الأولى. وبالتعرف إلى ما كان موضـع المخاطرة، وبالوعي الكامل لخطورة الموقف، فإن المسلمين قاتلوا حتى النهاية المريرة، وهم يعودون المـرة تلو الأخـرى للهجوم، حتى وإن تلاشـى أي أمل للنجـاح. وكانت النتيجة خسائر هائلة لا تصدق في الأرواح. أما بالنسبة إلى القارئ العادي غير المطلع على التاريخ الأفريقي، فلربما بدا ذلك على السطح بمثابة حرب صغيرة تلفت الأنظار بغرابتها، حيث تواجه دزينة ضباط بيض برفقة أربعمائة من العساكر السـود [24] من جانـب، بمواجهة مائتين من الزعماء العرب، يدعمهم بضـع مئـات مـن الخليط العربـي الأفريقي يقـودون أعداداً كبيرة مـن الجنود غير النظاميـين، مـن جانب آخـر. ولكن يتوجب الأخـذ في الاعتبـار، وعلى عكس الصراع في السودان، أن هذه المواجهة قد أخذت مسيرها في وسط بلاد كثيفة السـكان، اعتاد سكانها أجمعين، على الحرب الوحشـية، وشاركوا في القتال، وأن قطاعـات كبـيرة من الرجـال قد تبادلـت المواقع بانتظام بحسـبما زادت

19 - محمد أمين باشا، وعمد بالأصل باسم إدوارد شنتيزر Eduard Shnitzer (28 مارس 1840 - 23 أكتوبر 1892) طبيب وعالم طبيعي عمل حاكماً لمقاطعة أعالي النيل في السودان حين كان تابعاً لمصر. دفعته ثورة انفجرت بالخرطوم للتوجه إلى جنوب السودان حيث حوصر، وتشكلت حملة بقيادة هنري ستانلي لإنقاذه، وتم ذلك. لكنه قتل لاحقاً بعد أن التحق بالعمل في الشركة الألمانية بشرق أفريقيا http://en.wikipedia.org/wiki/Emin_Pasha (المترجم).

مكانة هذا الطرف أو ذاك أو قلت. وهكذا فبينما دفع العرب إلى الخلف باتجاه تنجانيقـا، نجحوا في إخضـاع كل الرجال المقاتلين لقبائـل جديدة لراياتهم. لقد كان ذلك أسهل، بحيث إنهم كانوا ولثلاثين سنة، القوة الوحيدة؛ إذ لم يكن الأوروبيون معروفين، وكان السـكان المحليون سريعي التصديق للقصص التي انتشـرت في أوسـاطهم عن قسـوة الأوروبيين إزاء الأدنى منهم. وعلى الرغم من أن خسائرنا نحن وحلفاؤنا كانت جسيمة، فإن الخسائر العربية كانت أكبر بكثير؛ بل إنها تقدر في الواقع، بسبعين ألف رجل. كان هذا الصراع، بلا شك، نقطة تحول في التاريخ الأفريقي. ويسـتحيل حتى تلخيص مآل تأثير ذلك في [25] مستقبل أفريقيا فيما لو أسست دولة إسلامية أخرى في حوض الكونغو. أمـا بالنظر إلى ما تقـوم عليه الأشـياء حالياً، حيث أزيلت القـوة العربية من وسط أفريقيا، فإن التنبؤ بأثر ذلك في البلد لا يزال صعباً.

ففي وضعيتنا الراهنة من الجهل فإن خيار الاستيطان بمواجهة الإقامة، بـات خياراً مسـتحيلاً. فالمعرفة المتزايـدة عن الأمراض، ومعالجـة تلك التي تخص أساسـاً الطقس المداري، يمكن أن يجعل قيام مستعمرة أوروبية صحية في هذه الأرض الثرية أمراً ممكناً، وحيث يبدو قيام التجار المتجولين المدعومين بنمط ما من الاحتلال العسكري العنصر الأوروبي الوحيد في الوقت الراهن.

الفصل الثاني

الوصول إلى بنانا - وصف القافلة - الرحلة من الساحل إلى الداخل

[26] دولـة الكونغو الحرة، وكما يعرف غالبيـة الناس الآن (على الرغم من أنه ولأربع سـنوات أو خمس مضـت فإن القليل لا يعـرف أكثر من وجودها فقـط)، هي وبشـكل عـام، بلاد يسـتمد منها نهـر الكونغو وروافده مصـدره المائي. وتمتد من مصـب الكونغو، على الساحل الأطلسي، إلى الساحل الغربي لبحيرة تنجانيقا؛ وبين خطي العرض الخامس إلى الشـمال والثالث عشـر إلى الجنوب. وتقع كل الروافد الأساسية للكونغو ضمن حدودها باستثناء رافد يقع في منطقة تعرف بالكونغو الفرنسـي. وتغطي غابة الكونغو العظيمة أصـقاعاً عديدة من هذه المسـاحة الشاسـعة لهذا البلد الواقع في أفريقيا الاسـتوائية. وبـين أعظـم الغابات المداريـة في العالم، يمكـن للمرء أن يتحـدث عن ثلاث فقـط: [27] الأمازون وأرخبيل الملايو والكونغو. وبين السـاحل وحتى سـتانلي بـول، حيث تمتد مسـاحة تقرب مـن مائتين وثمانين ميلاً، يجـري الكونغو بين مرتفعـات عظيمة، ويشـكل مجموعـة من الأنهار السـريعة والشـلالات تجعل المواصـلات النهريـة مـع الداخل مسـتحيلة علـى الإطلاق. وما إن تصـل إلى سـتانلي بول حتى تصـبح المواصـلات مع الداخل سـهلة. ويمكن الوصول إلى سـتانلي فولز الواقعة على بعد ألف ميل بأعلى النهر، بالمركب البخاري، بحيث إنه لا توجد بينها وبين سـتانلي بول منحدرات نهرية سريعة. ويمكن استخدام كل روافد الكونغو تقريباً للمواصلات النهرية، التي يمتد بعضها لمئات الأميال. وكمـا يمكن التخيل بسـهولة، أن أي جزء من البلاد في جوار مباشـر لأي من تلك الروافد قد بات معروفاً إلى حد كبير، وإن وقعت مناطق لا تبعد كثيراً من ضـفة النهر، لكنها ليست مستكشفة تماماً. وتشكل حقيقة أن هناك أراضي لم تستكشـف بعد في الكونغو، وبالتالي أجناسـاً غير معروفة سيتم العثور عليها، مصدر استثارة للعديد من الناس. ومنذ صباي، شكل كل شيء يرتبط بالقارة

الغامضــة مصــدر اهتمام لي؛ وقررت أن أرى بعضــاً [28] منها إن أتاحت لي الفرصة ذلك.

وتمثلت إمكانية القيام بذلك على الشاكلة التالية:

طلب مني صــديقي الدكتور بارك[20] من البعثة الاستكشافية لإنقاذ أمين باشا، عدة مرات الخروج إلى أفريقيا في خدمة صاحب الجلالة ملك البلجيك؛ وأخيراً، وبعد أن عملت طبيباً مقيماً في عدة مستشفيات، قررت أن أقوم بذلك. ذهبت إلى نِتلي (Netley)[21] يوم الســادس والعشرين من أكتوبر 1891، وبعد التشاور لساعة مع بارك، غادرت إلى بروكسل في الليلة نفسها. وفي اليوم التالي قبلت التكليف كضابط طبيب في قوات دولة الكونغو الحرة، وأخيراً وصلت إلى بنانا (Banana)، في مصــب الكونغو في ديسمبر 1891. وأخذاً في الاعتبار أن ســمعة الســاحل الغربي لافريقيا حيــث يوجد خليج بنانا غير مشــجعة، إذ أن أول شــيء يلاحظ هو أن رأس الشــريط الصــغير الرملي والذي بنيت فوقه محطة تحتله بالكامل هو مقبرة مزدحمة. يبقى أن هذا الشريط الرملي والذي لا يرتفع لأكثر من بوصــات قليلة فوق منسوب ارتفاع الماء، [29] مع مستنقعات المنجــروف والبحيرات الضــحلة باتجاه البر تحتوي على أمواج الأطلســي على الجانب الآخر، يشــكل مصــحة جيدة جداً للأوروبيين المنهكين الذين يهبطون

---

20 - Heazle Parke توماس هيزل بارك (1857 - 1893) طبيب إيرلندي ومكتشف وعالم طبيعي جندي. خدم في الجيش البريطاني بمصر كطبيب، وقاتل في الخرطوم لإنقاذ الجنرال جوردون عام 1885. والتحق بحملة إنقاذ أمين باشا حيث أدت شجاعته وخبرته الطبية لإنقاذ الكثيرين، وأطلق عليه أنه الرجل الذي أنقذ ستانلي (اُنظر هوامش لاحقة) (http://en.wikipedia.org/wiki/Thomas_Heazle_Parke) (المترجم).

21 - لربما أشار هنا إلى مستشفى فكتوريا الملكي العسكري والذي عرف بمستشفى نيتلي لوقوعه بنيتلي في هامبشير بإنجلترا. أنشئ المستشفى عام 1856 باقتراح من الملكة فكتوريا (1837 - 1901) وخدم الجهد العسكري البريطاني، وهدم عام 1866 (http://en.wikipedia.org/wiki/Netley_Hospital) (المترجم).

قادمين من المنطقة الداخلية البعيدة. وما كان استقبالي في بوما (Boma)[22]، وخلال الأيام القليلة الأولى، أكثر مدعاة للبهجة. فقد كان الفندق مزدحماً؛ وحيث بدا، أنه لم تكن مهمة أحد أن يجد لي مأوى، نمت على سطح القارب البخاري الراسي على رصيف الميناء. وتفاجئ المرء الترتيبات المستغربة لبيت الجمارك، حيث يتوجب على الضابط أن يدفع ضرائب على بنادقه، وذخيرته، وحتى على مسدس خدمته. وفي أيّ حال، فبعد وقت قصير وصلتني الأوامر بالتقدم إلى لوسامبو (Lusambo) على السانكورو، وعليه استقللت أول مركب إلى مَتَادي (Matadi) وهي نقطة يبدأ منها طريق القوافل إلى ستانلي بول. وحيث إن نهر الكونغو باتجاهه الصاعد ولمسافة ثلاثمائة ميل يتجه من ستانلي بول إلى متادي يتكون من مجموعة شلالات، توجّب أن تتم تلك الرحلة على الأقدام، وإن كانت الأمور ستسهل قريباً عبر خطوط السكة الحديد، والتي قُطع شوط في إقامتها. ويبدو المنظر قريباً من أسفل متادي رائعاً؛ فالكونغو العظيم وهو ثاني أكبر أنهار العالم - يتوغل بقوة [30] عبر ممر ضيق يقل عن الميل اتساعاً، ويعرف بموقع شودرون الجهنمي «Chaudron Infernal». وعلى الرغم من أن المراكب البخارية عابرة المحيطات تصل حتى متادي بانتظام، فإنه لم يُنجح قطّ في سبر أعماق النهر في هذا الممر. ولربما كانت المسألة مسألة وقت قبل أن يحطّم أحد هذه المراكب جهاز تحكمه أو قطعة أخرى من آلاته، أو قبل أن تحدث كارثة مروعة. متادي - وكما يتضمن معناها المحلي «حجر» - هي سهل صخري أجرد قاحل، وتبلغ الحرارة فيه أشدّها. وبعد أسبوع من الانتظار دون جدوى (وخلال هذا الوقت لم يجر تزويدي بمنزل أو فراش أو خيمة فتوجب عليّ النوم في معطفي في شرفة منزل المثلية)، أعطيت، برفقة ثلاثة ضباط توفوا لاحقاً، بضع دزينات من الحمّالين لنقل أمتعتي، وبدأنا السير على طريق القوافل.

22 - شكلت مدينة بوما عاصمة للكونغو البلجيكي (1826 - 1886) وهي المقصودة بالإشارة هنا. وتعني البوما أيضاً حظيرة أو تحصين عسكري لموقع باستخدام جذوع الأشجار (http://en.wikipedia.org/wiki/Boma_%28enclosure%29) (المترجم).

والقافلة، كما يعرف غالبية الناس، هي مجموعة من الناس تسافر معاً من أجل تحقيق الراحة والحماية المشتركة، وأن احتواءها على العناصر والمعدات هو أمر ضروري لنجاح المهمة. وكما سيتوجب عليَّ سأتحدث في بعض مناسبات الارتحال بقافلة، وكانت هذه هي المشاركة [31] الأولى لي في واحدة منها دون إعطاء الانطباع بأنها نموذجية، وسأصف قافلتنا التي سارت بعد بضعة أشهر، تاركة لوسامبو إلى كاتنجا. ولقد تشكلت من:

الضباط البيض وخدمهم؛ حاملي البنادق والحمَّالين؛ الجنود النظاميين وعدد معين من الحمّالين الإضافيين لنقل زيادات ضرورية للصحة، وطيب العيش ورضا الرجال. ينقل الحمّالون كل الأثقال - بما فيها الأغذية، والعتاد والماء - التابعة للقافلة على الطريق، مع الأثقال التي تشكل هدف الرحلة بنحو خاص مثل المتعلقة ببناء المحطات، أو الاستكشاف، أو التجارة أو الحرب. وغالبية البعثات التي ارتبطت بها اشتملت على العناصر الأربعة. ويزيد وجود بعض الرجال الإضافيين - مثل النجار أو الحداد أو مصلِح الأسلحة والخياط والطباخ - من الراحة العامة بشكل كبير؛ ويتوجب أن يرافق بعثات وسط أفريقيا كافة صياد محترف أو اثنان، وستة قوارب خفيفة على الأقل ورجال مياه عامّون. وكان القائد دانيس قد أصدر أمراً جديداً في الرحلات الأفريقية بالسماح لكل جندي بأن يصطحب زوجته أو زوجاته كما يكون الأمر معه؛ [32] وحتى الحمّالون تتبعهم زوجاتهم بشكل عام. ولا يمكن تقدير الفوائد الجمّة من السماح للرجال بالحرية الكاملة في هذا المجال إلاّ بالتجربة الشخصية في رحلات القوافل التي تضم النساء أو تستبعدهن من بين صفوفها. وبين أهم تلك الفوائد، وهي ليست محل جدل، تفادي المشاكل مع سكان القرى المحليين أو الناس الذين يُمر بهم وفيما يتعلق بموضوع النساء. وسوف يتلاشى الإزعاج والخطر الحاصل، على الرغم من الضبط الشديد، والمتعلق بما يعرفه كل مسافر أفريقي بـ «التحدث إلى النساء»، حين ترافق الرجال زوجاتهم.

وعلى الطريق، تشكل النسوة أيضاً، حمّالات إضافيات - حيث إن كثيراً ما يسهل على الجندي أن يحمل غذاءه وسجادة وقدراً للطبخ وبطانية وذخيرة وبندقية مع زوجة تساعده في ذلك؛ وإذا كان لديها خادم أو أكثر يضاف، فكل هذه الأشياء تسهّل من الأمور أيضاً. ويتوجب الأخذ في الاعتبار أنه بين الأجناس كافة التي أتحدث عنها، فالنساء بها معتادات على العمل الشاق؛ ونادراً ما سمعت عن أي حالة فضلت فيها النساء البقاء في محطة مريحة بدل متابعة رجالهن في الطريق. [33] وبالوصول إلى المعسكر، يبدأ كل رجل للتوّ في بناء كوخ لنفسه ولعائلته، وبينما ينشغل هو بذلك تبدأ النسوة في البحث عن الطعام وطهوه. وبالنتيجة يُعتنى بالرجال ويُغذّون بشكل جيد ولا يكونون عرضة لتقلبات الطقس. وبنهاية مسيرة طويلة ومتعبة، يستحيل تقريباً جعل الرجال يهتمون بأنفسهم: فبعد نقل حمل ثقيل طوال اليوم، يرفضون تحمل عناء الاعتناء بأنفسهم بشكل معقول، وإذا ما كان الطقس رديئاً، أو شحّ الطعام، فسرعان ما يمرضون. وإذا ما مرض رجل في الطريق، وإن ظلّ قادراً على المشي، فأول شيء يفعله هو التخلص من تموينه من الغذاء - والذي يوضع عادة في ربطة ثقيلة ومزعجة - بأمل أن يتمكن في اليوم التالي من شحذ أو استعارة تموين شخص آخر أو سرقته. وكانت الصحة الجيدة التي تشيع في قوافلنا نتيجة هذا النظام ملحوظة بشكل كبير. وفي حالة واحدة كنا على الطريق لسبعة أشهر بمعية أربعمائة جندي، وقافلة تتكوّن من ألف وثمانمائة نفس، [34] ولم نخسر طوال هذا الوقت أي رجل بسبب المرض أو الهروب. واشتملت البعثة على مسيرة سبعة أيام في مقاطعة هاجمتها قوات عربية مؤخراً، وحيث استحال العثور على ذرة من الطعام من أي نوع، ولم نر خلالها أي شيء حي، حيث قضي على السكان المحليين أو أخذوا كأسرى. كانوا قد قضوا على حيوانات الصيد؛ وحتى الحمام والدجاج الحبشي والتي تفضل صحبة الإنسان، رغبت بنفسها إلى مقاطعات أخرى. وحيث إننا عرفنا ما يُخَبأ لنا في المستقبل، فلقد حمّلت القافلة نفسها بالغذاء الكامل، وحملت النسوة

عدة صـناديق أكثر مما يحمل الرجل. وكانت القوافل تسـير فـي أفريقيا عادة فـي رتل واحد، حيث نادراً ما يزيد عرض الطريق فـي داخل البلاد على عشـر بوصـات. وكان تشكيلنا يتضمن أن يتقدمنا حرس متقدم قوي من الجنود، من الذين لا يسـمح لهم بحمل أي شـيء عـدا بنادقهم وذخيرتهـم؛ يتبعهم تقدم الأحمـال والحرس، وبعدهم النسـاء، ويأتي فـي النهايـة حرس قوي للمؤخرة. ويتوزع الضـباط البيض، وكل واحـد منهم بحرس خاص جيد، [35] على طول الخط، والذي يمتد أحياناً لميلين أو ثلاثة أميال.

وسيوقف الضابط القائد للحرس المتقدمين طليعة القافلة، ربما لعشرين دقيقة إن مرت بعقبة هينة، ربما لا تزيد على وجود شـجرة سـاقطة. سترسـل حينها القوات الإضـافية كلها وتابعو المعسـكر فـوراً إلى مقدمة القافلة، وحين يتخطون ذلك يتوجب عليهم أن ينسـحبوا خارج الطريق، بحيث لا يسـمح لهم بـأن يتخطـوا أو يتدخلوا بـأيّ طريقة مع القافلة الرئيسـة. ويسـير مع حرس المؤخرة الحمّالون الإضافيون والسجناء، ويكون واجبهم أن يلتقطوا ويحضروا أيّ أحمال أو مرضى يكونون قد سقطوا من الصفوف.

وبـدوره طريـق القافلة يسـتحق بعض الوصـف. فهو نادراً مـا يزيد على البوصات العشـر عرضاً، ولا يتغير العرض أينما اتجه الطريق: إن جرى الأمر حين اجتياز مرتفعات صـخرية، أو المرور بغابـات، أو حين الهبوط من الجبال والجوانب السـحيقة للممرات الضـيقة، يظل الطريق هو الممر الرتيب نفسـه. وهو مرهق إلى حدّ ليُتّبع لبضـع سـاعات، على أن السـاعات سرعان ما تطول لتصـبح أياماً، والأيام أسابيع، ليستقر فـي ذهن المرء اعتبار الممر بمثابة عدو شخصـي. وبعد [36] المرور بسـهل رملي حارق، بشفرات حشائش جافة بطول قدم أو اثنين –وهو نطاق موحش ومنعزل إلى حدّ أنه لا يسمع به طنين حشرات– لربمـا يخرج المرء على أرض حجرية (بدت أمامه فـي المدى لسـاعات من قبل كطبقة رمادية)، حيث يبدأ منها طريق لا ينتهي كخط أصـفر يمتد نحو الأفق.

ولربما سيبدو خط أزرق من الجبال بارزاً، في البعد وباتجاه الشمال، وإن كان الطريق قد استمر باتجاه شمال شرق، تعرف أنه ومهما كانت الصعوبات في الصعود، فإن الطريق سينعطف جانباً وستتسلقها في أكثر المواقع انحداراً. وإن قادك الطريق إلى بلاد خصبة، فإنه سيتلوى مثل ثعبان، ليشكل نفسه كحرف إس (S)، وسينجح بالتالي في مضاعفة المسافة إلى القرية، ومن المواضع بما يقرب من ساعة أو ساعتين قبل ذلك. والساكن الأصلي المعادي يرى هذا الطريق كصديقه. فهو يحفر حفراً فيه بقطر قدم، ويضع فيها أشواكاً حادة أو رؤوس سهام مسمومة، ثم يغطي الفتحة بأوراق مغبرة، ليضع الغافل من الحمالين الحفاة رجله فيها، فيصبح عديم الفائدة أو يموت على الطريق. وشجرة ساقطة على الطريق تفيد العدو أيضاً: [37] فهو يضع رمحاً في الحشائش أو الأجمة التي تعلو الطريق في الجانب المقابل، بحيث إن أول رجل يصطدم بالشجرة أو يقفز فوقها يقتل. وحين يموت رجل في القافلة لا يدفن، بل ينحرف الطريق لياردتين أو ثلاث ياردات من الجثة، ليعود بعدها ويلتحق به وبمسافة مساوية على جانبه الآخر. ويبقى ذلك الانحناء إلى ما لا نهاية - فما إن تغادر الخط المستقيم، حتى لا يعود الطريق إليه أبداً. يكفي لشجيرة شوكية صغيرة، أو شجرة ساقطة أو حجر أن تلوي الطريق في انعطافة تطول لياردات أو أميال، ليعود بعدها إلى نقطة تواجه العقبة الأصلية، وإن ليس بعيداً عنها. ويتجاهل الطريق الأنهار والأودية الصغيرة: فمهما كانت الصعوبة في اجتيازها فإن عبورها ينتهي على الضفة أو الجهة المقابلة، لا أطول ولا أقصر فعلى الرغم من أن الأنهار ربما تتحول إلى مخاضة في الفصل الجاف، فإن جسراً أو زورقاً خفيفاً يظل هو الوسيلة الوحيدة لاجتيازه في الفصل المطير.

[38] ولكن وبالعودة للرحلة إلى لوسامبو. وقبل أن نسير لعدة أيام على الطريق وصلنا إلى الاستنتاج بأن لا بد لشيء غير معتاد من أن يكون قد حدث. ارتمت جثث الأموات في كل حالات التحلل على الطريق كما سقطت أصلاً،

وتعلقت أثقال من كل نوع ووصف من على الأشجار، وغالباً ما تكون على بعد أقدام قليلة من أجساد الرجال والذين بدا أنهم قد وضعوها هناك. فمن عادات الحمالين الأصليين أنهم يشدون الحِمْل بين فرع شجرة شوكي التفرع، أو بمساعدة عصا للمشي يقدر طولها بستة أقدام والتي يحملونها كلهم للمساعدة في حفظ توازن الحِمل بالاستناد إلى شيء إضافي. وبهذا يتفادون مشقة رفع الحمل من الأرض عندما يرغبون في متابعة الرحلة. وطوال طريقنا إلى لوكونغو (Lukungu) - وهو منتصف الطريق إلى ستانلي بول - رأينا هذه الحالة السيئة من الأمور. وفي عدة مرات وجدنا مشقة في الحصول على ماء، حيث إن جثث الأموات كانت ملقاة في الجدول أو النبع الذي كنا قد قررنا أن نقيم إلى جواره معسكراً جيداً. لم نر أحداً ليقول لنا ماذا بالأمر، أو لتنبيهنا حول حالة المنطقة الخطيرة. وحين وصلنا إلى لوكونغو [39] علمنا أنه، وبسبب انتشار وباء، قيل إنه الديزنطاريا، فإن كل المواصلات مع الساحل قد انقطعت، بحيث إن السكان الأصليين رفضوا الذهاب إلى المناطق الموبوءة. وانتشر هذا الوباء كنار الغابات وسط القوافل، وكان مردّ ذلك أساساً إلى العادات السيئة التي يتبعها السكان الأصليون في تلك المناطق بخاصة. ويضاف إلى ذلك أن الفصل كان فصل الأمطار (وهو فصل الأعاصير أيضاً)، ولقد مررنا جميعنا بتجارب عصيبة. وبسبب أنه جرى تنبيهي مسبقاً، فإنني حرصت على أن أغرز أعمدة خيمتي من ست بوصات إلى ثمانٍ أعمق مما هو معتاد، بحيث تنتصب حاشية خيمتي فوق الأرض، وإذا ما أهيل التراب عليها فإن الأمر يشكل عامل سلامة إضافياً. وبإضافة حفر خندق حول خيمتي ووضع أمتعتي في أكثر الأماكن انكشافاً، يصبح من الصعب حتى على إعصار أن يقتلع مسكني. ولمرات عدة في الليل، وبقليل من الإنذار أو بعدمه تماماً، تطير خيمة واحدة أو أخرى من الزملاء الذين كانوا أكثر كسلاً من أن يشرفوا بأنفسهم على الأمور، تطير بعيداً، بل تستقر أحياناً على الأشجار المجاورة. [40]

وبعد السفر معهم لبعض الوقت، أصبت في آخر المطاف بالإرهاق من الطريقة البطيئة والفوضوية التي كان رفاقي يتقدمون بها على الطريق. ولذلك فقد شققت طريقاً باطراد في مقدمتهم، فوصلت إلى ستانلي بول في ليوبولدفيل في السابع من فبراير 1892. وهناك حيث كانت ستانلي بول تعاني شحاً في مواد التموين، أصدر أمر واجب التنفيذ لكل ضابط بأن يذهب، بشكل دوري، لاصطياد فرس النهر لتزويد القوات باللحم. وكان ذلك بمثابة تغيير مبهج في حياة المحطة الرتيبة، تطوعت على الفور للصيد، إذ إن الرغبة كانت شديدة لصيد أي شيء. ولكن من المؤسف، فقد وقعت حادثة أو اثنتان إبان صيد الفيلة، لذلك كان صيد فرس النهر والظباء هو الرياضة الوحيدة المسموح بها. وكانت تجربتي الأولى في إطلاق النار على فرس النهر، وعلى الرغم من أنها ليست جديرة بالملاحظة، فإنها تظهر غباء الأشياء التي يمكن أن يقدم عليها الجهلة من أمثالي. عسكرت على شاطئ رملي قرب منبع ستانلي بول - وقد كان مكاناً، وكما اكتشفت لاحقاً، أو مقراً لتخييم السكان الأصليين. [41] وحين عدت في المساء وجدت أنه بالإضافة إلى ذباب الرمل، غزت خيمتي طفيليات بحيث استعصى النوم والراحة أو أيٌّ منهما عليّ. ولم يكن أمام رجال قاربي من البنجلا (Bangala) والذين جُمّعوا على عجل ضمن مجموعات، ولم يكونوا في وضع أفضل، وقد تغطوا بأكبر قدر من الدخان أي شيء يمكن أن يصنعوه والناتج من وضع الحشيش الرطب على النار. وهكذا فإن اللطمات التي كانت تصفع أجسادهم للتخلص من الحشرات الجريئة القرص باتت مزعجة. وحيث بات النوم مستبعداً، قررت أن أحاول الصيد في ضوء القمر. وهكذا وبعد ساعة أو اثنتين من التجديف الصامت، أعلن البنجلا أنه يمكن العثور على أفراس البحر على جزيرة قريبة منا. وهكذا حين دفعنا القارب وسط رف نطاق النبات النتن المتاخم لها، شققنا طريقنا لمسافة إلى أعلى طريق ضيق زَلِق. وقادنا ذلك إلى فسحة مفتوحة، بدا واضحاً أن الحشائش فيها قد ديست أو أكلت، ووجدت نفسي فجأة في مواجهة زوج من أفراس النهر على بعد

عشـرين ياردة. ولم يكن فـي حوزتي سوى بندقية المانليتشر (Mannlicher)[23] وخمس خرطوشـات فـي المخزن. وحيث ارتفعت الأعشاب المداسة والمتكسرة إلى كتفي، وجدت من الصعوبة أن أشق طريقي حول الفسحة المنبسطة [42]، والتي تمكنني من تحقيق إصـابة معقولة لأقرب الحيوانات. أطلقت على الكتف، وحين دار ملتفـاً، أطلقـت على الرأس. حينها تقدم الفرسـ الثاني باتجاهي، فأطلقت كمـا اعتقدت حينهـا بين الأذنين. وإذ اسـتمر في التقدم، أطلقـت مرة أخرى، فأقعـى علـى ركبتيه، ثم إنه نهض بعد ذلك على الفـور. وأتاحت لي تلك البرهة أن أفر باتجاه الطريق الضـيق الذي قدمت منه، وكان من المستحيل تقريباً على رجل أن يشق طريقاً له بنفسه عبر أعشاب، حيث تستقيم كل عشبة بقطر نصف بوصـة إلى بوصـة وبارتفاع عشـرة أقدام إلى اثني عشـر قدماً. كنت الأول في الوصـول إلى الطريق، وأطلقت آخر خرطوشـة على الفرس المسـنّ، وإذ هرعت عبر الطريق الضـيق، قافزاً في الكونغو، لأجد رجال قاربي قد صـعدوا قاربهم واتجهوا به لمسـافة آمنة. وما إن بدأت أسبح فـي الكونغو حتى تذكرت التماسيح. وهكذا أمسـكت بأول قبضـة من القصب وصـلت إليها، وبينما ما زلت مستلقياً،ناديـت حتى عـاد القارب والتقطنـي. أخذت كمية أخرى مـن الخراطيش [43] ووجدت فرسي الأول ميتاً، فـي حين أن الثاني قد تدحرج إلى أسفل مكان منحدر للمـاء، ولم يعد يرى له أثر. وبالنظـر إلى كمية الدماء النازفة منه، كنت متأكداً مـن أنه كان فـي نزاعه الأخير، لكنني لم أتمكن من إقناع الرجال - الذين كانوا مكتفين تماماً بمشروع التهام اللحم الذي يوفره فرس نهر واحد - لمساعدتي في البحـث عنه. ملأنـا القارب بقدر ما يحمل من اللحـم، وقطرنا ما تبقّى وعبرنا النهر باتجاه ليوبولدفيل. وفي اليوم التالي، التقط الفرس الآخر فـي أدنى الجزء الأسفل من النهر، وهو ميت تماماً. وعندما يجرح فرس النهر على اليابسة، فإنه بشكل عام يتجه للهجوم، ولكن إذا وُجِد حد أدنى من الفسحة لتفادي ذلك فإنه

23 - هي من المرجح بندقية الـ (6.5x52mm Mannlicher-Carcano) العسكرية الإيطالية الصنع والتي طورت بين عامي 1889 - 1891
(http://en.wikipedia.org/wiki/6.5x52mm_Mannlicher-Carcano) (المترجم).

لأمر سهل، إذ ليس بمقدوره أن يلف نفسه إلا ببطء. ولا بد لفرس النهر من أن يعود إلى الماء، إن هُدّد، من الطريق نفسه الذي تركه، لذلك يتوجب على المرء ألا يمشي أو يقف في الأثر الذي يخلفه الفرس عندما يكون على الشاطئ. وليس من الحكمة أن يقترب المرء من طريدة كبيرة، وخصوصاً في فسحة دائرية، ببندقية إطلاق ذات ماسورة صغيرة مثل مانليتشر، لأنه، ومهما كانت شدة دقة تصويبها وقدرتها على الاختراق، [44] فإن قدرتها على الإيقاف تقارب الصفر تقريباً. وفي هذا الصدد فإن طلقتي الأولى على كتف فرس النهر الأول قد اخترقت شفرتي الكتف وأحد عظام القفص، فأحدثت ثقباً صغيراً، لا يكاد يتسع لتمرير قلم رصاص خشبي معتاد. أما رصاصتي الثانية والتي اخترقت الجزء الذي يعلو العين اليمنى تماماً فقد اخترقت الرأس حتى وصلت إلى المخ. وقد اكتشفت لاحقاً، أن من الآمن تماماً، إطلاق النار على رأس طريدة كبيرة باستخدام البنادق الجديدة ذوات المواسير القصيرة. ويعود ذلك إلى أنه وعلى الرغم من أن اصطياد الحيوان غير متوقع، فيما عدا الصدفة، فإنه سيكون قد فقد صوابه لكي يكتشف ماذا يتوجب عليه أن يفعل، وستصبح هجماته بدون جدوى. ولكن يبدو أن استخدام بندقية بماسورة قصيرة لاصطياد حيوان ضخم أبعد ما تكون عن الروح الرياضية، لأن عدد الحيوانات التي ستصاب بالجروح إذا ما قورنت بتلك التي ستقتل حالاً، سيكون عدداً هائلاً. فبعد ما يقارب السنتين من هذه الحادثة، أطلقت تسع طلقات متأنية من بندقية ماوزر (Mauser)[24] على فيل ذكر ضخم، وكانت الرصاصة المستخدمة تزن نصف وزن رصاصة بندقيتنا الـ لي متفورد (Lee-Metford)[25]: لكنني لم أتمكن من الإيقاع به، وانتهى به

---

24 - ماوزر هو الاسم الشائع لمصنع (Mauser-Werke Oberndorf Waffensysteme GmbH) والذي بني لتزويد القوات الألمانية بالسلاح وأسس عام 1811. في عام 1867 اخترع فيلهيلم وبول ماوزر نظام ترباس لولبي للبنادق يعمل بشكل أبسط وأسرع، مما أدى إلى أن يشيع تبني البندقية وسط القوات الألمانية (http://www.mauserguns.com/mauserHistory.asp) (المترجم).

25 - تطورت مباشرة من بندقية المانليتشر النمساوية لعام 1886، وهي تشبهها تقريباً فيما عدا استخدامها لخرطوش 8 مم، وتعبأ بالبارود الأسود (http://www.militaryrifles.com/Austria/88Mann.htm) (المترجم).

المطاف أن يهرب بسرعة تتحدى أي محاولة للمتابعة [45]. ولربما مات الوحش المسكين في أعماق الغابة قبل أن تمضي ساعات عديدة.

على الرغم من أن إقامتي في ستانلي بول، كانت تشتمل على عمل لم يكن بمجمله يبعث على الارتياح، فإنها علمتني الكثير مما كان مفيداً لاحقاً. لقد كان الطبيب مريضاً بوجه عام، وهكذا سقطت عليّ جميع واجباته تقريباً. وكانت المحطة شحيحة التموين، لذا كان الرجال البيض أو السود في حالة صحية سيئة. ولقد شكا ما ينوف على نصف الجنود السود من تقرح الأرجل والأقدام، وكانت القروح جنجرينية، قاومت في البدء أي علاجات. وبعدها، اكتشفت احتمال أن يكون سبب هذه الحالة هو الحاجة إلى الملح؛ بحيث إنه وبعد عدة أشهر وحين بتنا في منطقة لوالابا، حيث كان الملح متوافراً، لم تعد ترى تلك القروح مطلقاً إلاّ على القوات القادمة من أسفل النهر. وفي عدة مناسبات انضمت إلينا فرقة بأكملها تعاني من تلك القروح الكريهة، وشفيت منها في خلال شهر، دون أي علاج باستثناء حصة كبيرة من الملح مع غذائهم بشكل يومي.

وشكلت عقوبات المذنبين من الجنس الأسود مسألة عصية الترتيب. [46] ففي دولة الكونغو الحرة يزود الرجال بحصص حين يكونون في أعالي البلاد، ولا يدفع لهم حتى يعودوا إلى الساحل بعد انتهاء مدة خدمتهم. ويسمح بإعطائهم قدراً من الدفعات على الحساب، لذلك يستحيل إيقاف مثل هذه الدفعات كنوع من العقوبات، لأن الأشياء القليلة التي يمكن الحصول عليها في أعالي البلاد ضرورية لصحتهم. وأصبحت السجون، في وضعية البلاد الحالية مستحيلة، واستخدام البديل الآخر وهو تقييد الرجال في مجموعات ليس ضاراً عليهم من الناحية الصحية فحسب، بل بكل المقاييس مهلك وبغيض إلى أبعد الحدود، ولا يجوز استخدامه بالتأكيد لأي سبب إلا في حالة الجرائم الخطيرة. فعندما يقيد نصف دزينة أو دزينة من الرجال بسلاسل في صف

واحد ويصبح عليهم أن يعملوا، ويرتاحوا، ويأكلوا ويناموا دون أن يتحرروا من القيود لأسابيع وأحياناً لأشهر، فإن صحتهم بالطبع سوف تتراجع. ولقد اقتنع القائد دانيس بالأذى الذي تلحقه هذه المعاملة، والتي غالباً ما أدت إلى جعل الرجل عاجزاً عن العمل لعدة أشهر لاحقة، إلى حدٍّ أنه منع عملياً التقييد بالسلاسل في منطقته. وخلال وجودي في البركة، [47] تمكنت من البقاء معافىً، جزئياً عبر القيام بالكثير من التمارين، وأيضاً عبر الاحتيال للحصول على حمامة أو اثنتين أو أي نوع آخر من الطرائد كل يوم، حيث يبدو أن العيش المستمر على الغذاء المعلب ينال من بدن أي امرئ، بينما يحدث القدر القليل من الغذاء الطازج يومياً أثره الفائق على صحة الرجل الأبيض وقوته في هذا الطقس. وأعتقد أن من الواجب، وبحسب اعتقادي الجازم، التأكيد على أهمية الملابس المناسبة أكثر مما هو جار. إذ يتوجب ارتداء الملابس الصوفية على الدوام، كما أن من الضروري التزود بلفافة زائدة في المساء. ولقد بدأ الاعتقاد يسود تدريجاً وسط السكان البيض في إقليم الكونغو بأن إقامة بيت أو محطة على تل هو أمر يعرض العافية للمخاطر. فوجود بيت على أرض أعلى من المنطقة المحيطة، تعرضه لكل نسمة هواء تهب، وبسبب الاختلاف بدرجة الحرارة فإنه يصبح من الخطر على أي إنسان في منطقة دافئة أن يعود في المساء إلى واقع أكثر برودة. وتظهر إحصائيات حالات المرض والوفاة في محطات الكونغو في المواقع المرتفعة بالمقارنة بتلك التي في الوديان أو المقامة فعلياً على ضفاف الأنهار، [48] وهي بشكل كبير تحكم لصالح تلك التي في المواقع المنخفضة، على الرغم من النظرية الشائعة فيما يخص الملاريا. ويبدو أن هناك القليل من الشك بين أولئك الذين في الكونغو بأن أكثر طبقة من الرجال تمتعاً بالصحة في المنطقة بمجملها هم الضباط والتقنيون والمهندسون المستخدمون على المراكب البحرية وفي خدمات القوارب؛ فهم وعلى الرغم من كونهم يعيشون على سطح الماء، فإنهم يرسون كل مساء على أقرب ضفة نهر في جوار الغابة، وذلك لكي يتمكنوا من تدبير الوقود لليوم التالي.

وفي بداية أبريل قام بعض السكان الأصليين في الداخل بقتل أحد جنود المحطة، وقام زعيم السكان، بعد أن جمع أناسه، وهاجم أحد الزعماء الموالين وهزمه هزيمة نكراء وذلك على بعد مسيرة ثلاث ساعات أو أربع، من ليوبولدفيل وقتل ولديه والعديد من شعبه. أرسلت حملة رافقتُها تتكون من مائة وخمسين رجلاً وضابطين لمعاقبة المهاجمين. ورفض السلاّب الدخول في مواجهة مكشوفة، وأوشكنا على الإرهاق التام بعد أسبوع من متابعة عدو غير مرئي، والذي تبدو قراه خالية دائماً حين كنا نتسلق سياجاتها الخشبية المحيطة [49]، على الرغم من أنه وقبل وصولنا بخمس دقائق قد نقابل بوابل من السهام. كما أنهم لطالما جعلوا وجودهم محسوساً في أثناء زحفنا عبر رشقنا برشقات متفرقة. لقد كانت الطرقات كافة في المنطقة تحوي فخاخاً منصوبة - فهناك حفر صغيرة مزودة بسهم ثبت بالقاع وينتصب إلى الأعلى، وغطيت بأوراق النبات ونثر عليها غبار أو رمل، بحيث لم تعد قابلة للتفريق عن التربة المحيطة. واحتوت كل أجمة أو حزمة أعشاب تسد الطريق على رمح وضع فيها بحيث إن أي شخص يحاول أن يشق طريقه خلالها سيصاب حتماً. وبعد أسبوع من هذه التسلية عدنا إلى ليوبولدفيل، ولدينا شك كبير بأننا لم نعان بقدر ما عاناه العدو من إصابات حقيقية، وإن كنا قد عدنا نسوق قطيعاً من الماعز وعدداً من الطيور. وكان السود الذين معنا من الجنود الشباب، والذين قد تم تجنيدهم، يجتاحهم الخوف مما أسموه «بزنوج الغابة». وكانوا يرفضون بإصرار شن هجمات في الغابة أو القيام بالاستطلاع في أعداد من اثنين أو ثلاثة، أو حتى الابتعاد لمسافة تزيد على اثنتي عشرة ياردة من القوة الرئيسية إن لم يصطحبهم رجلٌ أبيض. وكم كان مثيراً للعجب، أن يتحول الكثير منهم، فيما بعد، وبسرعة فائقة إلى جنود جيدين بعد بضعة أشهر، عندما اشتبكنا في حرب حقيقية مع صائدي العبيد من العرب.

الفصل الثالث

آكلو لحوم البشر من البَنجلا - الرحلة إلى أعالي نهري كاساي وسانْكورو - الوصول إلى لوسامبو - هزيمة جونجو لوتيته وكيل صائد العبيد تيبو تيب على يد القائد دانيس - آكلو لحوم البشر في باسونجو

[51] في التاسع والعشرين من أبريل صعدت إلى ستانلي، وهي سفينة بخارية بزنة ثلاثين طناً بعجلة تجديف في مؤخرتها. ويتكوّن طاقمها من ستين من البَنجَلا وثلاثة ضباط بيض.

والبنجلا أناس أذكياء ومفيدون جداً، وهم بمثابة صبيان الكرو (Kru Boy) في الداخل، ويُستخدمون بكثرة على المراكب البخارية، يصفّفون شعورهم بشكل رائع، تاركين ضفيرة أو اثنتين لتنمُوَا بطول قدم، ثم يصلّبونهما بالشمع مما يضفي عليهما مظهر القرون. ثم إنهم يشجّون ويعيدون شج الجلد من أصل الأنف إلى أعلى الشعر. وتتشكل ندبة [52] بارتفاع بوصة تشبه عرف الديك. و البَنجَلا لا يقدَّرون بثمن عند خدمتهم على القوارب البخارية، فهم يعملون صيادين وجنوداً وبحارين في آن. وحين يقترب المركب من الضفة بهدف الرسو، يهرول اثنان أو ثلاثة منهم إلى السطح، وبينما يمسكون بشُعَب المرساة، يغوصون بموازاة القاع في الماء بعمق قامات عدة، حتى يخرجوا إلى الضفة ويشدوا المرساة إلى جذر شجرة. لكنهم، آكلو لحم بشر، ويسببون المشاكل باستمرار لهذا السبب. ولما كنت عائداً من ستانلي فولز إلى الوطن، بعد سنتين من ذلك التاريخ، كان ستة من الطاقم مقيدين بالحديد على السفينة، وذلك لتسليمهم للعدالة في بنجلا لقيامهم بالتهام اثنين من بني جنسهم خلال الرحلة صعوداً باتجاه المساقط. ولم أشهد المحاكمة، لكن القبطان أخبرني بأن اثنين من البحارة قد أصيبا بمرض في رحلة الصعود، فأعطيا يوماً أو يومين للراحة. وفي اليوم المقبل لتوزيع الحصص كانا غائبين، وأبلغ القبطان بأنهما قد ماتا ودفنا في الضفة [53]. لكن ذلك، في أيّ حال،

لم يقنعه، وإذ تملكته شكوكه الخاصة، قام بتفتيش السفينة، واكتشف أجزاءً منهما وقد جففا بالتدخين، وقد أخفيت تلك الأجزاء في خِزانات ستة من البنجلا، والذين قام بتسليمهم إلى السلطات.

ضمت ليوبولدفيل، وهي ميناء مهم على الكونغو الأعلى، أعداداً وافرة من البنجلا والذين كانوا في حركة قدوم ومغادرة مستمرة. لذلك باتت حراسة المقبرة متوجبة، بحيث أثبتت ضدهم عدة حالات من الاستيلاء على الجثث. ولقد تأصلت فيهم هذه الممارسة إلى حدٍّ استوجب معه استخدام عقوبة الإعدام كوسيلة وحيدة لإنهائها.

ولقد أخبرني البنجلا بأنفسهم، حين كنا في رحلات صيد، وبينما كنت أحتج على كسرهم أجنحة أو أرجل الطرائد فقط بدل قتلها، إن من الأفضل أن يترك الطير على قيد الحياة، لأن ذلك يجعل من اللحم أطرى. ثم أدى ذلك إلى حديث قالوا فيه إنهم وحين يكونون في مواطنهم يعدون لوليمة، فإنهم يأتون بالسجين أو العبد الذي سيشكل الطبق الرئيس والذي يكسرون له ذراعيه وساقيه ثلاثة أيام قبلها ثم يوضع [54] في مجرى أو بركة ماء، مغطساً إلى حد الذقن، وقد ربط رأسه إلى عصا لكي يمنع من الانتحار أو ربما من النوم وبالتالي الغرق.

ويؤخذ في اليوم الثالث ليقتل، وحينها يكون اللحم طريّاً جداً. وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أجزم بصحة تلك القصة، فإنني سمعتها من رجال مختلفين في أوقات مختلفة، ومن المثير للانتباه أنهم يكسرون دائماً الأرجل أو الأجنحة أو الأذرع، بحسب الحالة الواقعة، إن كانت تلك لطيور أو قرود، قبل الإجهاز عليها.

وخلال الرحلة تلك على المركب ستانلي، كنا نتوقف كل مساء، وعندما نضع الطاقم والجنود على الشاطئ، نقيم معسكراً. كان نصف الرجال ينشغلون في قطع الأخشاب وحملها إلى متن المركب قبل الخامسة صباحاً من

اليـوم التالي، وحين نعاود رحلتنا، يرافقنا زورق بخـاري برفقة ملازم أول مع رجالـه على المركب. لقد كان ذلك أفضـل بالنظر إلى أن هناك محطة تجارية أقيمت قبل وقت قصـير على نهر كاساي (Kasai)، قد أحرقت وقتل من فيها على أيدي سـكان المنطقة الأصـليين. وفي السـابع من مايو رسونا قبالة البقايا المتفحِّمـة [55] لتلـك المحطة التجاريـة، على أنه لم تجر مهاجمتنـا ليلاً. في اليـوم التـالي، تم إنزال كل القـوات وبـدأت العمليات بهدف معاقبة السـكان الأصـليين الذين اقترفوا هذا الاعتداء الوحشـي. وأخذ البحـارة من البنجلا قارباً مسـتقلاً لأنفسهم وعادوا فـي مسـاء اليوم وبحوزتهم أربعين قارباً آخر، وقدراً كبيراً من الأقمشة والأطعمة المعلبة التي أخذت من محطة التجارة. كما أحضـروا معهم أيضـاً بعض الأسـرى ورؤوس الذين قاموا بقتلهم. وفيما بعد، عـاد الجنود النظاميون، وقد جرح بعض منهـم، وإن كانوا قد رأوا أعداداً من السكان الأصليين. ولقد أثبت البنجلا أنهم رجال رائعون لمثل هذا العمل. فيبدو عليهم أنهم يعرفون بالغريزة أين يخفي الأصـليون قواربهم فـي المسـتنقعات، ولمـا كان البنجـلا يُهاجَمون، فإنهم سـرعان ما كانوا يتوزعـون وقد انطلق كل واحـد إثر أحد الأعداء وسـط الأدغـال لينتهي إما بالقبض عليـه أو، وهو أمر نـادر الحدوث، يُقتَل البنجلا نفسـه. بعـد يومين أو ثلاثة، وبعـد أن جمعنا كل القوارب (التي حطّمناها لإيقاد النار) فـي المسـتنقعات تقريباً بفضل البنجلا [56]، تقدمنـا علـى الطريـق، وعـاد المركب إلى سـتانلي بول. كنـا على مدى يومين تقريباً، وحين نضـطر إلى الاقتراب من الشاطئ لبروز ضفاف رملية أو لمعوقات مشـابهة، نتعرض لإطلاق نار من السـكان الأصليين، الذين كان يبدو عليهـم أنهم يحتفظون بالقليل من البنـادق، وغالباً ما كانت تسـقط سـهامهم بعيداً منا أو تنغرز فـي سـطح المركب الذي يحمي رؤوسنا من الشمس، دون أن يجرح أحد منا. وكان قاطعو الأخشـاب يتعرضـون فـي أحيان كثيرة للهجوم أو يسـرق الأصليون فؤوسـهم، والذين يراقبون دوماً أي قدر من الأشياء يمكنهم الاستيلاء عليها مهما صَغُرت.

وبينمـا كنـا نبحر في نهر كاسـاي ظهر أحد الأيام، اسـودّ الجو بشـكل مفاجـئ ممتلئاً بالخفافيش التي ظهرت بأعداد كبيرة إلى حدّ أن بعض بحارة المركـب كانوا يلقون ببعضـها أرضـاً بالعصـي. وهكذا تغطت كل شـجرة فـي الجزر وعلى ضـفاف النهـر بالخفافيش التي أخذت تحـط عليها، لتطير مرة أخرى إن برز شـيء يتهددها، مثل انكسار غصن بسبب ثقلها عليه. ولقد قمت بقياس بعض من قتل منها، وتراوح مقياس عرضه من طرف الجناح إلى طرفه الآخر من 18 بوصة إلى قدمين. وكان الأولاد على السطح [54] وبحارة المركب يطبخونهـا ويأكلونها، ويقولون بأنهـا غذاء طيب. ولقد رأيـت أعداداً هائلة لا تحصى من الخفافيش تتصرف على نحو مشابه قرب ستانلي فولز، كما رأيتها بأعداد ضخمة في لوالابا (Lualaba).

وكانـت منطقـة كاسـاي بكاملهـا تعـجّ بحيوانـات الصـيد مثـل الفيلة والجواميـس والوعول والخنازير سـواء فـي الغابة أو المسـتنقعات؛ كما تمتلئ الجزر والضفاف بأفراس النهر والتماسيح والطيور كما في النهر نفسه.

لم تكـن توجد في ذلك الحين في 18 مايو 1892 أيّ محطات أخرى على نهـر كاسـاي، وإن وجـد الآن بعضٌ منها فهـي تقارب الدزينة عـدداً على هذا النهر وفروعه. وبات السكان الأصليون أكثر وداعة وأخذوا يحضرون لنا كميات كبيرة من المطاط للاتجار به، وهو موجود في كل مكان من الغابة. وتوقفنا في بنابِندي (Benabendi) فـي مصـب سـانكورو (Sankuru) لمدة يومين. ولقد أقام هنا أحد الفرنسيين الذي كان يدير تجارة كبيرة في المطاط والعاج.

لم يكـن عرض نهر سـانكورو يزيد عن نصـف ميل إلى ميـل واحد، وهو عميق جداً، وتياره بطيء. وهو يختلف بكل المقاييس عن الكاسـاي، ففيه بعض الجزر وتغطي ضـفافه [58] الغابات إلى حد التقاء تلك الضـفاف بالماء. وتقل فيه أفراس النهر كما بقية حيوانات الصـيد. وفيما عدا القرود، فإنه وبسـبب كثافـة الغابة، تـكاد تلك الحيوانـات أن تختفي فيها. وحيث إنـه لا توجد جزر

أو مساحة مفتوحة، تشح رؤية الطيور هناك أيضاً. ورأيت في أحد الأمكنة على سانكورو نوعاً صغيراً من أفراس النهر في قطيع من ثلاثة وعشرين، لا يزيد حجم أحدها على حجم بقرة ألدرني[26]. وفيما بعد في منطقة لوالابا رأيت قطيعاً من سبعة عشر فرساً من تلك الأفراس الصغيرة. ويعرف المطلع على عادات هذا الحيوان أن من الاستحالة افتراض أن هذه كلها أفراس صغيرة السن تجمعت معاً، وهو ما يقود إلى الاستنتاج بأنها تنتمي إلى فصيلة لم يجر وصفها. لقد كانت أكبر كثيراً من أفراس النهر الليبيرية والتي تشح عنها المعرفة، وليست بنصف حجم الأفراس المعروفة. وفي كلتا المناسبتين كان بمقدوري أن أصيب بعضها ببساطة، وبما أنه لم يكن بمقدوري أن أحملها، فإن الحظ ساعدني بأنني امتنعت عن الإطلاق، آملاً أن أصادفها مرة أخرى في ظروف أفضل.

ووجدنا أنفسنا دائماً في أعالي سانكورو مُتَوقعي الوصول [59]، حيث أرسلت الإشارة عن المركب البخاري قبلها بيومين أو ثلاثة أيام. وعندما نصل إلى هدفنا كنا نجد أن كل السكان الأصليين في لوسامبو قد عرفوا بأننا قادمون، قبل يومين من وصولنا. وهنا، كما في أي مكان في أفريقيا، يحتفظ السكان بنظام مكتمل لإرسال البرقيات، أو الإشارات، عبر طبولهم بحيث إنهم يستطيعون أن يتواصلوا بقدر ما يمكن سماع تلك الطبول، وهو ما يقع غالباً على مسافة أميال عدة. ويثير نظام البرقيات تلك الاهتمام. فعلى الرغم من أن لبعض القبائل أو للعشائر منها شفراتها الخاصة، فإن هناك طريقة ما بدأت تنظم كل تلك الشفرات. ويعود السبب في ذلك إلى أنه حين يستجوب أحد الطبالين حول موضوع إشارة ما لزعيم آخر، فغالباً ما يرد بأنه لم يسمع ذلك القرع قط، وإلا لفك لغته. وقد تمكنا عبر تلك الطبول، من أن

26 - بقرة ألدرني، بقرة بيتية صغيرة الحجم تربى لإدرار الحليب، وسميت نسبة لميناء حين وصولها إلى إنجلترا (http://www.alderneysociety.org/aldcow.htm) (المترجم).

نبقي اتصــالات دائمة، ليــلاً نهاراً، مع حلفائنا والسـكان الأصـليين وعلى بعد أميال عدة حول المعســكر [60]. ففي كل مســاء ســيقوم أحد أعضــاء معسكرنا بتسـلية نفسه عبر قرع شتيمة للعدو، والتي سيجري الرد عليها بالحماس نفسه من المعســكر المعادي. وأحياناً يســري القيل والقال الودي بين الأطراف، بحيث يخبر جانب الجانب الآخر مسائل تتعلق بالنساء، وأي غذاء يجري تناوله أو كم ساعة نام الزعيم فـي ذلك اليوم. عندها ستهيمن غريزة السكان الأصليين فـي التفاخر والمزايدة فـي مثل تلك المناسـبات، وسـتتردى المناقشة على نحو مؤكد إلى مباراة فـي الكذب، حيث سـيحاول كل قارعٍ طبل أن يزيد على آخر رسـالة أرسـلها منافسه. ويصـبح كل ما حدث معروفاً بشكل جيد في كلا المعسكرين، بحيث إنه يكفي أن يخبر المرء خادمه بجزء من خبر لكي يصـل فوراً إلى وسـط المعسكر العربي بكامله.

كان وصـولنا إلى لوسـامبو مصدر فرح واسـع؛ حيث إننا لم نحضر معنا الأخبـار الأولى من السـاحل فحسـب، بل كنـا حاملين لأولى الرسـائل التي تم تسـلّمها لسـبعة أشهر. ولقد رحب بي بوُد كل من دو فوترز (de Wouters) ودو أويشـ (de Heusch)، وهما اثنان من أفضـل [61] من قابلت من الرجال فـي دولة الكونغو الحرة. وبعد بضـع سـاعات من وصولنا ظهر القائد دانيس، حيث فرغ للتو من حملتين صـغيرتين من أنجح الحملات ضد صائد العبيد وكيل تيبو تيب، جونجو لوتيته (Gongo Lutete)، وأحضـر معه ألفين من أسرى الحرب والعبيد المحررين. وأقيم مهرجان اسـتمر ثلاثة أيام للاحتفال بالعودة الموفقة للقائد؛ وبعد انتهاء مناسـبة الفرح تلك سـجلت غالبيـة الموجودين فـي المحطة على قائمة المرضى. وكانت هنـاك بضع حالات متفرقة من الجدري فـي المدينة، ولقـد قمت بتطعيم بضـع مئات مـن الناس باللقاح الذي أحضــرته من أوروبا، والذي للأسف لم أتناول بعضاً منه.

وبعـد هزيمة جونجو لوتيتـه على يد دانيس ودوكامبسـ (Descamps)، رفضت السلطات العربية فـي ستانلي فولز أن تتخذ أي إجراء حول الأمر. وحين



- البارون فرانسيس دانيس (1861-1909)

أراد مسؤولو الدولة أن يقتنعوا بما كان خلف الغارة، قالت تلك السلطات إنها ليست مسؤولة عن جونجو لوتيته، والذي كان يتصرف باستقلالية عنها، وأن في إمكان مسؤولي الدولة الحرة أن يتخذوا أيّ خطوات يودون القيام بها في ذلك الصدد.

وبمعيتنا وصلت الأوامر من أوروبا [62] للقيام بحملة كبيرة وبأسرع وقت لاكتشاف كاتنجا؛ وقبل أن تمر أيام عديدة انغمسنا جميعاً في تدريب الرجال، وتصنيف المخازن، وإعداد الأحمال لقافلة من أربعمائة رجل ولسنة كاملة. ولم يكن مسموحاً أن يتعدى أي حمل الأربعين رطلاً، وهو ما يمنع احتمال التأخر على الطريق بسبب التخلف في المؤخرة خلف حمالين مثقلين. وبينما كنا على وشك البدء، وفي الخامس من يوليو، وعلى نحو مفاجئ، توفي أحد رجالنا ويدعى سميت (Smit) وكان من أكثر الرجال حيوية، ومرض آخران بالحمى الدموية (haematuric fever) [27]. ولقد ألقى ذلك بظلاله على أجواء المحطة، وتجمّد عملها لأيام.

وفي ذلك الوقت تحديداً اكتشفت قيادة المنطقة أن هناك خطوط نقل للبشر قائمة بانتظام؛ فقد اعتاد شعب منطقة أعالي النهر الباسونجو (Basongo) وهم أنفسهم آكلو بشر على بيع العبيد والأطفال إلى أسفل نهر باسونجو مينو (Basongo Meno) كطعام أو لقاء طعام (for food). وبناء على ذلك، أمر القائد بإيجاد حرس على النهر للاستيلاء أو لإطلاق النار على أيّ قوارب تنزل النهر وبمعيتها أطفال على المراكب، وبعد الاستيلاء على بعضها، نجح في إيقاف حركة النقل. ورافق بعض [63] الأشخاص المنتمين إلى بانيا موتومبا (Pania Mutumba) (زعيم القبيلة في أعالي النهر قيد التحقيق) القائد

27 - حمى التبول الدموي تنتج من إصابة الكلى بنوع من مرض الملاريا (http://www.drugs.com/dict/hematuric-bilious-fever.html) (المترجم).

في الهجوم على جونجو لوتيته. وصدف أن كان أحد أولئك الرجال في حراسة ليلية، وحيث إنه أطلق النار على رجل، جاء ليقدم تقريراً بما قام به، وأرسل شخصاً آخر لإحضار الجثة. وحين أحضرت، اكتشف وسط دهشته، أن الذي أطلق عليه النار هو والده. فذهب على الفور إلى دانيس واحتج بأن الجاسوس الذي أرداه قتيلاً كان والده، وأن ذلك كان بمثابة حظ عاثر للغاية، وأنه لن يتمكن من أكله. فأمره القائد بأن يدفن الجثة بشكل لائق، لكنه اكتشف لاحقاً أن الرجل وعلى الرغم من أنه لم يأكل الجثة نفسها فإنه أعطاها لأصدقائه ليأكلوها. وفي الأسبوع نفسه وصل زعيم شاب من الباسونجو إلى القائد بينما كان يتناول طعام العشاء في خيمته وطلب منه أن يستعير سكيناً، والتي قدمها له القائد دون كبير تفكير. وذهب فوراً خلف الخيمة وقطع بها رقبة فتاة صغيرة عبدة كان يمتلكها. وبينما كان يطبخها، رآه أحد جنودنا [64] وأبلغ عما كان يفعله. وفي الحال تم تقييد آكل البشر هذا، ولكن وبعد شهرين اكتشفت أنه كان في حالة مزرية إلى حدّ أنني خفت عليه أن يموت ففككت قيوده وأطلقت سراحه مرفقاً بإنذار. ولم يكد يمرّ أسبوعان، وإذ أحضره بعض جنودنا من الهوسا (Hausa)[28] الذين قالوا بأنه كان يأكل الأطفال في المنطقة المحيطة بمعسكرنا. وكانت لديه شنطة معلقة حول رقبته، وحين قمنا بتفتيشها وجدنا أنها تحتوي على ذراع ورِجل لطفل صغير. وحيث إن ثلاثة أطفال أو أربعة، قد اختفوا من المعسكر في الأسبوعين اللذين مضيا، ولم تكن هناك أيّ وفيات بينهم في المعسكر، كان ذلك بمثابة دليل كاف ضده في المحاكمة، فأخذ بعيداً حيث أطلقت النار عليه، كعلاج وحيد إزاء هذه الحالة التي لا يمكن إصلاحها.

---

28 - الهوسا: شعب ساحلي يتمركز أساساً في غرب أفريقيا في المناطق الفاصلة بين مناطق الجفاف الصحراوي ومناطق السفانا المطيرة إلى الجنوب وينتشر بطول المنطقة الممتدة من سواحل غرب أفريقيا وحتى سواحل السودان شرقاً، ويتحدث أفراده لغة تنتمي إلى عائلة تشاد وهي عائلة لغوية أفرو - آسيوية (http://en.wikipedia.org/wiki/Hausa_people) (المترجم).

وبعدها بفترة قصيرة هرب عدد من أسرى الحرب، وحين تم التعرف على الاتجاه الذي سلكوه، طلبنا من الزعيم الأكبر في المنطقة أن تجري إعادتهم. فقال إنه وباستثناء أسير واحد، فإنه قد تم التهام الجميع، وأرسل سبعة وثلاثين عبداً مقابل ذلك. وصدف أن الوحيد [65] الذي أعاده كان خادمي الخاص والذي أقنع على أيدي آخرين أن يشاركهم الفرار. وبصدفة حظ، التقى صديقاً في القرية، فكان نصيبه ألا يكون بين المأكولين. وكانت رواياته عمّا رآه باعثة على الغثيان.

وكثيراً ما حدثني الأسرى أو الخدم على هذه الشاكلة: «نريد لحماً. نحن نعرف أنكم لا تملكون ماعزاً أو طيوراً كافية لإعطائنا بعضها، ولكن أعطونا هذا الرجل [مشيرين إلى أحدهم] قائلين: إنه شخص كسول، ولن تحصلوا على أي شيء طيب منه، ولذا فلربما أعطيتمونا إياه».

وقليلاً ما نوقشت مسألة أكل لحوم البشر في أفريقيا. وكثيراً ما أشار الرحالة العظام مثل ليفنجستون وكاميرون وستانلي وفيسمن (Wissman) [29] في أعمالهم إلى الحقيقة البسيطة أن بعض القبائل التي كانوا يمرون بها كانت آكلة للحوم البشر، ولكن جرى حذف كل تفاصيل البيانات التي أدت لتلك الإشارات. إذ إن من الطبيعي لهم كرحالة يسافرون في قارة مجهولة، يرافقهم جنس أو أجناس أجنبية، [66] ألا يكونوا على تماس مع الشعب الذي يمرون في بلاده، والذي لم يكن في حالة عداء معهم قطّ، فقد ظل بدوره في وضع من الحياد المسلح. وحتى الآن تمكنت من اكتشاف أن كل القبائل في حوض الكونغو، هي آكلة للحوم البشر، وفي حالة بعضها فإن تلك الممارسة كانت

29 - Hermann Wissmann هرمان فيسمان (4 سبتمبر 1853 - 15 يونيو 1905) مستكشف ألماني وإداري في أفريقيا. جال في الكونغو وتانزانيا، والتحق فيما بعد بخدمة الملك البلجيكي ليوبولد الثاني (1867 - 1909) الذي كان منشغلاً ببناء أمبراطوريته الأفريقية الخاصة والتي عرفت بدولة الكونغو الحرة (http://en.wikipedia.org/wiki/Hermann_Wissmann) (المترجم).

بازدياد. فبعض الأجناس التي لم تكن آكلة وإلى فترة قريبة، فإنها لوقوعها في منطقة يحيط بها الآكلون، فإنها وبتزايد احتكاكها مع جيرانها، تعلمت كيف تأكل لحم الآدميين؛ ولتزايد دخول الأوروبيين إلى تلك البلاد تنامت تسهيلات السفر وسلامة المسافرين. ففي السابق كان الناس الذين يتجولون بعيداً من الجوار وضمن القبائل المحيطة يُقتلون ويُؤكلون، وبالتالي لا يعودون لأناسهم لتوعيتهم عبر إظهار أن للحم الآدمي فائدة كمادة للطعام.

فبسرعة وبعد أن أنشئت المحطة الاستوائية، اكتشف المقيمون أن حركة متاجرة بالجملة في البشر كانت قائمة على أيدي الأصليين في المنطقة بين هذه المحطة وبحيرة [67] مزومبا (M'zumba). وكان أكثر أولئك الأصليين جرأة هم القبائل التي تحيط بإيريبو (Irébo)، الذين اعتادوا على أن يرتقوا نهر لولونجو (Lulungu) في جماعات مسلحة كبيرة، ويهاجمون السكان الأصليين على ضفافه. وعلى الرغم من أن أبناء هذه القبيلة يحتفظون ببنية قوية، فإنهم لم يكونوا شعباً مقاتلاً. فعندما يجمع المقاتلون كمية كافية من أعداد الناس لملء قواربهم، فإنهم يعودون إلى الكونغو، ويحملونهم إلى أوبانجي (Oubangi) حيث يتم بيعهم للأصليين كطعام. وحتى الآن، وعلى الرغم من أن إقامة محطات حكومية لسنوات مضت قد أدت إلى إيقاف حركة التجارة غير المشروعة تلك، فإنه بات مستحيلاً للمراكب البخارية أن تصعد الأوبانجي لشراء اللحم. فلقد أكد لي ربابنة المراكب أنهم في كل مرة يحاولون صعود أعالي الأوبانجي لشراء الماعز من الأصليين، فإنهم يطلبون عبيداً في المقابل. وغالباً ما يأتون إلى أسطح المراكب حاملين معهم أنياب العاج بهدف مبادلتها بأموال بغرض شراء عبد، متذمرين من أن اللحم بات معدوماً في جوارهم.

وبالحكم على ما رأيت من أولئك الناس فإنهم مغرمون بأكل اللحم البشري، وعلى الرغم من أن [68] ذلك ربما كان ذوقاً مكتسباً، فإنه ليس لديّ أدنى شك في أنهم ربما فضلوا اللحم البشري على أي شيء آخر. وخلال عيشي بين آكلي لحوم البشر لم أصادف حالة واحدة يؤكل فيها اللحم نيئاً؛ فهم

دائماً إما أن يغلوه أو يشووه أو يدخنوه. وعادة التدخين هذه لأجل الاحتفاظ به لمدة أطول ستكون مفيدة لنا جداً، بحيث إننا كثيراً ما نبقى بدون لحم لفترات طويلة. على أنه يمكن لنا أن نشتري لحماً مدخناً من السوق، إلاّ أنه كان من الصعب التأكد مما إذا كان لحماً غير بشري.

ومما يثير الاهتمام تفضيلات القبائل المختلفة، أكثر من تفضيلات الأفراد لمختلف الأجزاء من الجسد البشري. فبعضهم يقطعون شرائح طويلة من لحم الفخذ والأرجل والأذرع، وبعضهم يفضل الأيادي والأقدام، وإن كانت الغالبية العظمى لا تأكل الرأس، فلقد صادفت أكثر من قبيلة تفضل الرأس على أي جزء آخر. وتستعمل الغالبية تقريباً أجزاءً من الأمعاء بالاعتماد على ما تحتويه من دهون؛ فحتى متوحشو أفريقيا الوسطى يعرفون، متفقين في ذلك مع طباخينا أنفسهم، [69] أن شيئاً من الدهن ضروري لمختلف أطباق الغذاء.

وخلال حربنا التي اشتبكنا بها لسنتين، مترافقين مع مجاميع كبيرة ممن تبع معسكراتنا، فمن المرجح أننا حصدنا الفوائد الوحيدة من تلك العادة المثيرة للاشمئزاز. ففي الليل الذي يلي معركة أو اجتياح مدينة، فإن تلك الذئاب البشرية ستتخلص من كل القتلى، دون أن تترك أي شيء حتى للثعالب، وبذلك تخلصنا وبدون شك، من أوبئة كثيرة.

وعندما يفتح الإنسان عينيه فإنه وبدون صعوبة سيعرف من البقايا المروّعة التي يضطر للمرور بها في طريقه، أي شعب قد سبق أن مر قبله على الطريق أو أرض المعركة؛ مع فارق وحيد: أنه سيجد في أرض المعركة تلك الأجزاء التي تركتها تلك الذئاب البشرية للثعالب لأنها لم تتناسب وذوقها؛ بينما على الطريق، وعبر إخماد نار المعسكر، في البقعة السوداء التي تشير إلى المكان الذي أشعلت فيه النار، توجد عظام مبيّضة، مهشّمة ومكسّرة، تشكل بقايا تلك المآدب المثيرة للاشمئزاز. وهي بهذه المناسبة، تشكل مفكرات تشير إلى أن «من سيهرب سيقرأ»، لمن يعرف عادة تلك القبائل.



الفصل الرابع

عروض السلام والتحالف التي قدمها جونجو لوتيته لقوات الدولة - زيارة جونجو لوتيته في عاصمته نجاندو- سكان الغابة القصار

[70] أرسل جونجو لوتيته في التاسع عشر من يوليو معلومات تفيد بأنه سيرسل سفراء مرفقين بهدية كبيرة، بهدف تحقيق الصلح. تسلّمنا أنا ودو فوترز أوامر للتقدم على الطريق لمقابلتهم، وفي الساعة الخامسة من اليوم التالي بدأنا بأعالي النهر في قارب كبير. كان قاربنا جيداً جداً، من النوع المعتاد المستخدم من قبل باكوبا (Bakuba) -وهم شعب الماء بسانكورا- وليسوا برحّل، وإنما هم جنس جيد من التجار والمزارعين. كان القارب مسطح القاع، بجانبين بارتفاع يبلغ عشر بوصات، ويقترب الجانبان إلى نقطتين في مقدمة السفينة ومؤخرتها. ويبلغ طول المجاديف التي يستخدمها أولئك الناس تسعة أقدام وهي مصنوعة بشكل جيد، [71] وتوجد عقدة صغيرة على الجزء الأعلى من غالبيتها حيث تمسك بها اليد. وعندما يجدفون، يأخذون في الغناء، ويتقدمون خطوة إلى الأمام بينما يبدؤون ضربة المجداف ليسحبوا القدم إلى الخلف ثم يجرون المجداف. ويحتفظون بتوقيت تام. وعادة ما يجدف عشرة منهم في قارب معتاد. وفي هذه المرة كان لدينا اثنان وعشرون مجدافاً، حيث إن القارب كان كبيراً بشكل خاص. وصلنا إلى بانيا موتومبا (Pania Mutumba) في نهاية اليوم الثاني - وهي قرية غنية جداً، مبنية بشكل جيد بخطوط مستقيمة، ويسكنها حوالي ثلاثة آلاف نسمة. كانت الأكواخ مربعة، بأسقف على شاكلة خلايا النحل المعتادة. وكانت البيوت أكبر من أكواخ السكان الأصليين، بارتفاع ثلاثين قدماً إلى أربعين، وبمساحة خمسة عشر قدماً مربعاً على الأرض. ولم يكن في القرية من وسائل النظافة إلا قطيع من الخنازير، يطلق في الصباح والمساء لتنظيف القرية وما حولها. وكل المرضى الذين يموتون، وأكاد أتخيل حتى قبل أن يموتوا أحياناً، يقذف بهم في النهر، المار أمام القرية. أما أولئك الذين يموتون موتاً عنيفاً فيتم أكلهم على وجه العموم.

[72] وجدنـا هناك خمسـة مبعوثين من جونجو، فـي حالة متوترة، دون أن يعرفـوا كيف سـنعاملهم. ولقد أظهـروا إقدامهم بمجيئهـم إلينا، وإن كان الخـوف مـن الموت ينتظرهـم إن عـادوا إلى زعيمهم دون نجـاح بعثتهم. لقد أحضـروا معهم هديـة: بعض العاج وقطيعـاً من الغنم، وقالـوا إن جونجو قد عومل معاملة سيئة على أيدي العرب، ولأنه هُزِم في كل مرة هاجم فيها قوات الدولة، فإنه بات الآن مصـمماً على العمل لأجل نفسه، وأنه وإن سمح له، فإنه يود أن يصبح صديقنا ومساعداً إضافياً. بدا ذلك مقنعاً، وأرسلنا مبعوثين مع هدايا، بحماية حرس قوي، إلى لوسامبو (Lusambo). وكان الحرس ضرورياً كحماية ضد سكاننا الأصليين، والذين كانوا أبعد ما يكونوا من أصدقاء لشعب تيبـو تيب، والذين تُعرف ميولهم إلى الغارات بكل الأنحاء. عدنا أنا ودو فوترز إلى لوسامبو بالطرق المائية. وكانت شروط جونجو مناسبة إلى حدّ أن مبعوثيه وبعد أن جرى الاحتفاء بهم في لوسامبو، أعيدوا إليه محملين بالهدايا والوعد بأننا سنزوره وسنرتب لوضع الشروط الأخيرة [73] للاتفاقية. بعدها مباشرة أرسـل اثنان من الضباط ترافقهما حراسة مشدّدة لزيارة جونجو؛ وفي المقابل فإن القائد، ونتيجة الترتيبات الجديدة والتي غيرت الكثير من خططه، لم يعد قـادراً على البدء لأسـبوعين آخريـن. حينها عثرنا على صـانع التعاويذ ذاك، «رجل السـحر»، في الجوار المحيط في لوسـامبو يسـمّم النـاس في المنطقة، وبرؤية حالات متعددة مثيرة للشـبهة بين أناسنا أنفسـهم اتفقنا على أن يأمر القائد بإلقاء القبض عليه. أحضـر للمحكمة، وهو ما أدهش السكان الأصليين كثـيراً، فقدموا بالمئات لرؤية ماذا سيحصـل لنا لكوننا قـد تدخلنا في عمله. وحـين الانتهـاء إلى قرار بكونه مذنباً، حكمت عليـه المحكمة بالجلد. على أنه، وقبل أن ينفذ به الحكم، أخبره القائد بأنه سيسـمح له باجتراح أي سحر أولاً، حتـى لا يشـعر بألم الجلد. فقال أن ليس لديه أي شـيء يصـنع منـه تعاويذه، بحيث إن كل مواده موجودة في كوخه. فأرسـل بضـعة رجال إلى قريته وعادوا بالكوخ نفسـه وبكامل محتوياته. [74] وبعدها وضع في داخله، وأعطي نصف

ساعة لاجتراح السحر، ثم أخرج وجلد علنياً. وأقنعت صيحاته الحادة الكم المتجمع أن «سحر» الرجل الأبيض أقوى من سحره، ولدى إطلاق سراحه اضطررنا لتزويده بحارس للحماية من الأصليين الذين مارس ضدهم جبروتاً لمدة طويلة، وإلا كانوا قد قطّعوه إرباً. وحدث في اليوم التالي أن هبّ إعصار مصحوب بسقوط البرد، وكان بعضه بحجم بيضة الدجاجة. وكان سقوط البرد شيئاً استثنائياً للغاية في تلك المنطقة - بل إن بعض المحليين قالوا إنهم لم يروه من قبل قط؛ وفي الحال اعتبر بعض السكان الأصليين أنه عقوبة حلت علينا من «رجل السحر» لتدخلنا في عمله. على أنه، وبينما هرعنا جميعاً وجمعنا البرد، وعملنا منه شراباً بارداً، سرعان ما تلاشى هذا الشعور، وقال المحليون بحكمة أن ليس من الطيب عمل التعاويذ للرجل الأبيض لأنه سيقوم فقط بالتهامها.

[75] تمتعت لوسامبو بوجود قطيع شبه متوحش، وتمكنا دون كبير عناء من أن نفصل الثيران ونستخدمها للركوب. وكانت مفيدة للغاية لهذا الغرض، بحيث إنها تستطيع بقرونها الضخمة أن تتغلغل ضمن الحشائش الكثيفة أو الأدغال الخفيفة بسهولة كبيرة بالمقارنة. وهي لا تجزع أبداً من أراضي المستنقعات، بل إنها تخوضها وتتقدم مقاومة عبرها دون أي تردد.

وفي الثامن عشر من أغسطس بدأت برفقة القائد بحملة لزيارة جونجو لوتيته ولوبونجو (Lupungu)، على الطريق نحو كاتنجا في الجنوب. وفي اليوم التالي، وبعد اجتياز سانكورو، ذقت ولأول مرة تجربة السفر في غابة عظيمة.

فهناك، وعلى الرغم من المصاعب الهائلة التي لا تعدّ ولا تحصى في كل منعطف، فإن هناك عنصراً من الإثارة في الغابة الاستوائية لا يشابهه شيء، لربما عاد إلى الفرحة العارمة التي تستقيم بنهاية توقع الخروج منها. فهناك صمت مطبق يحوم حول كل شيء، وليتزايد أكثر للوجود غير العادي وأحياناً

كثيرة غير المتوقع للأصوات التي تقطع الصمت في أحيان عدة، لتختلط [76] مع تلك الأكثر ألفة، مثل زعقات طائر الطوقان المزعجة، أو ثرثرة قرد طارئ، أو صوت اصطدام فرع أو شجرة ساقطة. على أن صمت الغابة يظل ثقيل الوطأة على الصدر على الرغم من أصواتها الغريبة، ويترك أثره على القافلة إلى حدّ أن أفرادها لا يتحدثون إلا همساً، أو بصوت منخفض، وسيدير أي صوت مهما ضؤل على أي جانب من الطريق كل رأس وبشكل غريزي. كان غياب الحياة يبدو تاماً وفي كل مكان - فلا طنين حشرات ولا تغريد طيور، وعلى الرغم من أنه وفي كل مكان تعج شفرة كل حشيشة وكل بوصة من التربة بالحياة على كل شاكلة، فلا صوت هنا ولا حركة. ولا يخفف من الرائحة الممتلئة بالرطوبة والتي تطبع كل شيء أي عبق آخر ولا حتى هبوب النسيم؛ ففي الغابة الاستوائية لا يتأتى إلا لريح عاتية أن تجعل من نفسها محسوسة. كانت امتدادات الخضرة المعتمة واللون البني الكئيب تمتد لأميال وأميال لا تخترقها زهرة واحدة. ولم تكن توجد أيّ إشارة للزهور العجيبة ولا لإشراق الغابات الاستوائية المحكي عنه. وقيل إن ذلك ربما وجد في أعالي الأشجار [77] على ارتفاع مائة قدم أو تزيد فوق الرؤوس؛ على أنني وفي مناسبات عدة تسلقت قمة نتوء صخري يبرز فجأة من الغابة في وضح النهار، وبإطلالي على منظر أعالي الأشجار كاملاً، راقبت من هناك البحر الأخضر المتموج يمتد لساعات إلى الأمام دامجاً بين رتابة اللون والصمت المطبق من الأعلى كما هي الحال في الأعماق بالأسفل. وبين لحظة وأخرى سيمر طوقان فرد أو سرب من الحمائم الخضراء، ولكن حتى تلك المخلوقات لن ترى إلا في المساء أو الصباح. وهنا وهناك لربما بمسافة يفصلها نصف ميل بين واحد وآخر سيتغطى أعلى شجرة بالزهر، وعادة ما يكون أبيض باهتاً، ولربما أوحت شجرة بأوراقها القرمزية بمنظر ورود في الأفق. وفي أي حال، ستكون تلك الظلال من الألوان نادرةً جداً، بحيث يصعب القول بأنه سيقلل من تماثل امتداد الخضرة الكئيب على مرمى النظر وفي الاتجاهات كافة. كل شيء رطب، ولن يشتعل أي خشب عدا

جذع أو فرع مات حديثاً، والذي سيتوجب قبلاً نزع نصف بوصة أو بوصة من الغطاء الخارجي المخضل [78]. وتغيب إشارات المعسكر المفرحة المعتادة، ويتحرك كل فرد بدون صوت - وتعمل الطبقات المتراكمة من النبات المتعفن والرطب تحت الأقدام على كتم أي صوت أيضاً. وحتى الحمالون والجنود تراهم يستلقون بهدوء حول النيران، دون أن يضحكوا أو يثرثروا أو يغنوا كما هي العادة.

وصلنا عند قرية بانيا موتومبا (Pania Mutumba) في الرابع والعشرين، وهنا قمنا بإعادة ترتيب القافلة. وإزاء طلبنا أن يُرسَل خمسون رجلاً معنا للقيام كأدلَّاء أو كحمّالين إضافيين، أبدى بانيا مصاعب عدة، إلا أنه وافق في النهاية على أنه بمقدورنا الحصول على الرجال إذا دفعنا تكلفة ذلك. حينها اشترى القائد ثلاثة وستين رجلاً لقاء قدحين من الخرز لكل واحد. ثم هرب عدد من هؤلاء لاحقاً، إلا أن العديد منهم رُقّيّوا، وأصبحوا جنوداً جيدين حين أدركوا فوائد الحرية. ويشكل توضيح الفوائد التي تجنى من الحرية أحد أصعب الأمور التي يمكن شرحها لعبد أفريقي عادي. فلا يتأتى لقواه العقلية أن تتجاوز المنطق التالي: «إذا كنت حراً ولم أحصل على عمل، فمن سيطعمني؟ [79] في حين أنه إذا ما كان لي سيد، فسيتوجب عليه أن يوجد لي عملاً، وحين لا يكون هناك عمل فسيتوجب عليه أن يطعمني».

وحين قطع السانكورو زحفنا في منطقة مهجورة لخمسة أيام صعب خلالها أن نطعم القافلة. على أننا، في أي حال، قد أنذرنا مسبقاً، الرجال والنساء منهم اللائي يرافقنهم بأن يحملوا معهم غذاءً بأكبر قدر ممكن، فإننا تمكنا من اجتياز الصحراء براحة بالمقارنة، ووصلنا قرية مونو كيالو (Mono Kialo) في أول سبتمبر. وكان مونو كيالو زعيماً مساعداً لشعب البالوبا (Baluba)، حيث إن الزعيم الأكبر هو لوبونجو، والمقيم على مبعدة مسيرة أربعة أيام جنوباً، والذي قمنا بزيارته لاحقاً. وأفراد شعب البالوبا هم

أناس جيدو البنية والصحة ومجتهدون، ويمكن رؤية نتاج ذلك الجهد ببقاع واسعة خارج منطقتهم. وهم مزارعون، وحدادون ونساجون، ويشكل النسيج المصنوع في هذه المنطقة نقداً يستخدمه جزءٌ كبيرٌ من المستوطنات العربية إلى الغرب. وكانوا حتى فترة قصيرة لا يأكلون لحوم البشر، وحتى الآن فإن الرجال فقط هم الذين يأكلون الأعداء الذين يسقطون في ساحة المعركة. [80] وشعب البالوبا جميعاً، رجالاً ونساء، يبردون أسنانهم ويدببونها، وهذه العادة تخص القبائل الآكلة للحم، إلا أنني لاحظت أنها ليست عادة ثابتة بينهم، وأن العديد من القبائل التي تأصل لديها أكل لحوم البشر لا تمارس عادة الأسنان تلك. وتتميز نساء البالوبا بالجمال والحيوية والمرح والكد. وتتميز قبائل البالوبا بعامة، والنساء بخاصة، بأن سمرتهم ليست أكثر دكنة من المصريين. كما أنهم يتحلّون بتقاطيع جيدة للغاية، فيما عدا الأنف الذي هو عادة ما يكون مفلطحاً. وحتى هذا وعلى الرغم من أنه واضح بجلاء، فإنه يحتفظ بعظمة جسر جلية تفوق ما ينتشر بين القبائل الزنجية. ويحتفظون بشفاه دقيقة وحلوة التشكيل، وبوجه بيضاوي، وبعيون كبيرة متألقة. وتستخدم غالبية نساء البالوبا صبغاً لتكحيل الجفنين، الأعلى والأسفل، كما تفعل العديدات من النساء الأوروبيات، وإن كانت تلك العادة قد انتشرت حيثما توغل التأثير العربي في حوض الكونغو. وغالبية الأصليين هنا هم إما سمر أو بلون أصهب غامق، ويندر وجود أشخاص سود تماماً. وتبدو الأسنان الأمامية مبرودة كلها [81]، وإن كان يصعب اعتبار ذلك تشويهاً، وهو شعور يبعث على الغرابة. وصفاتهم الطيبة المتعددة ومستوى أخلاقهم العالي يجعل منهم ذوي قيمة كبيرة، وهم محل بحث من قبل العرب، بل حتى الأصليون كحريم لهم.

ولفت اهتمامي نقطة أخرى إزاء البالوبا ضمن منطقة النفوذ العربي وهي نظافتهم الشخصية الفائقة. فحمام كامل ست مرات يومياً كان هو القاعدة أكثر من كونه الاستثناء.

وجرت العادة بين غالبية الأصليين ضمن تلك المناطق أن يتزوج البنات والأولاد ضمن أعمار سبع أو ثماني أو تسع سنوات، ومما لا يقبل الجدل حقيقة أن الزنوج هم شعب سليمو البنية وواسعو التكاثر. فالمرأة تبلغ منتصف عمرها في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، أما الرجال، وفيما عدا الزعماء، فإنهم نادراً ما يعيشون إلى سن متأخرة، إذ إن حوادث الحياة بين تلك القبائل المتوحشة هي من الكثرة بحيث إن الرجل عادة ما يقتل قبل أن يبلغ أوجه.

وبينما كنا نستريح ليومين في قرية مونو كيالو، وصلت هديتان كبيرتان إحداهما من جونجو لوتيته والأخرى من لوبونجو، [82] وطلب منا كل منهما أن نزوره أولاً. ولأن هدية لوتيته كانت الأكبر، فإن القائد أدار وجهته نحو الشمال الشرقي للقيام بواجب الزيارة له أولاً. واخترق مسيرنا ولأيام عدة طرقاً خلال الغابة، وهناك رأيت للمرة الأولى البَتوا (Batwa)، وهم «شعب الغابة القصار القامة». ومن خلال تأثير أحد أدلاء السفر، والذي احتفظ بعلاقات طيبة معهم، لم يتواروا عن النظر بخلاف عادتهم حين اقتراب قافلة منهم، ولذلك تأتى لي ملاحظتهم عن قرب أكثر مما هو متاح عادة.

وما أثارني لأول مرة، أنه وعلى الرغم من كون متوسط طولهم أقل من أربعة أقدام، فإنهم متينو البنية ومستقلو الشخصية. وهم كقاعدة، قوم رحّل، ولم ألتق قط بأي ممن سبق له أن رآهم في مستوطنة بأعداد كبيرة. ولأنهم صيادون، فإنهم يتبعون الطريدة بمجموعات صغيرة، ويغيّرون خلالها مكانهم مع تغير هجرة الحيوانات. ولأنهم الصيادون الحقيقيون الوحيدون في حوض الكونغو، ويمتلكون معارف الغابات، فإنه لا بدّ للرحالة العادي (أوروبياً كان أم أفريقياً) من أن يمر على بعد ياردات قليلة منهم وألا يكون، وبكل معنى الكلمة، عارفاً بوجودهم، في حين أنهم يراقبونه. كما أن قاماتهم القصيرة تمكنهم من الهروب خلال طرقات الحيوانات بسهولة تامة، وهي ممرات يستحيل على الرجل العادي أن يمر بها إلا إذا انحنى للنصف تقريباً. وفي الحقيقة، فإنه يصعب على رجل عادي أن يجدهم، أو يراهم في الغابة بقدر ما يصعب على

رجل ولد في المدينة (town-bred person in this country) في هذه البلاد أن يعثر على فأر في حقل ذرة. وأستطيع أن أتذكر أنني غير مرة، وبينما كنت أسير وسط زخات المطر، ماشياً متتبعاً آثار أقدامهم، والتي كانت لا تزال جافة لكنها أصبحت رطبة خلال دقائق، لتظهر بأنه لا بد لشعب قصار القامة من أن يكونوا قد مروا ضمن ياردات مني، على الرغم من أنني لم أر أو أسمع شيئاً؛ فصمت الغابة العظيمة، والذي يظهر حينها بحسب الحضور الإنساني، يبدو مطبقاً أكثر من المعتاد. فواقع الأمر أنه وكثيراً ما يكون المرء غير مدرك لقرب أقرانه من بني الإنسان، بينما تكون الطبيعة على هيئة حيوان أو حشرة، وبشكل غريزي عالمة حين يكون العدو الرئيسي في الجوار.

يمتلك هؤلاء الأقزام معلومات دقيقة عن السموم، وأقواسهم وسهامهم، والتي يبدو [84] عليها أنها أدوات لعب لا ضرر منها، وسيحتقرها أطفال أوروبا على أنها أشياء للعب، هي قاتلة بلا مراء في الصيد أو الحرب مثلما كانت منذ اختراعها. ويكون فعل بعض تلك السموم سريعاً إلى حدٍّ أن يموت الرجل بسببها بعد أن يُجرح بها في خلال ثلاث دقائق إلى عشر. ولقد سقط فيل في محطتنا ميتاً برمح مسموم، بعد أن جرح في الفخذ قبل أن يمشي لمائة ياردة؛ وفي إحدى المرات قتل سهم مسموم اخترق سترتي القطنية حين أطلق من مسافة ثلاثين ياردة، طائراً جُرح به في دقيقتين. وتتمثل إحدى الحيل التي يشترك فيها رجل الغابة الصغير مع رجل الأدغال من القناصين (ويذكرها غالباً رحالة، وإن كانت روايات بيضاء وسوداء تضفي عليها الاستحالة)، في أن بمقدورهم وبشكل محدد، إطلاق ثلاثة سهام وحتى أربعة، بسرعة فائقة إلى حدّ أن الرابع ينطلق حتى قبل أن يصل الأول منتهاه. ويستطيعون أيضاً تسديد رمح إلى حدّ أنه يخترق في أحد طرفيه رجلاً في حين أن طرفه الثاني يستقر في رجل آخر. ولطالما أرسل صائدو العبيد من العرب والمغيرين على العاج حملات في الغابة العظيمة، عانت إلى حدٍّ كبير على [85] أيدي هؤلاء الشياطين الصغار، حتى إنه لم يعد منهم إلاّ القليل، وأحياناً لم يعد أحد ليروي

كيف قتلوا دون أن يروا من سدد لهم الضربات. وأحياناً يهاجم شعب الأقزام قافلة في فسحة من الغابة، وتكون حركتهم خفيفة للغاية إلى حد يصبح فيه الدفاع مستحيلاً من الناحية العملية. فما إن يروا شعلة إطلاق البندقية، حتى يُقْعوا، وإذ يأخذون في الجري تخفيهم الحشائش، ويقومون برمي عدوهم بالرماح في أثناء إعادة تعبئة بندقيته. وعلى الرغم من أن هذا النظام، قد استجاب جيداً لمواجهة حملاتنا المعتادة المسلحة ببنادق تعبأ من فوهاتها، فإنه لم ينجح ضدنا وضد بنادقنا التي تجري تعبئتها من مؤخرة الماسورة. وفي أي حال، يبقى أن كثيرين منا، يفزعون مما يبدو من مظهر سحري لأشباه الأقزام هؤلاء وهم على بعد ثلاث ياردات لأربع ياردات منا، وقد استقامت رماحهم القصيرة موجهة لتدميرنا. والحقيقة أن نجاحهم كان فائقاً أحياناً إلى حدّ يجعل المرء يشك فعلاً في كونهم بشراً.

مرت مسيرتنا من هنا إلى نجاندو (N'gandu)، في عاصمة جونجو على نهر لومامي عبر بلد خرّبها صائدو عبيد يعملون في خدمة تيبو تيب. فمنذ أن غادرنا [86] المنطقة العائدة لموتومبا، وفيما عدا بقعة صغيرة توسطتها قرية مونو كيالو، فإن هذا الخلاء، الذي افتقر إلى وجود البشر والغذاء، قد أحاط بنا. وتغطى كل مرتفع بمزارع النخيل؛ وببقايا القرى كما تظهرها السياجات الشوكية والخنادق أو حيطان الخشب الدفاعية، والتي استقرت جذورها في الأرض ونمت لتصبح أسواراً دائرية. لم تعانِ قافلتنا من الجوع، لأن القائد قد سمح لكل رجل بأخذ امرأة وصبي، للعمل على نقل المؤن والاعتناء بمتابعة ترتيباتها. وصلنا في الثالث عشر من سبتمبر إلى نجاندو وحصلنا على استقبال رائع من جونجو لوتيته: برز الآلاف من شعبه للترحيب بنا، يطلقون النيران ويرقصون ويزعقون كما لو أن الأرواح قد تملكتهم.

ولد جونجو لوتيته في مَاليلا (Malela)، وانتمى بقربى الدم إلى الباكوسو (Bakussu). ولقد كان هو نفسه عبداً، حين سقط كطفل في أيدي العرب. وفي شبابه، وكمكافأة له على سلوكه المتميز وإقدامه في حملات الغزو،

أُعطــي حريتــه. [87] بــدأ ببندقية واحــدة، فـي عمر الثامنة عشــرة، ثم جمع حولــه، تدريجياً، ثلة من قطاع الطرق، حكمها بقبضــة حديدية، وســرعان ما أصبح صائد العبيد والعاج الرئيس لتيبو تيب.

أقــام فــي نجانــدو علــى اللومامي، حيــث أدار جــزءاً من مليلا لســيف (Sefu)، ثم ومن خلال القيام بالغارات وسّــع من نفوذه شــيئاً فشــيئاً باتجاه الغــرب، مما جعله يصــطدم بالدولة. هزمــه النقيب دوكامــب أولاً ثم دانيس لاحقاً. وتوصــل بعد هزيمة دانيس فـي أبريل 1892 لعدم جدوى مقاتلة الدولة، ولأن العــرب لم يدفعوا له لفترة من الوقت لقــاء عمله ولا لقاء العاج الذي كان يرســله لهم، فإنه قرر، إن أمكن، أن يعقد الصــلح مع الدولة لحسابه الخاص. وكان هذا قراراً حكيماً، بحيث إن العرب كانوا بلا شك قد باتوا يخافون سطوته ويغارون منها، ولم يكن ليمر وقتٌ طويلٌ قبل أن يغتالوه.

من المرجح أن جونجو لوتيته كان فـي ذلك الوقت فـي الثلاثين من عمره. كان يمتلك قامة متينة ويرتفع طوله لخمســة أقدام وتسع بوصات. وكانت عليه ملامح الذكاء [88] وكان ذا بشــرة ســمراء، وعيون واسعة بنية بأهداب طويلة للغاية، وفم صــغير وشفاه دقيقة، وأنف مستقيم ودقيق نسبيّاً. وكانت يداه هي أكثر خصائصــه تميزاً؛ إذ كانتا طريتــين على نحو يبعث على الانتباه، تنتهيان بأصابع طويلة دقيقة وكانت أطرافهما دائماً ما تنثني إلى الداخل لو بسط يديه. ودأبــت يد واحدة أو الاثنتان على الحركة الدائمة، تنبســطان وتنقبضــان دون راحة، وخصوصــاً عندما يكون فـي حالة تأثر قوي. وفي المقابل كانت أعضــاؤه الأخرى تبقى دون حركة على الإطلاق. وعلى الرغم من أنه كان يتصرف بألفة وود مع بعض منا، فإنه كانت لديه القدرة دوماً على ألا يجعل أي إنســان ينســى أنــه الزعيم، ولطالما كانت تصــرفاته رزينة. ولطالما توجــب على المرء أن يرى الرجل فـي ساحة الحرب ليتعرّف على الجوانب المختلفة لشخصيته. فالزعيم الهــادئ والمتغطرس، أو الرفيق اللطيف والــودود، ينقلب فـي ميدان القتال إلى شــخص متحمس عصــبي المزاج، يصدر أوامره همســاً الواحد تلو الآخر دون

لحظــة تردد. وكانت لديه المقدرة لتحمل الإرهاق المتصــل ويقود فرســانه معاً عبر البلاد فـي حركة مستمرة لساعات.

[89] تشــكلت ثلة قطاع الطــرق التي أحاط جونجو نفســه بها من جنس الباتيتيلا (Batetela). كان الباتيتيلا هؤلاء، وعلى نحو محدد الباكوسو، أكثر آكلي لحوم البشــر تأصــلاً. فخلال رحلات قمت بها فـي جوار مدنهم، شهدت فـي أكثر من مناسـبة حالة إعدام عامــة. فعندما يقرر زعيم المدينة، الذي هو حاكـم مطلق، أن يحكم على رجل الموت، يسـلمه لشـعبه. وفي الحال يمزق إلى قطع، ويختفي بقدر ما يتقطع أرنب على يد قطيع من الكلاب. فكل رجل يمسك بــه لمرة بيد واحــدة، يقطع قطعة منه بســكين باليــد الأخــرى؛ ولا يتقدم أحد لقتلــه أولاً لأنه لو قام بذلك فســوف يفقد قطعتــه. وفي غير من مرة وبعد قرار محكمة الميدان العســكرية بإعدام جاســوس أو فار مــن الخدمة، كانوا يقولون لنــا فـي النظارة: «ولماذا تدفنونه؟ لا فائدة من ذلك فعندما تذهبون، سـنقوم بالطبع باســتخراجه». ولا تأثير لتعليق التعاويذ علــى القبر بغرض منع الناس من لمســه خوفاً من الســحر. [90] لم يكن يبدو أن لهؤلاء النـاس أي شــكل من أشكال الديانات، ولا خوف من الموت أو الأرواح الشريرة. وعبر بلاد الباتيتيلا كافــة، الممتــدة من لوبيفــو (Lubefu) حتــى لويكــي (Luiki)، ومن لوريمبي (Lurimbi) نحو الشــمال إلى مسافة خمسة أيام سيراً، لا يرى الإنسان شيخاً ولا أعــرج ولا أعمــى. فحتى الوالــدان يأكلهمــا أبناؤهما لدى بــروز أول بوادر وصــول للشــيخوخة. لذلك يســهل فهم لماذا حين تؤخذ الظروف فـي الاعتبار، يظهــر الباتيتيلا كجنس رائع. فأكلة لحوم البشــر هــؤلاء وكقاعدة، لا يبردون أسنانهم الأمامية، ولا يَشِمُون الوجوه.

استكشــفت اللومامي لســت ســاعات أو ثمانٍ أعلى نجاندو. ويتسع النهر بمســافة مائتي ياردة، وهو ســريع فـي مواقع عدة، وكثير الصــخور، ويصــعب اجتيازه حتى فـي قارب صغير. وتمتد إلى الشمال والجنوب والشرق من نجاندو

غابات واسعة من النخيل، وتحتوي على بقع عظيمة من نبات المطاط المتسلق.

وحتى نجاندو نفسها، وكما رأيتها لأول مرة، وقعت في سهل منفتح، يفصل أحد جوانبها إلغاء من اليسار وهي ضفة اللومامي بقطاع من المستنقعات والغابات باتساع مائتي ياردة. [91] كانت هذه القرية، التي تضم عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نسمة، بيضاوية الشكل ومحصنة بشكل قوي بخندق مضاعف وبمتراس على هيئة أنشوطة، ويحيط بكامل الموقع سياج من أخشاب الأشجار. وتوج أعلى كل شجرة بجمجمة بشرية. كانت تحمي القرية ست بوابات؛ فبعد المرور بكل بوابة سيتوجب اجتياز نفق، بطول ثلاثين ياردة تقريباً، يتكون من كومات خشب، يجتاز في كل امتداده عبر فتحة تخترقه. وينتصب فوق هذا النفق مبنى للحراسة، في أرضيته ثقوب يمكن للحارس من الأعلى أن يرمي برمحه أي عابر في الأسفل دون أن يشك الشخص في الأمر. وقد زينت المعابر لكل من هذه البوابات الست بالجماجم البشرية، ولا يظهر من تلك الجماجم على سطح الأرض إلا اليافوخ منها. لمّع هذا الطريق الأبيض كالثلج مرور الأقدام العارية عليه ليصبح بنعومة العاج. وعددت أكثر من ألفي جمجمة على طريق واحد من البوابات فقط.

الفصل الخامس



جونجـو لوتيتـه يتـرك العرب نهائيـاً ويتحالف مع قـوى الدولة - الوصـول إلى كابيندا، عاصمة لوبونجـو، زعيم البالوبا الأكبر - تحركات العدو برئاسة سيف، ابن تيبو تيب - التحضير للمواجهة

[92] رُحِّـب فينا بفخامة ولشـهر كامل فـي نجانـدو. ودأب جونجو يومياً تقريباً على إرسال هدية لنا، ولأنه بدا أنه يحسب بالمئات، فكان يرسل مائة من الأغنـام يوماً، ومائة مـن الماعز يوماً آخر، ثم مئات السـلال من الذرة، أو مئة عذق من الموز. ارتحلنا بشـكل جيد. وباقتراب نهاية الشهر أعلن جونجو لوتيته أنه سيترك العرب، وسيأتي إلينا، شرط أن نحافظ على العهد معه، وأيضاً، وفي حالـة ما إذا تعرض للهجوم من قبل العرب أن نسـاعده فـي الدفاع عن نفسـه. ولإثبـات مدى إخلاصـه قدم لنا هدية كبيرة من العـاج، [93] وطلب الإذن من القائد للبقاء فـي منطقته التي قد استقام فيها، وهـي التي بحسب معاهدة رتبها السيد ستانلي باسم دولة الكونغو الحرة، فـي زنجبار، كانت خارج منطقة النفوذ العربي. أخبرنا جونجو بأن العرب قد قضـوا على حملة إم هوديسـتر بالكامل، و«الرجل الأبيض القادم من الشـرق،» والذي حدسـنا بأنه أمين. أخبرنا أيضـاً أنهم أبادوا حملتي سـتيرز (Stairs)[30] ودولكومـون (Delcommune)[31] في

30 William Grant Stairs ويليام جرانت ستيرز (1 يوليو 1863 - 9 يونيو 1892) بريطاني من أصل كندي: مستكشف وعسكري ومغامر وكان له دور قيادي في اثنتين من أكثر الحملات إثارة للجدل في تاريخ استعمار أفريقيا و توفي في إحداهما (http://en.wikipedia.org/wiki/William_Grant_Stairs) و(http://en.wikipedia.org/wiki/Stairs_Expedition_to_Katanga) (المترجم).

31 هو من المرجح (Alexandre Delcommune) الضابط ألكسندر دولكومون (1855-1922) أرسلته شركة الكونغو للتجارة والصناعة في بروكسل لاستكشاف الجوانب الاقتصادية للكونغو (http://www.zum.de/whkmla/documents/rolduch/rolduch1-2.html)،(http://fr.wikipedia.org/wiki/Alexandre_Delcommune). (http://en.wikipedia.org/wiki/Stairs_Expedition_to_Katanga) (المترجم).

الجنــوب؛ لكن ذلــك، وهو أمر لم نكن نعرفه حينها، لم يكن صــحيحاً بالطبع. تركنا اثنين من الضــباط وحارســاً فـي نجاندو وتابعنا مسيرنا باتجاه كاتنجا، متبعــين الحد الفاصــل بين اللومامــي واللوبيفو. وفي أثناء هذه المســيرة مررنا بمئات من الهياكل العظمية البشرية - وبحسب أدلائنا من الباتيتيلا، فإن هؤلاء الضحايا كانوا قد سقطوا بوباء الجدري. ولكن بدا أن هناك ثقوب رصاص فـي بعض الجماجم، ولربما لم يكن الوباء إلا غارة للباتيتيلا على العبيد.

بعد ستة أيام من السير وصلنا إلى كابيندا، وهي عاصمة لوبونجو. وكان بوبنجو الزعيم الأكبر [94] للبالوبا، ويمتد تأثيره شمالاً حتى لولوا (Lulua)، وإلى الجنــوب حتــى كاتنجا. يميل لون بشــرة الســكان فـي هــذه المقاطعة إلى الزيتوني، وشفاههم دقيقة، وهم حتى من وجهة النظر الأوروبية حسنو الشكل. وعُيّن دي أويش مقيماً، ليبدأ فوراً عملية بناء محطة فـي كابيندا.

وتطلب الأمر من دانيس حينئذٍ أن يعود إلى لوسامبو. وكان هنـاك العديد من المســائل فـي المنطقــة لترتيبها، وكان هذا آخر مكان يمكن أن يُتَواصــل مع لوسامبو، قبل أن نواصل المسير إلى كاتنجا.

واصــلت رحلات الاستكشــاف والصــيد في جوار كابينــدا، وهي منطقة جيدة وغنية وصحية. وخلال فترة وجودي، عشت أيام استجمام جيدة.

قررت أنا وشــيرلينك (Scherlink) فـي السادس عشر من أكتوبر السير نحو مدينة كولومــوني (Kolomoni) على نهر لورميبي (Lurmibi). وتمثلت لدينا عدة أســباب لذلك: فالطعام، كما ســمعنا، وفير هنـاك، وكان مضــيفنا لوبونجــو إما أنه يفتقر إلى التموين أو أنه لم يكــن قابلاً بمنحنا أيّاً منه. وكان الرجــال أيضــاً يتذمرون؛ وبدأ دو أويش [95]، وقد انتهــى من إقامة بيت كبير كان يبنيــه، فـي إحضــار كميات هائلــة من طين ترابي اســتخرجه حفراً لأجل هــذا الغرض. ونتيجة هذه التربــة المقلوبة حديثــاً، تدهورت صــحتنا جميعاً، وأصــيب بعض السود مع شيرلينك وسيركيل (Cerkel) بالحمى. ومن المرجح

أن التأثير الضار يعود إلى التربة المقلوبة حديثاً، والتي لم تعرض سابقاً لتأثير الضوء، وهو العامل الحاسم في القضاء على البكتيريا التي تعج بها الأرض غير المحروثة. ولدعم تلك النظرية، يشار إلى ما حدث إبان انتشار الملاريا بأنتويرب (Antwerp)[32] لدى القيام بحفريات في المدينة عندما بنيت تحصينات جديدة. فهذا الطين الترابي الأحمر، يتحول بعد أن يكون رطباً إلى صلابة القرميد حين ينشف، ويوجد في المنطقة كافة بعمق من ياردة إلى ياردتين.

أخذنا معنا ثمانين رجلاً، ووصلنا في اليوم الأربعين إلى الأراضي العائدة إلى كولوموني. وعلى بعد ساعة من المدينة قابلنا زعيمان شابان ينظران باستقامة هم كولوموني وماكيبولا (Makipula)، [96] مع ألف من الرجال تسلح العديد منهم بالبنادق، رقص هؤلاء الناس حولنا، وهم يطلقون النار تاركين العنان لتعابير مفرطة تظهر البهجة برؤيتنا. وكان يصعب تخيل ما دفعهم إلى ذلك، لكنها عبرت جيداً عن حملة دولكومو، التي مرت منذ سنة مضت. وفي أثناء حديث مع الزعماء، الذين أعطونا، من ضمن أشياء أخرى، هدايا من الخنازير والماعز وأربعين سلة من الطحين، وعلمنا أن ماكيبولا كان صديقاً شخصياً لكولوموني وأنه على الرغم من كونه مزارعاً جيداً فإنه ليس محارباً. وعليه فقد قررا كما يبدو أن يعيشا في المدينة نفسها وأن يجدا هدفاً مشتركاً لأن كولوموني لا يصلح إلا للقتال. وبدا ذلك الترتيب جيداً، لأن البلاد قد زُرعت بأكملها، وكانت المدينة من أحسن ما رأيت بناء.

وفي الثاني والعشرين من أكتوبر، وصل خطاب من الملازم ثانٍ ديبروين (Debruyne) وهو ضابط بلجيكي، كان يقيم مع القائد ليبينز (Lippens) في بلاط سيف في كاسونجو. وذكر فيه بأنه بات مسجوناً، وأن سيفاً، ابن تيبو تيب يرافقه [97] عشرة آلاف رجل جميعهم مسلّحون بالبنادق والسيوف

32 - مدينة في بلجيكا (المترجم).

قد زحفوا من كاسـونجو بهدف القضـاء علينا. لم يكن ذلك، بأي حال، سـوى جـزء من الانتفاضـة العربية العامـة، وكان ذلك بعد أن قام العرب بالقضـاء على حملات هوديستر - أمين. ومضى يقول في الخطاب إن خطة سيف كانت تقضـي، بأنه وبعد قتلنا، سيسيطر على البلاد بأجمعها وحتى ليوبولدفيل؛ وأن لا شـيء سـينقذنا ويرضي سيف إلا تسـليم صـديقنا جونجو لوتيته أو إرسال رأسـه كهدية، وبعدهـا نغادر خارج البلاد، التي يعتقد سـيف أنهـا له. وبدون تنفيذ هذين الشـرطين فوراً، فإن سيف سيعبر نهر اللومامي وسيقاتلنا. كتبنا بدورنا خطاب ترضـية لكسـب مزيد مـن الوقت، وما إن انطلـق حاملوه، حتى صـفّينا المعسكر وتبعناهم، آملين أن نصـل إلى جويموياسو (Goimuyasso) علـى اللومامـي قبل العرب، لنصـل النهر قبـل أن تتمكن القـوات العربية من عبـوره، وكانت في ذلك فرصـتنا الوحيدة لإيقـاف تقدمهم. لكن زحف الأيام الأولى تقريبـاً كان قـد نال مـن طاقة القافلة. إذ اجتزنا ما لا يقل عن خمسـة وعشـرين نهراً وجـدولاً تتجه كلها نحـو لوريمبي، وهي مؤشـرات [98] لما كنا نعتقد أنه يتجه شـمالاً. ولكن لسوء حظنا، كانت هناك عواصف خلال الأسبوع المنصرم، وتحول كل جدول لسيل جارف. عسكرنا في الساعة الخامسة مساء، وقد نال منا التعب، كوننا زحفنا دون توقف لعشر ساعات.

كانت مدينة جويموياسـو، التي وصـلنا إليها في السادس والعشرين من أكتوبر 1892، تتمتع بموقع عظيم بضـفاف خصـبة على نهـر اللومامي؛ فهنا يتسـع النهر بمسافة مائتي متر عرضاً، ويجري التيار بسرعة ثلاث عقد. وبعد صعوبة كبيرة واجهتنا، عثرنا على مكان للمعسكر جيد إلى حدٍّ كبير، مع مزارع تابعة لجويموياسو تحيط بنا من كل الاتجاهات، وتتحكم في النهر لمسافة ميل إلى أعلى موقعنا وأسـفله. ثم قام جويمورياسـو، وهو زعيـم عظيم البدن لامع البشـرة، بإحضـار كمية من الطحين والماعز، على أنه لم يعطنا إلا القليل من المعلومات أو لا شـيء على الإطلاق، إما بسبب اللامبالاة الأفريقية المعتادة، أو

لشكه الفطري في أنه، ولوقوع العرب على مسيرة أربع ساعات منا، سيجد نفسه في أيّ ساعة من النهار أو الليل مضطراً للهرب طلباً للنجاة. ولربما كان، من المرجّح، أن السبب لعدم تحليه بروح تواصل أنه لم يكن قد حسم موقفه بعد في ما إذا كان سيلتحق بنا أو بالعرب [99]. في اليوم التالي، نقل لنا جواسيسنا أن سيفاً قد أمر جونجو موتشوفا (Gongo Muchufa) ونيار جونجو (Nyar Gongo) – وهما زعيمان على الجهة المقابلة من النهر، على مسافة خمس ساعات أو ست، من السير شمالاً – أن يجعلا قواربهما جاهزة لعبور قواته للجهة الأخرى، حيث إنه ينوي أن يعبر النهر في جوارهما. وسمعنا أيضاً أن زعيماً كبيراً يسمى ديبوي (Dibui)، وعلى الرغم من أنه على غير استعداد للقتال، فإن سيفاً قد أرغمه على أن يضم قواته إليه. وفي أحد الأيام عصراً، استطاعت ابنة أخ جويمو ياسو (Goi)، وهي زعيمة من أعالي النهر، أن تنقل لي أخباراً بأن محمدي (Mahomedi) وديبوي كانا يحاولان عبور النهر مقابل قريتها، لكنها تمكنت من إعادة القوارب الأولى. ولدى سماع ذلك، قررت أنا والملازم أول شيرلينك أن نزحف ليلاً. وسيكون من المستحيل شرح المصاعب المستتبعة لأي ممن لا يمتلك خبرة المسير ليلاً خلال جزء غير معروف من أفريقيا المدارية. فالطريق المار عبر المستنقعات والغابات لا يتسع أكثر من عشر بوصات، ويأخذ المرتحل بدون سابق إنذار إلى أعلى تلال النمل والصخور وأسفلها، وخلال الوديان الضيقة والشديدة الانحدار، وعبر الجداول ومصائد الحيوانات. وهذا الطريق، حتى في وضح النهار، هو من المشقة بمكان للأعصاب والجسد. [100] على أن اتباع أحد تلك الطرقات في الليل البهيم في محاولة لاجتناب الشجيرات ذات الأشواك وتلال النمل، ضمن احتمال مخاطرة الشنق «بحبال القردة» أو التعثر بالجذور في كل منعطف، فإن ذلك يشارف على الاستحالة نفسها تقريباً.

مما بعث على الراحة وبعد ثلاث ساعات من العثرات في الغابة، أن

نقابل رسولاً من صديقتنا الأميرة، التي أخبرتنا بأن قبيلتها قد اجتازت النهر تحت جنح الظلام، وأنهم قد رفعوا كل القوارب من على الضفة اليمنى، بحيث إنه لم يعد هناك أي خطر داهم من عبور العدو. وبناء على ذلك عدنا أدراجنا متوخين أثر خطواتنا، فرحين من القلب لعودتنا إلى المعسكر. في الأيام القليلة التالية انشغلنا في إقامة سياج محيط - والذي تكون من سياج شوكي بخندقين مزدوجين - للإحاطة بمجمل المعسكر. كان ذلك دفاعاً واهناً إذا ما قورن بما علمتنا إياه المواجهات مع العدو لنبنيه فيما بعد. وبحيث إن تلك التحصينات العربية قد أدت دوراً مهماً في تعاملنا اللاحق مع العدو، فلربما كان من المناسب شرح أحدها بالتفصيل.

فحين تكون هناك قوة عربية زاحفة، فإنها تستخدم عدداً كبيراً من العبيد لقطع الأشجار والشجيرات وحملها معهم [101] وهذه الأشجار تكون بطول خمسة عشر قدماً، وقطر يبلغ ستة أقدام. وحالما يتم اختيار موقع للتوقف، يقوم العبيد بتركيز هذه الأخشاب في دائرة يبلغ قطرها حوالي خمسين ياردة، بحيث يقوم الزعماء والضباط بترتيب وضعها. وبعدها يحفر خندق ويستخدم الرمل المستخرج لتجميعه إزاء السياج، ثم تثبّت بها سيقان أشجار الموز في كل اتجاه. وحول المركز، وباتباع الارتفاعات غير المتساوية على الأرض، يقام خط أوتاد آخر، وربما امتد ذلك الخط في دائرة يبلغ قطرها مئات الياردات. وبعدها يحفر خندق آخر بالطريقة نفسها، وتوضع سيقان الموز مرة أخرى فوق التشكيلة المكونة من الرمل. ويحتل الجنود الفسحة ما بين التحصينين. وهذا جُلّ ما يصنع عادة إذا كانت النية قائمة للاستفادة من ذلك التشكيل لمدة يوم أو يومين، على أنه إن كان القصد للبقاء لمدة أطول، فإنه يتم حفر خندق خارج التحويطات. وهدف سيقان الموز بهذه الطريقة لا يخلو من براعة. إذ إنه خلال أربع ساعات أو خمس، ستذوي السيقان تاركة فجوات يمكن للمدافعين أن يستخدموها لإطلاق النار من خلالها دون تعريض أنفسهم للانكشاف. [102]

وتقام أكواخ صغيرة في داخل التحصين كله، مصممة بحذق بحيث إنها تكون أيضاً مضادة للقذائف. وهي تتكوّن من حفرة بعمق ياردة ونصف، وتغطى بالخشب. وهو ما يشكل سقفاً، ويوضع عليه تراب استخرج من الحفرة بارتفاع قدمين، ثم تغطى كلها بالقش ليصبح بمثابة سقف للوقاية من المطر. وفي تحصينات عديدة على تلك الشاكلة، وجدنا أن المدافعين قد حفروا أنفاقاً من الخنادق الرئيسية في مختلف الاتجاهات، حيث كانوا يعيشون، وقد فرشوها بالقش. وينقسم التحصين بكامله إلى أربعة أقسام أو أكثر من التحصينات والخنادق الأصغر، بحيث إذا ما اجتيح التحصين يجد المهاجم نفسه تحت وابل متعدد المصادر- وهو وضع أسوأ من محاولة فعلية لاجتياح مدخل الموقع. ولقد وجدنا أن القذائف من مدفعية الـ كروب 7.5 (7.5 Krupps)[33] لا تفعل إلاّ القليل أو أنها لا تحدث أي أثر بتاتاً في تلك القلاع.

وفي يوم 29 أكتوبر، تسلّمنا رسالة أخرى من ديبروينى تقول إن العرب قد وزعوا قواتهم بقصد [103] عبور النهر في ثلاثة مواقع في الوقت نفسه، وبالتالي إرغامنا بدورنا على تجزئة أنفسنا. وإذا ما نجح ذلك، فإنهم كانوا يتوقعون ألا يجدوا صعوبة في القضاء على قطعاتنا المحددة. ورجانا ديبروينى أن نتخلى عن فكرة القتال لأنها ستكون دون جدوى، وبدلاً من ذلك، يجب أن نعبر النهر ونجري حواراً وديّاً مع سيف. وأضاف كإنذار، بأن سيفاً، على الرغم من أنه غير تواق للقتال، فإنه أخبره في الليلة السابقة بأن صبره قد بدأ ينفد تقريباً، وأنه لن يبقي على أي منّا في حال أننا لم نستسلم على الفور. وأول رجلين يود قتلهما هما ليبينز وكاتب الرسالة. وبالطبع، فإننا قررنا ألا نلقي بأنفسنا للكرم العربي، وأرسلنا قائلين بذلك، كما أرسلنا في الوقت نفسه بنصف ما نختزنه لديبروينى. وتسلمنا في ذلك المساء رسالة من دو أويش، تقول بأنه هو وأربعون من الرجال سيصلون في اليوم التالي من لوبونجو.

33 - من المرجح أنه من مصانع عائلة كروب في ألمانيا والتي عملت في مجال إنتاج الأسلحة (http://en.wikipedia.org/wiki/Krupp) (المترجم).

وفي الثـاني من نوفمبر، وصـلتنا معلومات محددة عن جونجو موتشـوفا بأنه يحتفظ بقواربه جاهزة لعبور قوات سـيف. وبمـا أننا عرفنا بأن دو أويش سيصـل سـريعاً، أخذت أربعين من الرجال وزحفت أسفل ضفة النهر، بهدف قطـع الطريق على القـوارب إن أمكن - وإن لم أتمكن من محاولة إيقاف تقدم القوات العربية وهي تحاول اجتياز النهر. أوصـلتني سـت سـاعات من المسير إلى ضفة النهر، وأرغمتني الأرض المرتفعة، مرة أخرى، على أن أغادر المسافة المفتوحة والجافة على مسافة ميل أو اثنين من النهر، مما أتاح لي سيراً أفضل على الأقدام. ووجدت أن قرية العبور قد هجرت، واختفت القوارب كافة. وحيث لم توجـد فسـحة فراغ قرب النهـر، وكانت الغابة مكتظة بشـكل خطير، عدت أدراجي إلى أرض مرتفعة تبعد ميلاً عن المكان. وكان هناك إعصار قد استعر، ولأننا لم نجد ما نفعله إلاّ أن نستلقي على الأرض ونحن جوعى ومبللين يجتاحنا البرد، بانتظار أن يتوقف المطر والريح. أقام رجالي بيتاً صـغيراً لي من أوراق الموز، ومن الأعشاب لهم. وبإضافة ترف النار شعرت بالدفء وبالراحة، وعلى الرغم من العاصـفة، فإنني نمت بهدوء حتى أوقظت بفهد تسـلل إلى المعسكر وبث الرعب في أوسـاط الحرس إلى حدّ كاد يفقدهم صـوابهم. وتشرفت في الصـباح بزيارة من نيان جونجو، وهو رجل ترتفع قامته ذات العضلات لطول سـتة أقدام وبوصـتين، ويحتفظ بأفضل بنية بدنية للأصـليين رأيتها بحياتي. [105] كانت قريته تقع بالقرب وهي عاصـمة للمقاطعة؛ وبعد المحادثة المعتادة - حيث أظهر ألفة مع العادات العربية - طلبت منه أن يحضر طعاماً للبيع، وهو مـا فعلـه، إلاّ أنه طلب منا ثمناً غالياً إلى حدّ أننا لم نشـتر منه إلاّ القليل. وفي الحقيقة كان خطأ منا أن نطلب شـراء الأكل، فالعـادة العربية هي في توفيره للمسـافرين مجانـاً. بعدها لم يبد نيان جونجو أي مؤشـرات وجـود، وبانتهاء المدة، قاربت تمويناتنا على النفاد تماماً، فأرسلت له أحد السكان طالباً لقاءه. فردّ على ذلك بالقدوم مختالاً إلى معسكري على رأس حريمه ومجموعة كبيرة مـن أتباعـه، تتقدمهم فرقـة من البنات المنشـدات، ورجال يقرعـون الطبول

(tum-tums)، ومعهـم عدة مئات من الرجال المسـلحين. وسـايرته بسـؤاله بماذا كان يتوقع لرجالنا أن يقتاتوا إذا لم يحضــر لنا أي غذاء، فردّ على ذلك بأنــه غير قادر على إطعامنا إن لم ندفع له إلاّ القليل، وقال إنه، وقبل مواصـلة الحديث، يتوجب عليّ أن أعطيه معطفي وأحذيتي. [106] وقال بأن لدى العرب أقمشة وهدايا له أكثر مما لديّ. لقد بعث ذلك على الضيق وخصوصاً أن ذلك كان يعبر عن الواقع. وكان العرب أيضاً على الضفة الثانية وتواقين للعبور، في حين أننا كنا نحن على جانبه، وليس هناك من شـيء نتوق لإحرازه. ولكن كان من الضـروري أن نحصل على غذاء بطريقة ما. ولذلك صفّرت فتحلّق رجالي حولي، وفي خلال دقيقة قمنا بتجريده من السلاح وأسرنا الزعيم غير المضيف هـو ونصـف دزينة من قادته. بعدها شـرحت له بأن من الأفضـل لـه أن يبعد رجاله كلهم، وألاّ يتناسـى أحدهم النتائج المترتبة التي سـتكون لغير صالحه، وأنه كلما أسـرع قومه بإحضـار الطعام، كلما كان ذلك أفضـل، لأنني لا أنوي أن أمـوت جوعاً إلا إذا مات هو ورجاله أيضـاً. وبعد برهـة، بدا عليه الاقتناع، فأرسـل لإحضار الطعام، الذي انهال على معسـكرنا بكميات كبيرة في مساء ذلك اليوم نفسـه. بعدها أطلق سـراحه، مرافقاً بهدية صغيرة لتهدئة كرامته المتعكرة. وبدا عليه أنه فوجئ [107] بفكرة أن رجلاً يمثل السلطة التي يحتفظ بهـا، ينعم عليـه بالحرية وبهديـة، أكثر من مسـألة أنه قد جرد من السـلاح واختطف في حين أنه بينما كان هو زعيم لكل من مر بهم. وأصبحنا أنا ونيان جونجو صـديقين منذ ذلك الوقت. وبعدها بشـهور، وحين بدا أنه مجرد واحد من زعماء صـغار يدينـون لنا بمحض وجودهم، والذين مـا كان يتوقع لهم أن يدفعـوا لنا أية جزية بأية هيئة أو شـكل كان إلا من خلال لوبونجو، اعتاد نيان على أن يحضر لي بنفسه هدايا صغيرة؛ وأعتقد أنه كان يقوم بالغريزة نفسها التي تجعل من الكلب يتودد لشخص قد عاقبه.

ولثلاثة أيام أو أربعة، قمت بحراسة أعلى النهر وأسفله، في ذلك الجوار

الذي أخبرني جواسيسي أن سيفاً كان يحاول فعلياً أن يعبره. في ذلك الوقت، تسلّمت رسالة من دوشين (Duchesne) في نجاندو، يأمرني باتخاذ الحيطة الشديدة بحيث إن جواسيسه قد اكتشفوا أن سيفاً يريد فعلياً أن يهاجمنا حيث كنا، وأن من يُسَمَّون بأصدقائنا من السكان الأصليين قد رتبوا لمساعدة العرب. وصل الملازم شيرلينك إلى معسكري في السابع من نوفمبر، بعد أن ترك دو أويش [108] بإمرة تابعية جويمورياسو. ولقد سررت لرؤيته، لأنني لم أكن قد حصلت إلاّ على القليل من الراحة أو على لا شيء منها على الإطلاق، في ليل أو نهار، أحاول غربلة الأخبار الخاطئة وزاحفاً بناء على «معلومات موثوقة» لمقابلة عدو لم يقم بعبور النهر قط، والذي كما اكتشفنا لاحقاً لم تكن لديه نية في العبور (حين عرف بأنني كنت هناك). وفي مساء التاسع من نوفمبر تسلّمنا مذكرة مستعجلة من دو أويش، تقول بأنه لربما في الوقت الذي تصلنا فيه المذكرة، يكون هو قد قُطِع عنا. فقد أخبره وبشكل مجاني أسير وقع بين يديه، أن سيفاً سيقوم بهجوم في صباح يوم الحادي عشر. قوّضنا المعسكر عندما شع القمر بما يكفي من الضوء، وعندما لم نكتشف أي أثر للعدو، وصلنا تابعية جويمورياسو. وحين وصولنا، أحضر عدد من الأسرى، الذين ألقى قوم جويمورياسو القبض عليهم في أثناء ارتكابهم سرقة قوارب. وقالوا بأن سيفاً قد أرسلهم عبر النهر للحصول عليها، وكان ذلك بمثابة المصدر الكامل للإنذار. وأخبرنا أحد الأسرى والذي كان «ساحِراً - طبيباً» بهدوء بأنه يغير نفسه إلى بطة عندما يريد أن يعبر النهر. ولقد أُلقي القبض على هذا الرجل لاحقاً [109] وأعدم كجاسوس. واعتقد كل أصلي، بل حتى بعض النظاميين من الذين كانوا معنا، بأن الساحر قد اجتاز الحراسة متحولاً إلى أحد الحيوانات، وأخبرونا أن لا جدوى من محاولة قتله. وفي أي حال، فقد أعطي تحذيرات كافية، وأثبتنا أن سحره لم يكن مضادًّا للرصاص.

واستعداداً للهجوم المبلّغ عنه بأنه سيقع في الحادي عشر من نوفمبر،

وضـعنا مرابض للبنادق في موقع للتحكم في الطرق الرئيسية حول المعسكر. وكان رجالنـا، وغالبيتهـم من الهوسـا، رماة سـيئين بشـكل مريع، ولـو تُركوا لأنفسـهم، لَما كانوا ليصـيبوا رجلاً على مبعدة ثلاثين ياردة. وصـلتنا رسـائل من القائد دانيس، تقول بأنه يأمل أن يصـل يوم الرابع عشر مصطحباً حوالي عشـرة آلاف من الحلفاء من الأصـليين، وأعطانا أوامر بعدم العبور لأي مبرر حتـى ذلك الحين. وعندما سـمعنا أن هناك عدداً من القـوارب بأعلى النهر، وهي قوارب كان العرب يحاولون السيطرة عليها، أرسلنا سرية بإمرة دو أويش إلى أعلـى النهر لإحضـار القوارب إلى أسـفل النهر إن أمكـن، أو تدميرها إن فشـل الأمر. ولقد أبلغ دو أويش [110] بألا يعبر النهر وهو المعروف بأنه الأكثر طيشاً من الشياطين- الجريئين. وفاجأ المدينة حيث وجدت القوارب، واكتشف أن القـوات العربيـة، كانت قد أخذتهـا إلى الجانب الآخـر. وعندما عثر على نصـف قارب قديم، رقّعه بالطين، واصـطحب رجلين معه فيما يسـمى تجاوزاً بالقـارب، وعبر النهر آخذاً في البحث عن القوارب، التي كانت مخفية وسـط الأعشـاب الطويلة. قام حلفاء العرب بالاصطفاف بالمئات على الضفة، ووسط رشـاش من الرصاص والسـهام قام دو أويش بالتراجع دون أي جرح على غير توقـع، وتـرك بعـد « Après les avoir envoyés quelques pruneaux»، أو «بعد أن أرسـل بعض البرقوق» كما عبر لي عن ذلك. وخلال غيابه كان سـيف قد أرسـل دوبرويني مع حامية قوية إلى النهر، بهدف إقناعنا بالعبور وزيارته، مخفورين بما لا يزيد على نصـف دزينة من الرجال. وحذّرنا جواسيسـنا من أن سيفاً ينوي أن يغوينا بأي سبب لإقناعنا بالعبور، وعندها إما أن يقتلنا وإما أن يأسـرنا. وبما أنه حيث جرى تنبيهنا مسبقاً فإننا رفضنا ذلك، وشرحنا أن لدينا أوامر من القائد بألا نتجاوز اللومامي، ذاكرين في الوقت نفسـه [111] أننـا نتوقع أن يكون القائد دانيس معنا خلال يوم أو يومين. وحاولت المسـتطاع لإقنـاع دوبرويني بأن يسـبح لنا، ولكن بالنظر إلى مـا كان قائماً حينئذ رفض القيام بذلك. وبعد عدة شـهور لاحقاً، وعندما فتحنا قبر الرجل المسـكين في

كاسـونجو، اكتشـفنا أنـه قطّـع إلى ما لا يزيـد الواحد منها علـى القدم، وإن سـعدنا، وكما اكتشـفنا من قتلته ومن شهود مسـتقلين، أن هذا السحل تم بعد الوفاة.

وصـل القائـد فـي العشـرين مـن نوفمـبر وبصـحبته مدفـع كـروب 7.5، يرافقـه النقيـب دو فوتـرز وسـيركيل ولوبونجـو كولومـوني وأتبـاع كثـيرون. ولـدى سـماعه فـي الطريـق أن العـرب قـد ظهـروا أسـفل النهـر قبالـة نجانـدو، أرسـل دانيس النقيـب ميشـو (Michaux) ومعـه ثمانـين رجـلاً لتقويـة المـلازم أول دوشـين (Duchesne)، والـذي كان مـع جونجـو لوتيتـه في نجانـدو. وبذا أصـبحت تلـك المجموعة الـذراع الثانيـة للهجوم.


الفصل السادس

[112] في اليوم الذي تلا وصول القائد إلى لومامي سمعنا أن بعض أتباع سيف قد عبروا النهر على بعد مسيرة ثماني ساعات أسفل منا. وحيث إننا لم نأخذ الأمر على محمل الجد وعلى نحو كبير، أرسلنا مفرزة من أربعين رجلاً بإمرة رقيب أسود يسمى ألبرت فريز (Albert Frees) وعريف يسمى بنجا (Benga)، مع لوبونجو وكولوموني وأناسهما للاستطلاع، والاشتباك إن لزم الأمر.

كان ألبرت فريز المنروفي بالولادة رجلا قصيراً دقيقاً بطول خمسة أقدام وست بوصات، يتحدث الإنجليزية بلهجة أميركية قوية وكان كثير الهذر. كانت طاقته وذكاؤه فوق العادة لرجل لم يحصل على قدر من التعليم. وكان بنجا مواطناً من سيراليون، بقوام غليظ ووجه زنجي الشكل إلى حد كبير، نادراً ما يتكلم إلا إذا كان لديه شيء شديد الأهمية للتحدث عنه. كان صمته المطبق [113] أكثر ما يلحظ عليه، ودأب على البقاء لساعات دون أن يفتح شفتيه. وكان الاثنان صديقين حميمين، واحتفظ كل منهما بعزم في جسمه يفوق كل جماع ما لدى السود الآخرين الذين قابلتهم في حياتي. وكان كل منهما رامياً ماهراً، وقد نجحا معاً في الحملة في تحقيق أكثر الأعمال بطولة لأي فرد يتأتى له أن يقوم به. وبعد قتال يوم اعتادا على اصطحاب رجالهما وملاحقة فلول العدو المنسحب وسط الليل. وكان دائماً ما يدعو لإعجابنا أن تتأتى لهما العودة من مهماتهما تلك.

في المساء التالي هرع رجل إلى معسكرنا حاملاً معه بندقية عربية، وأحضر معه رسالة تقول بأن العرب كانوا في أوج استعدادهم، وبعد قتال عنيف فإن الموقع لم يتم الاستيلاء عليه. بدأ القائد فوراً باتخاذ وضعية القتال، برفقة شيرلينك وأنا ومفرزة من أفضل الرجال. وسرنا حتى منتصف الليل، عندما، توغلنا في غابة كثيفة، حيث بات الظلام حالكاً وأضحى من الخطورة أن نواصل، فجلسنا على دروبنا وانتظرنا طلوع الفجر. وكنا قد

سـرنا لمدة ثلاث [114] ساعات فقط على الطريق حين التقينا بعض الأصليين الذين أُرسلوا إلينا حاملين رسالة من ميشـو. وكانوا يحملون بنادق وينشستر (Winchester)[34] ذات التردد، ويحرسـون أسرى بمثابة رموز للانتصار على القـوات العربيـة. ويبـدو أن جونجو لوتيته قد اكتشـف أن العـرب قد اجتازوا النهر؛ عندها زحف هو وقبيلته، مستبقاً ميشو ودوشين، ليكتشف أن العرب قد وصـلوا إلى الحصـنين والشمس توشـك على المغيب. وكان ألبرت فريز يناوش تلك القوات حول الحصـنين لبضـع ساعات. ولدى وصـولهما بحلول الظلام، سـحب ميشـو وجونجو لوتيته رجالهما وأقاما على مبعدة مسـيرة سـاعة من ألبرت فريز ولوبونجو، اللذين عسكرا قرب الحصن الأصغر.

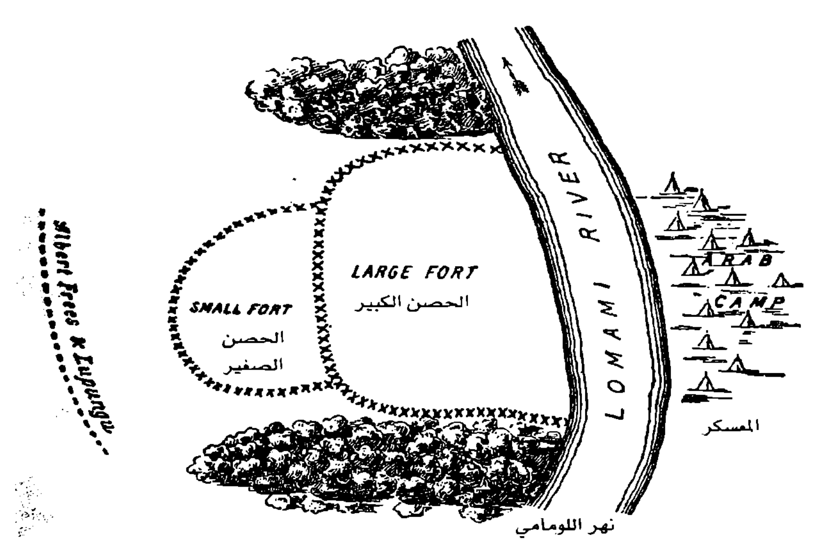
هب إعصـار وتبعه مطر، واسـتمر طوال الليل، وعند الفجر نصح ألبرت فريز بالهجوم. شـنّ العرب هجومهم بقوة، ولكن القليل من مدافع الكبسولات المعدنيـة (cap guns) (التي كانت تشـكل عماد تسـليحهم)[35] تفجّرت، فلقد تشرب البارود تماما بمطر الليل. [115] وإذ سارع ألبرت فريز لاكتشاف المأزق الذي باتوا فيه، وبالاسـتفادة منه، دفعهم إلى مواقعهم بالمشاركة مع لوبونجو، وهاجم الحصن الأصغر في الوقت الذي برز فيه ميشو وجونجو لوتيته.

تراجـع العـرب نحو الحصـن الكبير، الذي لم يصـمد طويـلاً في وجه الهجوم المشـترك. فانتشـر ذعر لم يعرف مصـدره وقذف الجمع بنفسـه في النهر، وهو باتساع مائة ياردة وبسرعة تيار تبلغ أربعة أميال. فأخذ النظاميون والأصليون من الأصـدقاء يقتلونهم بالمئات في المياه. [116] وكان سيف نفسه قـد عبر قبـل بدء القتال وبذلك هـرب. ولدى عد الخسـائر العربية وجدنا أن

34 - هي من المرجع البندقية بعتلة التردد وينشستر الأميركية الصنع وأنتجت منها خمسة نماذج بين عامي 1866-1892 وأشهرها نموذج 1873 (http://en.wikipedia.org/wiki/Winchester_rifle)، (http://www.winchestercollector.org/guns/w-history.shtml) (المترجم).

35 - لا يتضح هنا ما هو المقصود من تلك البنادق حيث إن الـ (cap guns) هي بنادق قصد بها أن تكون للعب. لربما كان القصد أنها بنادق صوتية فقط (http://en.wikipedia.org/wiki/Cap_gun) (المترجم).

600 قتيل سـقطوا فـي أرض المعركة، فـي حين أن ما بين 2000 إلى 3000 فرد قتلـوا أو غرقـوا في النهر. أخذنا 30 بندقية مرتـدة جيدة وما يزيد على ألفي مدفع بالكبسولات المعدنية مع كمية كبيرة من البارود والطلقات. وكان الرقيب ألبرت فريز والعريف بنجا أول الواصـلين إلى سـياج الحصـن الخشبي، وقد تعرض ألبرت لثلاث إصـابات بالقذائف. أما بنجا، الذي كان رياضياً عظيماً، فسـرعان ما ركض وقذف نفسه باتجاه السياج، ليتمكن من تأسيس موقعين أو ثلاثة مما أحدث فجـوة تقدم من خلالها هو وألبرت تتبعهما قواتهما. وهناك تمكنا من إلقاء القبض على ثلاثة أسـرى رئيسـيين، أحدهم سـادي (Sadi) الذي خدم مع سـتانلي. وكانت ذراعاه قد كسـرتا كما أن فخذه والجمجمة قد اخترقهما الرصاص، ومع ذلك فقد ظلّ على قيد الحياة لثلاثة أسابيع.



قرر القائـد حينها ملاحقة العرب حتى بلادهـم. وكانت لديه حرية في القيام بذلك، لسبب أنهم، بعبورهم اللومامي [117] ومهاجمتنا وفي مقدمتهم سيف، وهو ضابط في الدولة، فإنه يكون قد خرق اتفاقية زنجبار.

كنا أنا وشـيرلينك في طليعـة القوة المهاجمة. عبرنا نهـر اللومامي يوم

الســادس والعشــرين من نوفمبر وعســكرنا في ســهل على بعد نصف ميل من ضــفة النهر. وبعد البقاء يومين بدون عمل، وبينما كنا في انتظار عبور الجزء الأكبر من القوة للنهر، بدأنا ولأجل تحقيق رضا الرجال الذين كانوا متذمرين وجوعى بشــن غارات. هاجمنا قرية محصــنة اسمها تشــيلي (Chile)، وهي إحدى أجمل القرى المزروعة التي رأيتها والتي بنيت بذوق في وســط أفريقيا. بنيت البيوت على منصــة بارتفاع قدمين عن الأرض، وقد شــيّدت من الخشب وســقفت بالأعشــاب العادية. وقد طليت الجــدران من الداخل بطــين أبيض، وزخرفت بشــكل غريب بالأصفر والأسود والأحمر. وأثثت بيوت القرية بكاملها تقريباً بأمكنة للنار ومقاعد مصــنوعة بالشكل المعتاد. أما النوافذ أو الفتحات من أي شــكل وعلى الجوانب فهي أشــياء لا يمكن لأحلام الأفريقي الأصــلي أن تصــل لترتيبها. وعادة ما تترك فجوة صــغيرة أحياناً في السقف لكي يتسرب منها الدخان، [118] وحتى ذلك لا يشكل عملاً يُتبع باستمرار. وغالباً ما يكون هناك ممر صــغير واطئ ليشــكل وســيلة التهوية الوحيدة، باســتثناء الشقوق العشوائية التي تركت خلال نسج السقف.

وكثيراً ما لاحظت وسط الأفارقة الأصليين انتشار حالة بالملتحمة (الغشاء المخاطــي في باطن الجفــن) في العين ذات لــون بني وأحيانــاً كبقعة دموية، علــى الرغم مــن أنه وحين فتح الجفن أكثر من المعتــاد، فإن بياض العين يبرز نظيفاً وخالياً من أي شــيء. ولقد توصــلت إلى قناعة بــأن هذه الحالة ينتجها الدخان. حيث يمكن استيعاب أن الجو في كوخ بهذا الوصف، وفيه نار سيكون مليئــاً بالدخان، إلى حدٍّ أن أي أوروبي عادي ليس معتاداً على هذه الحياة، من المرجح أنه سيصــاب بالاختناق. وفي المقابل، فإن الأصليين، يعتادون على ذلك مــن بواكير أيامهم، وحين يجلســون حول نار في الهــواء الطلق فإنهم عادة ما يختارون أن يتموضــعوا باتجاه مهب الريح، بحيث يشــكل الدخان حماية ضــد هجمات البعوض وغيرها من الحشرات الضارة.

ولقد كان هذا الموضع هو الذي أبرزت فيه خصائص أكل البشر لأصدقائنا لأول مرة لي [119]. فبالعودة عبر المدينة بعد متابعة السكان لميل أو اثنين، اكتشفت أن القتلى والجرحى قد اختفوا، وتبرع بعض رجالي لإخباري بأن أفراد قوة الأصدقاء قد قاموا بتقطيعهم وأخذهم معهم كطعام. ولم أكن لأصدق هذا. وفي طريق العودة إلى مكاننا، تعرضنا للهجوم. وهكذا توقف الأصدقاء والذين كانوا يرقصون في المقدمة، وأطلقوا أرجلهم للفرار تاركين من بين الغنائم التي خلّفوها وراءهم أذرعاً بشرية عدة وسيقاناً ورؤوساً منتشرة على الطريق، والتي اعتنى الرجال الذين شككت في معلوماتهم بالإشارة إليها كدليل على أنهم لم يكذبوا. ولقد كان هذا الاشتباك مهماً لسبب آخر. فلقد اعتليت كثيب نمل لأرى كيف كانت الأمور تسير وكيف يتموضع العدو؛ ومباشرة أمامي، وعلى تلة أخرى على بعد ستين ياردة، كان الزعيم المعادي ومساعدوه يتموضعون. وما إن رآني حتى أخذ في إفراغ مدفع الوينشستر باتجاهي، حتى أصبته برصاصة ماوزر في صدره أسقطته من عليائه. وبعد سنة قابل شيرلينك هذا الرجل؛ وأظهر الزعيم بافتخار [120] تلك الجروح التي أحدثتها الرصاصة التي اخترقت عظام صدره وظهره لتخترق بعدها الحجاب الحاجز لأحد رجاله، والذي توفي بعد بضعة أيام متأثراً بجراحه. ولقد دأب إخواني الضباط على الإشارة إلى احتمال أن تكون الرصاصة قد تعفنت حين مرورها بصدر الزعيم، وأن الرجل الثاني من المرجع أنه قد توفي نتيجة تسمم الدم.

وبعد الكثير من التجريب بعدة أنواع من البنادق القصيرة المدى[36]، فقدنا جميعاً الثقة في قدرتها على القتال أو إيقاف العدو، وبتنا نفضل تسليح رجالنا بنوع (chassepots)[37] التي استخدمت في الحرب الفرنسية - البروسية عام 1870.

---

36 - (Small-bore rifles) هي بنادق بفوهة 0.22 بوصة، وذات مدى قصير باتت تستخدم داخل المباني في المسابقات ومداها بين 15 إلى 200 ياردة وتستعمل في مباريات الرماية (www.answers.com/topic/rifle-range) (المترجم).

37 - نوع من البنادق اشتهرت باسم (Fusil modèle 1866) واستبدل فيه تلقيم الرصاصة من

وبعد عودتنا من الاشتباكات قابلنا القائد ومعه دو فوترز والرقيب الأبيض سيركيل، وكل القوة الموجودة التي أمكنه حشدها. عسكرنا على الفور، ومساء ذلك اليوم أعاد القائد ما سبق أن قاله لنا عندما سأل عمن يود أن يذهب معه - وبشكل أساس، ذكر أنه لا ينوي العودة حياً من الحملة إن لم تكن ناجحة، وأنه في حال كان أي منا غير محظوظ بشكل كاف بحيث يقع في الأسر لدى العدو فإنه سيعتبرنا ميتين [121]، ولن يخاطر برجل واحد لإنقاذنا.

أخذنا في اليوم التالي مدينة كيتينجي (Kitenge). وأرسل ألبرت فريز للمقدمة لطمأنة الزعيم وشعبه. وبما أنهم من السكان الأصليين، فليست لدينا نية للقتال معهم، لأن صراعنا سيكون بالطبع مقتصراً على صائدي العبيد من العرب وحلفائهم. وقد نجح في تهدئتهم، وكان يتحدث بهدوء مع الزعيم عندما برزنا على التلة المطلة على المدينة، ولدى رؤيتنا دب الفزع بكل السكان وهربوا جميعاً؛ وحتى كيتينجي نفسه راوغ جيئة وذهاباً وسط الحشد لكن ألبرت وقد أدرك هدف الزعيم، تابعه وسط الغابة وأحضره إلينا في الوقت الذي سيطرنا فيه على المدينة. وعندما سأل القائد عما حدث، أعطى ألبرت الجواب على النحو التالي: catched man plenty wild passed him before. أحضرنا قوتنا بأكملها إلى المدينة، وأعطيناهم مقرات أخلاها كيتينجي وهي أماكن لحريمه. وقد ضمّت مائتي بيت منفصل تقريباً، وأحيطت بسياج قوي، بحيث يشكل الموقع معسكراً ذا كفاءة عالية [122] لأناسنا. وامتلك الوضع مزية إضافية كونه منفصلاً عن الأصليين والمدينة، وبالتالي قلّل من إمكانية الاحتكاك بين الفريقين. وكانت البلد المحيطة بالمدينة غنية جداً. وأحضرت جماعتنا كميات هائلة من الموز، وأنواعاً مختلفة من الذرة، والأناناس والبطاطا

مقدمة ماسورة البندقية أو فوهتها إلى التلقيم من الخلف وباستخدام ترباس. واشتق اسمها من مخترعها Antoine Alphonse Chassepot (1833 - 1905)

.(http://en.wikipedia.org/wiki/Chassepot)،

.(http://en.wikipedia.org/wiki/Bolt_action)،

.(http://en.wikipedia.org/wiki/Muzzleloader) (المترجم).

وقصب السكر وأغذية أخرى. وفي الثالث من ديسمبر بدأنا الزحف باتجاه الشمال والشمال الشرقي. وعلى الرغم من أن طريقنا يمر عبر مستنقعات فإنه ولحسن الحظ لا يعبر غابات. ووصلنا بلدة كامابا (Kamaba) في الخامس من ديسمبر والتقانا الزعيم، الذي أكد لنا أن لا خلاف له معنا، وأنه سبق ورفض الالتحاق بالعرب ضدنا؛ على الرغم من أنه ليس لديه نية في الانضمام إلينا ضد العرب. ولقد افتخر بأنه لم يسبق له قط أن جُرّ إلى حرب. وبما أنه يعيش في مستنقعات لا متناهية فمن المرجح أن العرب أنفسهم وجدوا أنه من عديم الجدوى أن يحاولوا إرغامه. أهدانا ثوراً رائعاً سبق لفيسمن أن تركه في حوزته لعدة سنوات مضت، لكنه لم يقدم أيّ هدايا أخرى، ولم يسأل لأي منها. وبعد أسبوع من البقاء هنا وصلت الأنباء إلينا بأن ميشو وجونجو لوتيته يتقدمان للقائنا مما جعل القائد غير مستقر على ما إذا كنا سنلقاهما في بلدة ديبوي (Dibui) أو لوسونا (Lusuna). وبعد انتظار طال لبضعة أيام، ثبتنا فيها معسكرنا على بقعة صغيرة من الأرض الجافة ترتفع بمسافة قدم عن مستوى المستنقعات المحيطة، سمعنا أن طابور ميشو يتقدم باتجاه لوسونا. عندها أعلن القائد وسط بهجة الجميع أن البدء سيكون في الغد. ولمّا وصلنا إلى لوسونا يوم الحادي عشر وجدنا ميشو، الذي سيطر على المدينة عبر هجوم كاسح قبل ثلاثة أيام أو أربعة. أعطانا سكراً وتبغاً وملحاً كانت بمثابة مواد رفاه لنا بعد ثلاثة أسابيع اقتصر غذاؤنا فيها على لحم الماعز القاسي الذي حصلنا عليه أثناء اشتباكاتنا، مع أرز مطبوخ بمياه المستنقعات النتنة. ومن بين كل المصاعب التي واجهناها خلال حملتنا، أعتقد ويوافقني الآخرون، أن الأسوأ منها كان حرماننا من الملح. وكانت صحة القافلة بأكملها إبان ذلك الوقت ممتازة، على الرغم من أن الماء الذي كان يشربه الجميع تراوح ما بين الأحمر والأخضر والأصفر وحتى الأسود. [124] ودأب ضابط نوبة اليوم والذي كانت المؤخرة بإمرته وبالتحديد قوة إطلاق النار أيضاً، على الوقوف منتصباً بثبات على قدميه لمدة عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة دون غذاء ويعمل في معظم اليوم منغمساً حتى وسطه وأحياناً حتى عنقه في

المستنقعات. ولا أعزو غياب الحمى عن القافلة لشيء غير أثر الضوء، حيث إنه لم تكن هناك أيّ غابات في الجوار المباشر، ووقعت جميع المستنقعات تحت أشعة الشمس المباشرة.

وجدنا عند لوسونا أن ميشو قد أحضر جونجو لوتيته وبرفقته من خمسة إلى عشرة آلاف من القوات المساعدة، وبما أنه كان يرافقنا كل من لوبونجو وكولوموني وجويموياسو، فإن عدد معسكرنا في ذلك الوقت قد شارف على 25 ألفاً من الأصليين و400 من النظاميين وستة ضباط بيض. وبعد مرور بضعة أشهر على وصولنا، توفي لوسونا العجوز -أو روسونا كما كان كاميرون يسميه- وكان خليفته رجلاً رقيقاً من طينة مختلفة تماماً. وكانت مسألة أن كلا الطرفين كانا آكلين للحوم البشر، أو أن الجانبين ضمّا آكلين للحوم البشر في عربتهما، قد شكلت عنصراً مهماً في نجاحنا. وبحسب تعاليم الدين المحمدي [الإسلامي] فإن الجسد الممزق لا يدخل الجنة، حيث يقتصر ذلك على الرجال المكتملين. وعلى ذلك فإنه وبحسب ذلك الاعتقاد، فإن العرب البيض وغيرهم من الأتباع المخلصين للإسلام، وبعد الصدة الأولى، وبدل محاولة تغيير مسار اليوم، أطلقوا عنانهم للهرب بأسرع وقت - لا للحفاظ على حياتهم، بل لخوفهم أثناء سقوطهم من أن تقطع جثثهم إلى نتف. وبغير هذا فإنه وفي المناسبات التي حوصروا فيها، أبرزت الاستماتة في الشجاعة نفسها، والتي تنسب إلى العرب، على أقوى ما تكون.

الفصل السابع

[127] أنشأ القائد نظاماً جيداً للغاية شعرنا جميعاً بفائدته، وهو أساساً، تزويد كل رجل أبيض، وعلى حساب الدولة، بأكبر عدد من الخدم الصبيان يختارهم ويوظفهم بنفسه. وهم عادة ما يكونون أوغاداً صغاراً متوحشين، أو عبيداً محررين مؤخراً، أو أطفال أسرى حرب، أو هدايا يرسلون إلينا من الزعماء المحليين. وتمثلت مهمتهم في توفير الراحة الشخصية للبيض، مما جعلهم يمتلكون سريعاً قدراً معيناً من التمدن، وثقة مطلقة في الرجل الأبيض. وحين يكونون صغاراً تماماً، يعملون كمترجمين في الأعمال العادية مع الأصليين، وما إن يكبروا ويصبحوا أقوياء بدرجة كافية - وهو ما يترافق مع تغذية جيدة، وهي مسألة بضعة أشهر فقط - حتى يسلموا بنادق، ويُعلمون كيف يمكنهم استخدامها. [127] وبهذا يشكلون ما يشبه الحرس الخاص لأسيادهم عندما يزورون زعماء محليين أصدقاء. وبالتدريج، تشكلت ما بات يسمى بـ «كتيبة الصبيان»، وأصبحت أذكى مجموعة جنود لدينا. وكانت متعتهم الكبرى عندما يكونون خارج الدوام في أن يزاولوا تدريبهم. وعادة ما يكون في عهدة العريف من الصبيان مجموعة من المحليين أو الأسرى للعناية بهم؛ وهم يقومون بتدريبهم لسرورهم بعملهم نفسه، وقد تحوّل العديد منهم بعد ذلك إلى جنود. وتتمثل إحدى الفوائد الكبرى بأولئك الصبيان، أنهم، إن وقعوا في صعوبة ما في أثناء الاشتباك أو اضطروا للتراجع، فإنهم وبشكل ثابت سيتجمعون حول أقرب رجل أبيض، وفكرتهم الوحيدة للأمان هي في تواجدهم بقرب البيض.

وحيث إنه تقرر علينا وجوب أن نحصي القوات المساعدة، لنتبين على نحو ما كمية البارود المتوجّب علينا أن نعطيها للزعماء المختلفين، تقدمنا للقيام بذلك [128] على الطريقة العربية المعتادة. وهي أن يوضع جلد حيوان بري على الأرض، وإذا ما أريد لعدد القوات جميعاً أن تحصى، فسوف يمشون

عليـه واحداً واحداً. وجدنـا أن لدى جونجو لوتيته ألفـي بندقية؛ وأن لوبونجو والقبائـل التي معـه يمتلكون ما يزيد علـى الثلاثـة آلاف؛ ولطالما كان جونجو لوتيتـه ولوبونجو أعـداء قديمين؛ فإذ مثّـل جونجو لوتيته القـوة العربية، فإن لوبونجو كان الزعيم الأكبر لقوى السـكان الأصـليين. وقـد أعلن لوبونجو فـي هـذا المنعطف وبـبرود أنه بات خائفاً مـن التقدم على أيّ مسـافة أخرى؛ وأن شـعبه سـيهجره إذا ما فعل ذلك، حيث إن الدسـنطاريا والجدري منتشـران باتجاه اللوالابا، وأنهم جميعاً سـيموتون إذا ما تقدموا. وبما أن مسـألة تغذية هذا العدد الهائل من البشـر يجب أن تخاطب أيضـاً، فإن القائد دانيس أرسل لوبونجـو ورجاله جميعـاً إلى موطنهم، مبديـاً أن لدينا قوة ضـخمة على نحو كاف بإمرتنـا بدونه. كانت هـذه بمثابة خدعة ألقت الرعـب في قلوب العرب الذيـن تقدموا إلينا. وبينما كنا عند لوسـونا سـمعنا بـأن دولكومون وفرانكي (Frankie) قـد عـادا مـن حملتهمـا بكاتنجـا وأن القائد قد طلـب منهما أن يأتيا إليه أو يرسـلا أيّ مساعدة ممكنة. ووصـلتنا [129] الأخبار أيضاً بمقتل ليبينز ودوبغون (Debruyne)، وهما ضـابطان يمثلان حكومة الدولة الحرة، ومقيمان فـي بلاط سيف فـي كاسونجو. ولقد علمنا لاحقاً أنه بعد هزيمة سيف فـي اللومامي (والتـي انتهت بمقتل ابن عمـه وعدد من الزعمـاء المبرزين)، وصـلت مجموعة متقدمة من العرب المتراجعين إلى كاسـونجو، وأنه وكوسيلة انتقام فردي قتلوا المُقيمَين الاثنين. وبما أننا لا نملك أي دليل بعكس ذلك، فإن من المرجح أن ذلك قد تم بدون أوامر سـيف. فلقد افتعل اثنا عشـر شخصـاً مـن هؤلاء الناس وقد تسـلحوا بالسـكاكين المخبـأة في ثيابهـم ذريعة لزيارة ليبينـز فـي مقر إقامته، والذي رفض أن يخرج لمقابلتهم فأخـبروه حينها أن معلومات حول معركة ضـخمة قد نقلت إليهم من سـيف؛ وعندما سـمع ليبينز بذلـك خرج وبينما كان يتكلم في الشـرفة، طعن على الفور وبدون ضوضـاء. وحين دخل بعض القتلة الحجـرة المجاورة وجدوا دوبغون يكتب، فقتلوه قبل أن يعرف مصير قائده. وعندما عاد سيف إلى كاسونجو بعد يوم أو يومين لاحقاً،

أعطى أوامره بأن [130] تجمع أجزاء جسد دوبغون وتدفن مع ليبينز، الذي لم تقطّع جثّته فيما عدا اليدين (واللتين أرسلتا إلى سيف وموهارا قائد نيانجوي (Nyangwe) كعلامــة. ولحق ذلك حادثة قتل غريبــة، إذ إن قائد المجموعة، واســمه كبوارّي (Kabwarri)، قُتِـل على أيدينا فـي معركـة 26 فبراير وبيده بندقيــة المارتيني[38] الســريعة العائدة لليبينز. أما الآخــرون - وهم كلهم أبناء زعماء، وبعضــهم رجال أنفســهم ذوو مكانة- فقد مات أربعة منهم بالجدري، وقتل أحدهم فـي نيانجوي، وواحد فـي اجتياح كاســونجو، وألقينا القبض على الستة الباقين كأسرى فـي كاسونجو. وفي أثناء المحاكمة، وفي أحد الأيام وعلى الرغم من كونهم فـي قيد مشــترك، فإنهم تفوقوا على الحارس، وهربوا. غرق أحدهم حين عبوره نهراً؛ وقتل ثلاثة منهم إما فـي المعركة وإما بالصدفة، بعد شــهر أو اثنين من هربهــم؛ وألقينا القبض على الاثنين الباقيين وشــنقناهما؛ وهو ما أورد لي نقطة مثيرة للانتباه. إذ إن بين كل الذين قمت بشــنقهم ماتوا جميعــاً مختنقين تقريباً وليس عبر دق العنق. فبالمقارنة مع إطلاق النار، يبدو لي أن الشنق هو أقل الإعدامات ألماً، لأن التعيس يموت بدون شعور خلال ثوانٍ، فـي حين أن الرجل المعدوم بإطلاق النار عليه غالباً ما يحتاج إلى طلقة رحمة، مهما كان وضع فرقة الإطلاق.

ولقد قمت خلال ذلك الوقت برحلات عدة فـي البلد للبحث عن الطرائد، وأيضــاً كوســيلة للتعرف علــى المنطقة. وما صــدمني على نحو أكــبر فـي تلك الحمــلات هو عثــوري على عدد من الجثــث المقطعة بكل اتجــاه ولأميال عدة. بعضــها كانت تنقصه الأيدي والأرجل، وبعضها قطعت منها شرائح من الفخذ أو أجــزاء أخرى، وأحيانا تمت إزالة أحشــاء الرأس منهــا، وذلك كله كان يتم بحســب ذوق المتوحش الشخصــي، وإن اكتشفت لاحقاً أن ذلك يعود إلى الذوق القبلي أكثر من الشخصــي. ولم يكن يســتثنى الكبير أو الصــغير أو النساء أو

38 - بندقية مارتيني - هي بتلقيم خلفي ودخلت الميدان عام 1871 (http://en.wikipedia.org/wiki/Martini_rifle) (المترجم).

الأطفال من احتمال استعمالهم كغذاء للمنتصرين عليهم أو لجيرانهم.

ووصلتنا إشاعات كثيرة أن موهارا من النيانجوي يتقدم باتجاهنا. وحدثت [132] عدة إنذارات خاطئة عن هجمات ليلية وكنا سعداء جداً عندما بات واضحاً لنا في التاسع والعشرين من ديسمبر أنه إن زحفنا فإننا سنلتقي العرب صباحاً إلى حد أن جونجو لوتيته تقدم بالمراهنة مع القائد على ذلك. وكان دانيس لا يزال غير مصدق، وهكذا راهن بعشر بالات من القماش، آملاً أن يخسر لأن عدم التأكيد والإنذارات الكاذبة كانت تنال من أعصاب قافلتنا.

في الخامسة من صباح الثلاثين من ديسمبر، زحفنا، وكان جونجو والألف من بنادقه يستكشفون في مقدمتنا، وبعد ست ساعات ونصف من الزحف المرهق سمعنا طلقات في المقدمة. فهرعنا أنا والقائد، وخرجنا إلى سهل مغطى بحشائش قصيرة في الوقت المناسب لرؤية جونجو ورجاله في حالة فرار كامل من أمام العرب المنتصرين، وهم لا يبعدون أكثر من أربعمائة ياردة من أمامنا. وسرعان ما قَدِم ميشو وكتيبته، وأعطى القائد أوامره بالهجوم. وإذ بدأنا طلب مني أن أسحب رجالي، وأن أبقى في الخلف لحراسة النساء والمتاع. وأمرني بأنه وما إن تصل الكتائب الأخرى فعليّ إرسالها بصحبة مدفع الـ كروب. [133] حينها كان الهوسا قد أطلقوا صرختهم للحرب. وما إن سمعها رجالي من الهوسا برمّتهم حتى اندفعوا في القتال، وتركوني بمفردي مع العريف الرئيس. ولأنني اعتليت قمة تل نمل، وعريفي إلى جانبي فإنني كنت في أفضل وضع لرؤية المعركة يمكن لأيّ رجل أن يرغب فيه. رأيت القائد وميشو يختفيان في الأرض - والسبب في ذلك، الذي لم أعرفه ولم يعرفاه حتى وقعا في الأمر، هو أن المستنقع الذي يمتد لمساحة مائة ياردة تقريباً، امتد بيننا وبين العدو. وكان أكثر الأشياء إثارة للاهتمام أن نرى رجالنا مغمورين حتى رقابهم في الطين والماء وهم يطلقون النار على العرب. وبينما كانوا يتقدمون كان العرب يتراجعون، وإذ رأى جونجو أن الدعم قد وصل، حشد

قواته المتراجعة، وبالتعاون مع قواتنا، طارد العرب عبر السهل وفي معسكرهم المحصن، والذي قامت القوات النظامية لاحقاً باجتياحه. تجمعت قوة كبيرة من العرب على جناحنا الأيسر، لم تنتبه لذلك لا قواتنا ولا جونجو. ووسط فزعي رأيت قواتنا تبدأ في مطاردة الجزء الأكبر إلى أرض ذات أشجار واطئة، وتتابع تلك القوات مختفية عن الأنظار [134]. وفجأة كادت قرقعة البنادق تتلاشى من الأسماع، وأصبحتُ هدفاً لأربعمائة أو خمسمائة من العرب الذين باتوا بيني وبين القائد، على مبعدة تقل عن أربعمائة ياردة من تل النمل الذي أقف عليه. والشيء الوحيد الذي فكرت فيه وأنقذني هو أن العرب لا بد من أنهم قد أخطأوا الظن بأن العتاد والنساء اللائي أحطن بي هن بمثابة احتياط. وبعد عشرين دقيقة وصل شيرلينك، وتقدم للالتحاق بالقائد، متبوعاً بسرعة بالنقيب دو فوترز برفقة المدفع. فتبعناه بدورنا وبأكبر سرعة ممكنة ملتفين حول المستنقع. ورأيت في أرض المعركة تلك، الحالة الوحيدة التي وضع فيها أحد السكان الأصليين الحُبّ قبل الخوف أو الخطر. ففي بقعة كان رفاقي قد استولوا عليها للتو، مررت بامرأة جالسة على الأرض بقرب زعيم ميت، تبكي بهدوء وقد وضعت رأسه بحضنها، بينما كان الرصاص يئز حولها، ليخطئها أحياناً ببوصات. وبعد قليل، وبينما كنت أعيد عبور أرض المعركة، تبيّن لي أنه لم يتبق من الآثار سوى بقع دماء متجمدة هنا وهناك، تشير إلى المكان الذي قطّعت فيه ضحايا القتال لتوفير مأدبة في المساء للصامدين المنتصرين. [135] وكان اشمئزازنا متخيلاً أكثر مما هو معبر عنه، حيث إننا وجدنا أن معسكر الأتباع والأصدقاء لم يفرقوا في هذا الصدد بين المقتولين أو الجرحى في جانبنا أو جانب العدو. ولقد قتلت إحدى زوجات جونجو لوتيته خلال تقدم المعركة، فقطعت وأكلت على أيدي رجاله أنفسهم، فانتقم منهم باختصار عبر تقديمهم لتشكيل وجبة طعام لرفاقهم. ولقد ألقي القبض على عدد من رجالنا في أثناء النجاحات العربية في بداية اليوم، وعندما تراجع العرب قتلوا بعضاً منهم، وقطّعوا أجزاء بعضهم دون قتلهم تاركينهم على الطريق. ولم يكن هذا

أجراءً حكيماً، بحيث إن ذلك لم يجعل شعبنا أرحم في معاملتهم مع مقترفي الجرائم تلك والمتراجعين.

يقع المعسكر العربي الذي استولينا عليه على أرض مرتفعة في قرية كاسونجو لواكيلا وحولها. ولأنه كان موقعاً حصيناً، فقد نفعنا أيضاً كمقر لنا. وفي المعسكر استولينا على بارود وطلقات وبنادق وذخائر أخرى [136] وعثرنا أيضاً على خيم عربية وممتلكات شخصية، وخيمة من صنع إيديسون (Edison)، والتي من المرجح أنها ربما عادت إلى عضو من حملة هوديستر التعيسة الحظ. واكتشفنا من الأسرى وبعض الوثائق التي في المعسكر أن موني بمبي (Muni Pembe) (وهو ابن موهارا) ومحمدي قد قادا العرب. وصعب تقدير خسارتهم، ولكن ربما فاقت المائتين من القتلى. ووصلت خسارتنا إلى ما يقرب من الاثنين والثمانين من القتلى والجرحى.

فرقنا معسكرنا في أول يناير للبحث عن الطعام. اجتاحتنا عاصفة مخيفة، وإذ لم تظهر أيّ إشارات للتلاشي، اضطررنا لإقامة معسكر على جانب تل. كان كل واحد في حالة يرثى لها وفي وضع عصبي، كان الغذاء شحيحاً، والطبخ مستحيلاً، والأشياء كلها رطبة وباردة. تقدمنا في اليوم التالي وكنا تحت شمس حارقة، ووجدنا أن الحرارة باعثة على السرور بعد برد اليوم والليلة السابقين ورطوبتهما. أدت بنا ساعتان من الزحف للوصول إلى نهر موادي (Mwadi River)، والذي شكّل بتياره السريع ومياهه العميقة بخمسة وعشرين قدماً، عائقاً صعباً لعبور قافلتنا. وبعد ساعات أربع من العمل الشاق نجحنا في إقامة جسر [137]، وعبر كل واحد بسلام، فيما عدا ما يقرب من نصف دزينة من رجال جونجو لوتيته الذين غرقوا. وبعد ساعتين من السير عسكرنا على هضبة تسمّى جوويو كابوبا (Goio Kapopa) على ارتفاع ثلاثمائة قدم من السهل المحيط، والتي يمكن لثلاثة مجار من أنهار كبيرة نسبيًّا أن تشق مداها. وواجهنا إلى الشرق نطاقاً عالياً من التلال.

وفي إحدى الأمسيات، وبينما كنا في المعسكر في جوويو كابوبا قدم بعض المشعوذين من بين رجالنا وقالوا إنهم بمثابة منتدبين للقائد ورجوه كمعروف أن «يصنع طبّاً»، لإظهار كيف ستكون نتيجة الصراع المتوقع مع العدو. وقالوا إن العرب حاولوا في كل شكل من أشكال التعاويذ التي يعرفونها، ولكن كل وسطائهم الروحيين كانوا خُرساً (كانت الطريقة العربية الأوسع استخداماً، هو أن يقتلوا ماعزاً أو طائراً، ويتظاهر الطبيب - المشعوذ بأنه يستطيع قراءة الطالع من النظر لأحشاء الذبيحة). ولم يطلعوا على تجربة رجل أبيض، وكانوا شديدي الرغبة في أن نستجيب [138] لطلبهم. وأعلن القائد أنه سيتأكد من المقادير في الساعة الثامنة من ذلك المساء، وأخبرهم بأنه أصبح طبّه وبعد الإعداد اللازم، أحمر وهذا مؤشر بأن القوات العربية ستُسحق في المعركة القادمة، وإن كان أبيض فهذا دليل على أن المعركة ستكون متساوية. ولكن إن كان اللون أخضر فسيتوجب تفادي المعركة لشهرين بحيث إن النتيجة باتت غير معروفة. وفي المساء برزت كل روح في معسكرنا وفي معسكرات الأصليين لرؤية ماذا سيحدث، وحتى مستضيفو سيف على التلال المقابلة كانوا يتابعون أيضاً بترقب. كان لدينا بعض صواريخ إشارات، لم تتبقّ منها إلا دزينة صالحة للاستعمال، والتي تركت للاستخدام حين الضرورة القصوى. وعندما أمر القائد بإطلاق ثلاثة من صواريخ الإشارات الحمراء، كانت صرخة الفرح التي ترددت في المعسكر مروّعة تماماً. وحيث إن المشاهدين قد عرفوا بأن الـ «طب» كان أحمر، ولثلاث مرات متكررة، تراقصوا حولنا في نوبة فرح عارمة، وطلبوا أن يوزع البارود عليهم لجعل الأمسية ليلة احتفال به. فلقد كان من خصائص أتباع العرب والمحليين [139] تفريغ بنادقهم في كل مناسبة - الفرح أو الحزن، الوصول أو المغادرة - تصلح كعذر لإطلاق النار. وحتى سقوط المطر كان يمكن أن يؤدي إلى فقدان غير مسؤول للبارود، فكان كل رجل يقدم على إطلاق النار، «خوفاً من أن يصبح البارود رطباً». وحين يتوقف المطر وتطلع الشمس، كان يطلق زخة أخرى أيضاً «للتأكد من أن البندقية لم تبتل». وفي تلك المناسبة

الخاصة طلبوا باروداً، وحلت بهم السعادة حين حصلوا على برميلين منه، فجعلوا من تلك الليلة ليلة شنيعة اشتملت على الصياح والرقصات وزخات الرصاص المنتظمة من الأسلحة النارية. وفي المقابل كان هناك صمت أطبق على معسكر الأعداء، الذين لو قمنا بمهاجمتهم لفروا حينها وبكل اتجاه.

وفي الخامس من يناير وصلت إلينا ثلاثمائة أو أربعمائة امرأة ممن تركن عند نهر اللومامي بصحبة أمتعة الجنود الخاصة، وكان هناك فرح عارم في المعسكر، ذلك أن الرجال كانوا يعيشون بدون أغطيتهم الزائدة، وبدون نسائهم للعناية بهم، حتى أصبحوا معتلي الصحة وسيّئي التغذية. ولقد أحضرت النسوة من لومامي أيضاً ملاحظة من دولكومون يستجيب بها لطلب [140] القائد بأن يرسل له ضابطاً أبيض واسمه كسّار (Cassar)، وبضعة جنود، وكل بنادقه والذخيرة، لكنه اعتذر عن إرسال بقية جنوده. فهم، بحسب قوله، سيتوجب عليهم الاشتباك مرة أخرى في لوسامبو، ولذلك يجب ألا نتوقع رؤيتهم مجدداً لشهرين لاحقين. ولم تأت أيّ أخبار من حملة فرانكي على الإطلاق. في ذلك المساء رأينا نيران المعسكر على التل المقابل، وسمعنا طبولاً تدق والكثير من الصياح. كان ذلك بمناسبة عودة سيف والأمراء الآخرين للهجوم على الرغم من هزيمته الماحقة في اللومامي. وقرر القائد أن يتركهم يعبرون النهر، أو في كل الأحوال أن يرسوا بجزء كبير من قواتهم على جانبنا قبل مهاجمتهم.


الفصل الثامن

المزيد من الهزائم العربية - القائد يقرر أن يأخذ المبادرة ويقود هجوماً على قوات سيف

[141] في صباح التاسع من يناير، وفي حوالي الساعة السادسة، سمعنا طلقات رصاص خلف معسكرنا. وبعد الاستفسار من جونجو لوتيته، رأى أنه ربما كان بعض أفراد من شعبه قد تشاجروا مع الأصليين. وبعد بضع دقائق، سمعنا بوضوح وابلاً من الرصاص وبما أنه لم يكن ممكناً أن يأتي ذلك من الأصليين، فإن القائد أرسل ميشو ودوفوترز للاستكشاف. وبعد بضع دقائق هرع رجل إلى المعسكر لا يكاد يتنفس، وصرخ وهو ممسك ببندقيته ذات التلقيم الخلفي ونصف دزينة من الطلقات «الرجل الأبيض يتعرض للهجوم ويطلب المساعدة» وسقط غائباً عن الوعي. وعندما تمكن من إعطاء تقرير متماسك عن نفسه، قال [142] إن الرجل الأبيض لا يزال يقاتل، لكن الضغط يتفاقم عليه، لذا أرسل يطلب تعزيزات.

بدأ ميشو ودوفوترز وشيرلينك على الفور بكتائبهم ومجموعة تمثل قوة جونجو لوتيته، وتركونا: أنا والقائد وسيركيل في حالة مروعة من التوتر. وصلنا إلى المعسكر ونحن على أهبة الاستعداد لمواجهة أي هجوم؛ كانت قوة سيف تعسكر بمواجهتنا، وبحسب التقرير الذي تسلمناه للتوّ، فإن موهارا (Mohara) من نيانجوي (Nyangwe) كان يقاتل في مؤخرتنا. أتى هذا الخبر في وقت لا يكاد يمكن تصديقه، وإن كان قد بدا بأنه واقع فعلاً. في وسط النهار بدأ إطلاق النار على بعد بضع مئات من الياردات في معسكرنا وسط الحشائش. وإذ اعتقدنا بأن القتال أوشك على البدء، زحف كسّار إلى داخل معسكرنا بكل متاعه جريحاً، لكنه تمكن من تخليص نفسه من المشكلة التي وقع فيها حتى دون رؤية القوة التي أرسلناها لمساعدته. وكانت كلماته الأولى: «أيها القائد» «كدت أوشك على الوقوع في الأسر، ولقد أحرقت الكثير من الطلقات». قال القائد: «آه» «لا تزال حياً، وهذا هو الشيء المهم. أعتقد

أنك فقدت كل المتاع والذخيرة التي كنت قد أحضرتها لنا.» لكن الرجل [143] المقدام لم يفقدها؛ وكان هذا هو ما جرى بحسب الرواية التي قدمها لنا.

كان قد عسكر، في المساء السابق، على بعد ساعتين ونصف زحفاً من مؤخرتنا، وبما أنه لم يكن يشك في شيء، فقد نام جيداً. كان قد أحضر لنا حوالي 50 ألف طلقة من الذخائر، وأربعين بندقية من نوع (chassepot) مربوطة في رزم؛ وتكونت قافلته من 26 من الجنود النظاميين و250 من رجال جونجو لوتيته كحمالين. وبينما كان يغسل جسده في الساعة السادسة إلا ربعاً في الصباح، كان متعجباً من زخة طلقات أطلقت على المعسكر من الأشجار الواطئة المحيطة. ووجد أن الأدغال المحيطة به من كل جانب باتت مليئة بقوات معمّمة. أعد رجاله على الفور، وبدأ بالرد على النيران. وكسر حمالوه الذين لم يكونوا مسلحين ببنادق التلقيم بفوهة البندقية (muzzleloaders) صناديق الذخيرة، وأخذوا البنادق ذات التلقيم الخلفي واستمروا في إطلاق النار عشوائيًّا في كل اتجاه، إلا بالاتجاه الضروري. وفي أيّ حال، فقد كان ذلك الإطلاق العشوائي، كافياً لمنع العرب من اجتياح المعسكر، وكان كسّار يهاجم بجنوده في أي نقطة يقترب فيها العدو كثيراً. واستمر ذلك لما يزيد على الأربع ساعات. [144] انسحب العرب، ولسبب لم يعرفه كسّار حينها لساعة وعشرين دقيقة. وعرفنا فيما بعد تفسير ذلك كما اكتشفنا لاحقاً، أن موهارا قد أصيب في رجله برصاصة طائشة. خلال ذلك التوقف أنزل كسّار خيمته، وأخذ متاعه لكنه جرح وهو في الطريق، فانسحب باتجاهنا. كان الدغل شديد التشابك، وحين تبعه العرب، تمكّن من إيقافهم حتى عبرت قواته بأكملها نهراً عميقاً، صادفه لحسن الحظ في طريقه. وحيث لم تكن هناك من وسيلة لاجتياز النهر إلاّ عبر شجرة ضخمة منفردة ألقيت فيه، لم يجد صعوبة في تجميد حركة العرب حتى يتمكن الجزء الأكبر من قافلته من قطع مسافة جيدة كبدء. وبعدها أسرع خلفهم، ووصل إلى معسكرنا كما وصفت.

وبينما كنا لا نزال نتحدث، بدأ القتال مرة أخرى من الاتجاه نفسه تقريباً حيث سمعناه في الصباح. وفي المساء قدم أحد جنودنا ومعه رأس موهارا، ومذكرة من دو فوترز يقول فيها إنهم قاتلوا الجزء الأكبر من القوات العربية، وهزموها، وقتلوا موهارا وإنه أرسل [145] رأسه للتعرف عليه. وصل جنودنا في الصباح الباكر، حاملين معهم كميات كبيرة من الغذاء، والحمير، ورزمة كبيرة من المراسلات العربية، بالإضافة إلى أسرى وخيم. وبحسب تقرير دوفوترز فقد قالوا إنه بعد السيطرة على المعسكر العربي وجدوا عدداً هائلاً من الجرحى، والكثير من القبور المحفورة حديثاً مما يشهد على قساوة قتال كسّار في الصباح. وقال إنه تمكن من تحقيق نجاحه بسبب أن العرب قد أخطأوا حين ظنوا أن قواتنا هي بعثة كانوا يتوقعونها أرسلها سيف وحرسه. وبفعل هذه الغلطة، تركوا قوة دوفوترز تزحف في الوادي المليء بالمستنقعات والذي كان يحمي أحد جوانبهم، وتستولي على أرض مرتفعة حيث كان المعسكر قائماً، دون تحرش. وما إن اجتازوا المستنقعات، حتى أصبحوا في منطقة مرتفعة الحشائش وفيها حقول الكسادا[39]، مما أخفى الهوية الحقيقية لهم عن العدو حتى تمكنوا من تشكيل طابور وكشفوا الغطاء على بعد مائة ياردة من أقرب خط عربي. وعلى الرغم من أن العرب قد رأوا وصول [146] أناسنا فإنهم وبحسب كل النوايا والأغراض كانوا متفاجئين. ولحسن حظنا، فقد قتل موهارا، الذي جرح في الصباح، لدى بدء القتال، وخسارة الزعيم، تنشر الفزع وسط الصفوف، وهو أمر معتاد إلا لدى الجنود الأوروبيين.

كان أقرب نهر إلى الشرق منا هو نهر اللوفوبو (Lufubu). وبعد نجاحاتنا في اليوم التاسع من الشهر، قرر القائد أن ليس هناك من سبب

---

39 - Cassada، نبات يستخدم جذره عموماً لصناعة الخبز ولكن يقال إن عصيره حين لا يزال نيئاً يكون خبيث السم

(http://ftp.columbia.edu/itc/mealac/pritchett/00generallinks/kerr/vol02chap05.html) (المترجم).

يمنعنا من مهاجمة قوات سيف، التي لا تزال أمامنا. وعلى ذلك أرسل ميشو في اليوم الحادي عشر برفقة كتيبته لتوفير الحماية لشعب لوتيته، الذين أمروا ببناء جسر على اللوفوبو. ولقد قاموا بإنجاز ذلك في ثلاث ساعات، في نقطة كان عرض النهر فيها أربعين ياردة فقط وبعمق عشرة أقدام. وعندما أنجز الجسر عبره ميشو، وبعد مسيرة ساعتين وجد نفسه على ضفاف كيبانجو (Kipango) على بعد أقل من ميل من معسكر سيف والذي استقر على ارتفاع ثلاثة أرباع الميل من النهر. وحين اكتشف العدو أن قواتنا باتت قريبة جداً، نزل أفراده بقوة لمنع أناسنا من عبور نهر [147] الكيبانجو. وبدا ذلك طبيعيًّا عندما ساورتهم الظنون بما اعتقدوا بأننا ننوي القيام به. وحدث اشتباك حاد عبر النهر. وكانت حرب الكلمات أشد وقعاً حتى من بنادقنا. قاد محمدي وسيف العرب، والذين كانوا يسخرون من شعب لوتيته ويعيبونهم، قائلين إنهم في حالة يرثى لها، وإن من الأفضل لهم أن يفروا من الرجل الأبيض الذي يجهل أمر أن موهارا وكل قواته من النيانجوي معسكرون في مؤخرتنا. رد شعب لوتيته: «نحن نعرف كل شيء عن موهارا، لقد أكلناه أول أمس». لم تكن أخبار هزيمة موهارا حتى ذلك الحين قد وصلت إلى سيف، حيث كان معسكرنا يفصل بينهما، وكان موهارا قد هزم وقتل قبل أن تتصل الأخبار بين الجيوش العربية.

تراجع ميشو، تاركاً شعب لوتيته، مخفيًّا وسط الغابة ومجهولاً من العدو، لبناء جسر على النهر في موقع أعلى. عبرنا اللوفوبو في اليوم الثاني عشر، وحين وصلنا كيبانجو وجدنا أن الجسر الذي أقامه حلفاؤنا قد جُرّ بعيداً. وكانت ثلاث ساعات من العمل الدؤوب قد مكنتنا من بناء جسر آخر، قوي بشكل كاف [148] لتحمل مرور النظاميين من جنودنا والمتاع، بالنظر إلى أن جزءاً من قوة لوتيته كان قد عبر النهر قبل أن يكتمل بناء الجسر. ولقد نجح

الجزء الأكبر من قواته المتبقية من العبور عبر تسلق الأشجار التي على الضفة والتمرجح عبر النباتات المتسلقة. وعلى الرغم من أنه وفي بعض المواقع، كانت الفروع متشابكة، فإننا شهدنا بعضاً من أكثر المناظر إثارة للرعب في القلوب. فنحن الذين كنا نعمل أسفل النهر، رأينا الكثير من رؤوس أو أذرع أو سيقان وسط فيضان يغلي ويجري كمسار طاحونة أمامنا. ولم يكن من الممكن بذل المساعدة. وما كان لدى رجالنا سوى القليل من خيارات المرور، وقد غرق أحدهم وسحبه التيار. وإذ مالت الشمس للغروب عبرت قواتنا، وبعد أربعين دقيقة من الزحف هجمنا على المعسكر العربي، لنفاجأ بأنه قد أخلي. أمضينا ليلة كاسفة، حيث لم يتمكن حمّالو المتاع والتموين من التعرف على المعسكر في الظلام. وبحسب بعض المعلومات التي تطوع بها بعض الأسرى في اليوم التالي، بدا أن سيفاً كان مشوّشاً، فلقد قتلت إحدى زوجاته المفضّلات في أثناء الاشتباك على ضفة النهر مع ميشو، [149] برصاصة طائشة بينما كانت جالسة معه في الخيمة على بعد ميل من مشهد المعركة. وبعدها بفترة قصيرة انسحب ميشو، وأكد رسول له ما كان حلفاؤنا قد أخبروه به أساساً أن موهارا قد قتل وأن قواته قد تبعثرت.

ارتفع التل الذي كان العرب قد أقاموا معسكرهم عليه، والذي نحتله حاليًّا، بشكل مفاجئ من وسط السهل، وشكل هضبة بمساحة ميل ونصف مربع، تحيط به ومن كل اتجاه منحدرات حادة مغطاة بالحشائش المنتصبة. ولا يمكن لموقع دفاعي أن يكون أفضل من هذا. ولو كان سيف قد دافع عن موقعه، لشككت في أننا كنا سنستطيع السيطرة عليه أبداً. لكنه كان لا يزال متألماً بعد ما ألمّ به على الطريق إلى اللومامي، وكان قد جزع كثيراً إزاء مقتل موهارا، الذي عُرف بأنه أعظم المقاتلين في غرب بحيرة تانجانيقا. وكان ينتشر في البلاد عن موهارا قوله: «لم أخسر أي معركة قدتها شخصياً، وإنني

أفضل أن أموت في الميدان على أن أذهب إلى البيت بعد أن أكون قد خسرتها.»
لا يمكن للمرء إلا أن يعجب بصائد العبيد العظيم هذا، والذي [150] فضّل، وبعد سنوات من النصر، أن يموت على أن يغادر مشهد أول هزائمه.

في العشرين من يناير، أقام القائد معسكراً، مقترحاً في الليلة السابقة بأن نلقي نظرة على اللوالابا حتى نتمكن من القول بأننا قد رأيناه بعد أن حصلنا على معلومات مؤكدة بأن القوات العربية بمجملها قد تراجعت إلى الضفة اليمنى من النهر. كانت قافلتنا محملة بأغذية كثيرة، وكل من ادعى معرفة بالأمر اتفق على أن بيننا وبين النهر هناك صحراء وسيكون من المستحيل تغذية القافلة لما يزيد على يوم أو يومين. ولأن مرضاً انتشر في هذا المعسكر كناية عن مغص معوي وحمى خفيفة والذي عزوته لموقعنا المكشوف وسط السهل. كانت الليالي شديدة البرودة بحيث تهبط الحرارة من مائة درجة إلى 50 درجة على الرغم من أننا لا نرتفع إلا لثلاثمائة قدم عن السهل المحيط.

وعلى الرغم من هذا، فإن قافلتنا كانت في حالة احتفال واسع، لأننا بتنا في مقاطعة الملح، حيث تقع عدة مستنقعات مالحة على بعد مسيرة ساعة. وتمتد هذه المستنقعات المالحة [151] من اللوفوبو غرباً، إلى اللوالابا شرقاً. ويموّن الملح من هذه المقاطعة البلاد بمجملها من تانجانيقا إلى كاساي. ولقد زرت، من بين ما زرت، حفرة ملح مثيرة للاستطلاع في قاع سرداب مظلم وضيق مثلث الشكل. وخلال هذا المستنقع، كان الماء الأسود المالح الحار ينبعث في فقاعات من الأرض على مجمل السطح، ومع ذلك يتخلله في أسفل الوسط جدولٌ من الماء البارد النقي، والذي رفع مجراه بأيدي الأصليين لكيلا يقلل الماء العذب من ملوحة الماء الآخر.

وبدا نسران على القمة كما لو أنهما قد حنّطا؛ كان كل شيء مالحاً وساكناً؛ وحتى الرجال لم يكونوا يتحدثون إلا همساً. ووسط السكون أزّت فجأة

نصف دزينة من الرصاص، وامتلأ الجانب الآخر من التخم على الفور بالعرب تقريباً. وفي لحظة امتلأ المكان بأكثر الجلبات صخباً كان كل واحد يصيح ويطلق النار. ولاحظت أنه حتى أحد النسرين قد أطلق صيحة. وكانت الأصداء هائلة، وتزايدت وضاعفت من الفوضى. وعندما أخلينا التخم جلست وأخلدت للراحة. وامتلأ المكان كله برائحة [152] الكبريت، وارتفعت سحب الدخان، مستعيدة بوابات جهنم. وقال أحد رجالي، وهو زنجي أميركي من ليبيريا، والذي كان يقطع بهدوء إحدى الأيادي من إحدى الجثث كوسيلة لانتزاع أساور، «أعتقد أنه لم يرتفع غبار مثل ما ارتفع اليوم منذ أيام الخلق». عندها ناديت بالانسحاب وتردد صدى النداء لما يزيد على الدقيقتين وغادرت بعدها.

الفصل التاسع

قوات الدولة تعسكر قبالة مدينة نيانجوي على الجهة الأخرى من نهر لوالابا - وصف شعب المياه - مواجهة مفاجئة مع رتلين متقدمين من العرب

[153] في وسط النهار من يوم 21 يناير 1893، وبالقدوم من حزام الغابات الكثيف، رأينا نيانجوي (Nyangwe) تنبسط أمامنا. وامتد بينها وبيننا سهل بعرض ميلين ونهر اللوالابا والذي كنا نعرف أنه يمتد بعرض ألف ياردة؛ وكان الجو جليًّا إلى حدّ أننا شعرنا بأننا على مبعدة مدى بندقية من المدينة. ولم تكد تمرّ دقائق على وجودنا حتى بدأنا نتبين عبر مناظيرنا اضطراباً هائلاً في شوارع نيانجوي. وكان واضحاً أننا قد اكتُشِفنا. أوقف القائد قواتنا حتى تأخذ القطعات المختلفة مواقعها. في هذه اللحظة، هبّت زوبعة. [154] ولكن بما أن الطابور قد شُكّل فإننا قدّمنا قواتنا، وما إن نزلنا من المرتفعات حتى منعت الأعشاب الطويلة والتي غطّت السهل أي فرد من الرؤية لمدى يزيد على عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة إلى الأمام. وحين بتنا تقريباً قبالة جنوب نيانجوي، على بعد أقل من ميل ونصف من ضفة النهر وإن بدا حينها أن المسافة أقرب اعتلينا هضبة صغيرة مدورة من الأرض ترتفع عنوة من المستنقع شبه الجاف والذي كنا نزحف وسطه. ومن هذا المكان رأينا طابوراً طويلاً من الرجال يتقدم تجاهنا خلال الأعشاب، لا يبعد أكثر من نصف ميل عنا. وأقمنا على الفور خطاً دفاعيًّا، وأمر القائد كتيبتين بأن توقفا التقدم المفترض للعدو. ولمّا كنا على مقربة من سماع الهتافات، اكتشف أنهم كانوا سرية من قوة لوتيته ضلّت الطريق، ووسط تفاجئهم العظيم، اصطدموا باللوالابا، قبالة المدينة تماماً. وأدت زخة أو اثنتين أطلقتا عليهم من الضفة المقابلة من النهر إلى أن يفروا باتجاهنا بأسرع ما تعينهم أرجلهم. وأوشك هذا التهور من جانبهم أن يكلفهم [155] غالياً، ولولا أنهم لم يكونوا في انتظام واضح، لكنا على نحو التأكيد قد قصفناهم قبل أن نعرف هويتهم. توقفنا عند ذلك المرتفع وعليه،

والذي لم يرتفع أعلى جزء منه إلا ببوصات قليلة عن المستنقعات المحيطة؛ ولمدة خمسة أسابيع أو ستة، كانت بعض قواتنا تعبر المستنقع يومياً، وفي الأيام الأخيرة اضطرت للسباحة في جزء من الطريق حيث الاتجاه نحو ضفاف اللوالابا. قبالة الجزء الأهم من المدينة، كانت تقع جزيرة بطول ثلاثة أرباع الميل، وقد حصّنها العرب تحصيناً منيعاً. وكنا نستغرق وقتاً طويلاً كل صباح لإسكات الخنادق التي تطل على موقعنا المفضل على ضفاف النهر لإزعاج المدينة نفسها. وخلال التبادل اليومي للكياسات كانت تقع بعض حوادث مثيرة. تمثّلت إحدى الحيل المفضلة للزعماء العرب أن يطلبوا دقائق من الهدوء للتحدث إلى أحد الضباط البيض. وفي عدة مرات يخرج ضابط للمحاورة - معتقداً بحسن نية العدو - وبينما تمتد المحاورة مع الزعيم، وبينما يكون الضابط مكشوفاً تماماً، كان يحدث أن يتعرض وبدون سابق إنذار [156] لوابل من النيران تطلقه في آن دزينة أو اثنتين من الرجال. وكان مثيراً لنا أن نرى كيف استفاد حلفاء العرب بسبب البنادق ذات التعبئة من الفوهة، من الاتجاه الآخر للنهر، وكانت طلقاتهم تتشكل من قطع من النحاس بطول بوصة واحدة وقطر بحوالي نصف بوصة تقريباً. ولقد أفزعت تلك الطلقات رجالنا في البداية وإلى حد كبير، لأن السلاح الناري المستخدم (musket)[40] لم يكن بندقية (rifle) حديثة، ولأن الطلقات التي كانت تصل إلى جانبنا على النهر كانت تحط وسط جلبة شنيعة. وكانت تلك الزخّات القادمة من الجزيرة والتي لا تبعد إلا أربعمائة ياردة ذات فعل مؤثر للغاية؛ وكان بعضها والذي يطلق من المدينة نفسها يقع بيننا، وإن كانت النقطة الأقرب عبر النهر لا تقل عن تسعمائة ياردة بعداً.

كان قطيع كبير من الماشية والذي كان يمكننا رؤيته، يوفر لنا في بعض

---

40 - سلاح ناري يطلق من على الكتف لكنه ليس ببندقية من النوع الحديث. تقذف الطلقات من ماسورة ناعمة لا تحقق دوراناً حين الإطلاق لضمان عدم انحرافها من محور طيرانها باتجاه الهدف http://en.wikipedia.org/wiki/Musket)
(http://en.wikipedia.org/wiki/Smooth_bore (المترجم)

الأحيان فرصة لممارسة الرياضة. وفي أحد المرّات حين اقْتِيْدَ القطيع إلى الأسفل تجـاه النهر للري (وحيث كان الرعاة غير واعين لكوننا في الأسـفل مسـتلقين وسـط القصـب تجاههم)، قتلنا وجرحنا عـدداً منها. وهـاج القطيع، وبدا أن ضـيقه قد ازداد حينها من قادته، الذين كانوا يردون على نيراننا من الخنادق [157] التـي في الجوار. فلقد ارتد عليهـم، وفي دقائق معدودة أخلوا الخنادق. وكان الجنود، الذين يلتفتون إلى الخلف ويطلقون النار على الحيوانات الهائجة، يُفَرَّقون بسـرعة بوابل أو اثنين من رصاصـنا. لكننا كنا نرى بعد بضـع ساعات من ذلك أن القطيع يركض إثر البؤساء الخائفين وسط طرقات المدينة.

وكم سـيكون أداؤنا أفضـل خلال الحصـار لـو توافر لدينا بـارود بدون دخـان. فـإذا كانت الحال علـى ما هي عليه، فـإن الجنود العرب سـرعان ما يقبعـون فـي خنادقهـم لدى رؤيتهـم لأول نفثة دخـان، وبالتالي، يتفـادون أن يصـابوا. وقام هدّافونا بإضرام نيران كبيرة في الحشائش خلفهم، وإذ قاموا بإطلاق النيران أمام الدخان الغليظ، حسّنوا من فرص تعمية طلقاتنا.

خـلال تلك الفـترة بمجملهـا، كان الوجينيـا (Waginia)، وهم شـعب الماء، الذين كانوا يقومون بمجمل النقل على النهر، زواراً منتظمين لمعسـكرنا. والوجينيـا هـم وبكل المعايير شـعب مميز. فهـم وعلى الرغم مـن أنهم كلهم أحـرار ولا يمتلكون عبيداً، فإن معظم خصائصـهم، كان متناقضـاً على نحو مثير. فهم لا يمشـون أبداً [158] إلا أن كل من قابلت منهم، وهم شـعب المياه على ما هم عليه، كانوا سباحين سيئين. وكل النقل البحري الذي كانوا يقومون به والمواصـلات التـي يقدمونها بأعلـى النهر وأسـفله، لنا وللعـرب، كان يتم دون مقابـل عدا تقديم الطعام لهم في أثناء العمـل. وكانت قراهم تتكوّن من الأعشـاب، وتتغير يومياً تقريباً. وكل الوجينيا يعرفون بعضهم بعضاً. وإن أراد أيٌّ منهم قارباً، فإنه يأخذ أي قارب يعثر عليه بالصـدفة، ليعيده لاحقاً، ربما، بعد أشـهر. وكانت هذه القوارب تُنحت من جذوع الأشـجار، ويمكنها أن تحمل

من واحد إلى خمسين رجلاً؛ وعلى الرغم من أن الوجينيا يستخدمونها دائماً، فإنه ليس بمقدورهم صناعتها بأنفسهم، بل يشترونها من شعب قصار القامة في الغابات لقاء السمك والفخار. وهم لا يقاتلون أبداً، وإن برزت إشارة لأي اضطراب في مقاطعة بجوارهم، يتجهون إلى أسفل النهر على بعد مائة أو مائتي ميل، ويهربون خلال ساعة لمسافات لا يستطيع أحد ملاحقتهم بها. وهم يحضرون لنا بانتظام معلومات عن أعمال العرب (وبالطبع كنا ندفع لهم لقاءها)، ليذهبوا من عندنا مباشرة إلى المدينة، ويخبروا العرب بكل شيء عنا. [159] وعلى الرغم من أننا كنا نعرف ذلك، ونعيّرهم بولائهم المزدوج، فإنهم لم يكونوا يعيرون ذلك أي اهتمام.

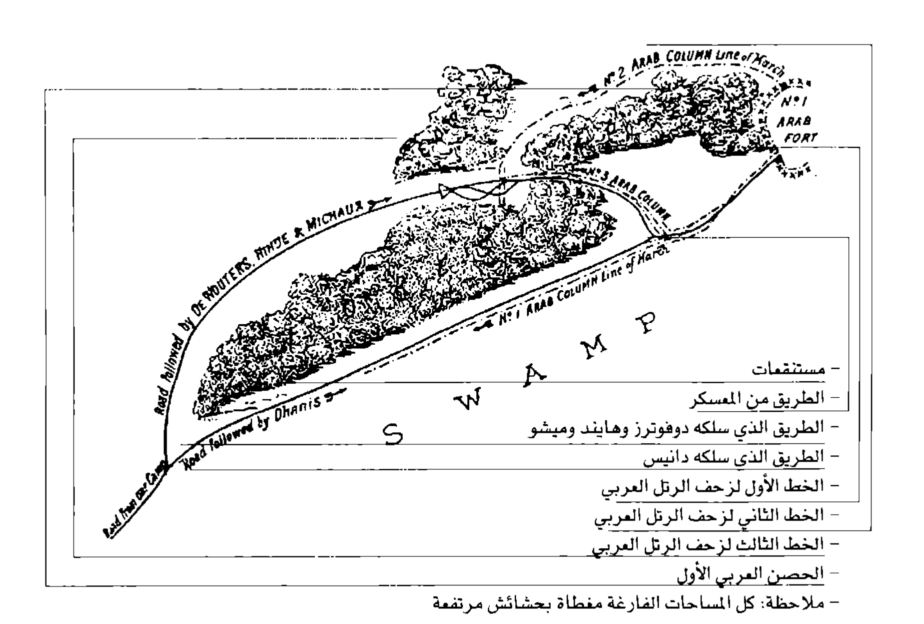
بعد بقائنا في المعسكر، أمر القائد لوتيته ببناء قارب نهري صغير، ليضاف إلى قارب أكبر كان قادماً إلينا على الطريق من لوسامبو، وبواسطة هذين القاربين كنا نود أن نحصل على قوارب من الجانب الآخر للنهر. ولكن، في أيّ حال، فإن القارب الأكبر كان قد ضاع في أثناء عبور نهر اللوفوبو. وفي المقابل فإن القارب الصغير وحين انتُهي منه كان لا يكفي إلا لحمل ستة رجال. وقبل أن نبني قارباً آخر، كانت الظروف قد تغيرت على نحو كبير إلى حدّ أننا لم نعد نحتاج إلى أي منهما. أنفَذَ القائد لوتيته وشعبه للقتال بالشمال، مع أوامر لهم بالعودة خلال أسبوعين. غادر لوتيته، تاركاً خلفه مائتين من البنادق ذات التعبئة من الفوهة وحَمَلَتها من الرجال، لحراسة خمسة آلاف امرأة من اللائي تركهن في معسكره. بعد رحيل القائد بوقت قصير، التقاه الوجينيا الذين كانوا يتجسسون حول المعسكر، وأخبروه أثناء المقابلة أن التموينات باتت شحيحة في نيانجوي. وفي خلال المحادثة [160] سألوا عن وقت عودة لوتيته، فردّ القائد بأنه يتوقع له أن يعود في خلال أسبوعين أو أكثر. وأضاف أن ذلك سيكون فرصة عظيمة للعرب أن يهاجموه حينها، واقترح أنه يتوجب عليهم أن يخبروا سيفاً بهذه الفرصة قائلاً: «أبلغوه تحياتي» قال دانيس «وقولوا له

إنني سمعت بأنه جائع، وها أنا أرسل إليه نصف دزينة من الطيور. وكما ترون فإن لدينا الكثير منها. وعندما نأكل الطعام الموجود كله في هذا الجانب من النهر، سنعبر إلى الجانب الآخر.» وأعطاهم آخر نصف دزينة من الطيور وجدت في معسكرنا. وفي أيّ حال، فقد بدا أن الوجينيا قد نقلوا هذه المحادثة بإخلاص إلى الجانب الآخر من النهر، وكان لها الأثر المطلوب. فبعد أيام قليلة تلت، سمعنا بأن العرب قد عبروا النهر، على بعد مسيرة ساعتين أسفل منا. ولقد تعاملنا مع تلك المعلومة بالازدراء الذي تستحقه الإشاعات في أفريقيا عادة. إلا أنه وفي اليوم التالي، قدم إلينا عبد هارب وقال إنه قد أحضر عبر النهر على يد سيده، وانشغل في اليومين الماضيين في بناء بومات[41] [161] وقال إن سكان نيانجوي الأحرار كلهم والقوات العربية العادية سيشنون هجوماً علينا في خلال يوم أو يومين. في تلك الليلة وبينما كان ثمانية من رجالنا يحضرون ماءً من نبع يبعد مائتي ياردة من المعسكر، أخذوا بعيداً على أيدي مجموعة استكشاف عربية. وحيث بدا أن المؤامرة قد أخذت تتراءى، فقد بات كل واحد على أهبة الاستعداد. وباقتراب منتصف الليل حدث صخب هائل: فلقد فرت النساء من معسكر لوتيته واجتحن زاوية معسكرنا حيث كانت تقع طوابير ميشو. تخلصنا منهن بصعوبة بالغة، ولكن وبأقل من ساعة، أصبن بالذعر، عند انطلاق عفوي لبندقية، ومرة أخرى نشرن الفوضى في كل أرجاء معسكرنا. جعلناهن ينبطحن أرضاً ووضعنا عليهن حرساً بأوامر لإطلاق النار على أي ممن تنتصب واقفة. وفي أيّ حال، فإن أمراً من هذا لم يحدث خلال الليل؛ وحيث إن العرب، وعلى عكس عادتهم لم يهاجموا عند الفجر، فإن القائد قرر أخذ المبادرة. سُلّمنا أنا ودو فوترز حرس المقدمة، وبمعيتنا مدفع كروب؛ وترك المعسكر بقيادة ضابطين ونصف الرجال. [162] وبعد زحف استمر ثلاثة أرباع الساعة افترق الطريق: كان الفرع اليمين يؤدي بحسبما قال لنا الأدلاء إلى البومات العربية؛ وبما أننا أخذنا الاتجاه اليسار، وبحسبما

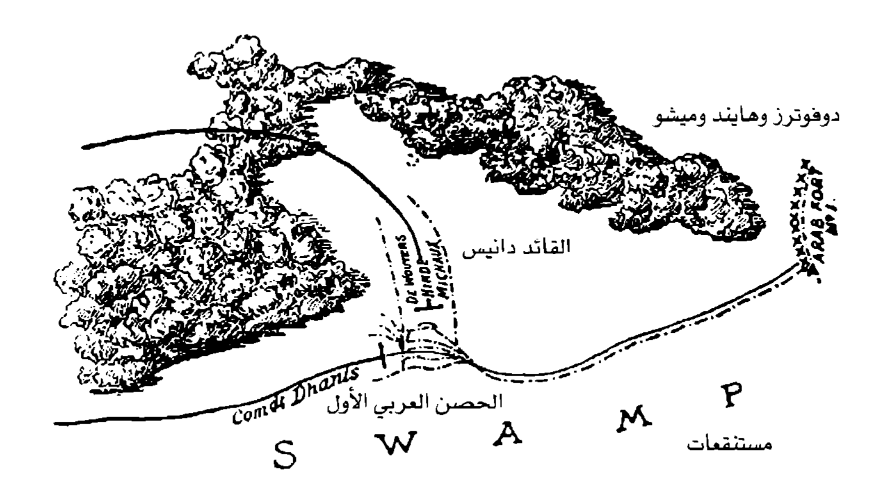
41 - جمع بومة (boma) وهي تحصين خشبي (المترجم).

أوضح الأدلاء، فإن ذلك سيؤدي بنا إلى أن نأخذ القوات العربية من المؤخرة. وامتد إلى اليمين منا قطاع من الغابة يفصلنا عن الطريق الآخر. وحين سمعنا همهمة عند هذه النقطة، التي بدت كأنها قدر كبير من الرجال في جوارنا المباشر، ركّبنا مدفع الكروب وتقدمنا. وقبل مرور وقت طويل سمعنا إطلاق نار على مؤخرة جناحنا الأيمن. وبعد مشاورة، توصلنا إلى الاستنتاج بأنه لا بد من أنه القائد، الذي سلك الطريق المباشر للتحصينات بهدف مهاجمتها في المقدمة، والذي كان يتوجب أن يكون قد لحق بنا في نصف ساعة. وبما أن الوقت بات متأخراً للالتفاف خلفاً، فإننا تقدمنا بضعف السرعة، آملين أن نصل في الوقت المناسب لمهاجمة القوات قبل أن يحقق القائد اختراقاً. ولشدة استغرابنا، ولدى وصولنا إلى ما بدا أنه طريق مسدود في أرض مفتوحة - تتسع بمدى أربعمائة ياردة وتحيط بها الغابة من ثلاث جهات - استُقبلنا [163] بزخات نار على جناحينا وفي المقدمة في الوقت عينه. فلقد دخلنا وسط طابورين من العرب المتقدمين، الذين حين شعروا بوصولنا أو حين نبّهوا بواسطة كشافتهم، شكلوا نظاماً مفتوحاً، وأقاموا قطاعات من الرجال في الغابة وفي كل جانب من الطريق الذي كنا نعبره. وكانت تلك الزخّات الأولى، التي أطلقت من مسافة ثلاثين ياردة إلى مائة ياردة من خطوطنا، قد أدت إلى إصابات بينهم أكثر مما أحدثت بيننا، حيث مرّت الرصاصات فوق رؤوسنا. ويصعب تخيل كيف تمكن دو فوترز من الهروب في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى: فطوله يبلغ ستة أقدام وخمس بوصات، وغالباً ما يرتدي اللون الأبيض، فكان العلامة بين كل الآخرين للرماة العرب. وفي هذه المرة هجمت مجموعة من العرب على طابورنا بيني وبين دو فوترز - بهدف الاستيلاء على كيرونجو أو «مالك الحزين»، كما كان يطلق عليه بين رجالنا والعدو. وكانت الأوامر هي الاستيلاء على «مالك الحزين» حياً أو ميتاً، وأن تستخدم المُدى، بما أن طلقات النيران لم تكن كافية ضد تعاويذ سحره. ولقد كنت محظوظاً في أن أوقف هذا الهجوم قبل أن يحقق هدفه. [164] ولقد انكسر الطابور العربي الأيسر وهرب

بعد حوالي ســاعة من القتال. بعدها اســتدرنا أنــا ودو فوترز لمهاجمة الطابور الأيمن، والذي كان الأقوى. وما إن أكملنا الحركة، حتى ســعدنا لاكتشــاف أن ميشــو كان علــى جناحنا الأيمــن، وقد قدم على جناح الســرعة عند ســماعه لإطــلاق النار بالمقدمة. وكان من دواعي حظّنا أنه قرر اتخاذ هذا النهج، بدلاً من العودة لاكتشــاف سبب الإطلاق، الذي سبق أن لاحظه فـي المؤخرة. وهكذا كان الوضع:



كانــت الأعشــاب بارتفاع اثني عشــر قدماً على وجه التحديـد، وقد جعلت من هجومنــا هـجوماً أشـعث وغـير نظامي على أكـثر ما يكـون. [165] ولكن، في أي حــال، كان هـذا، ذا نتائج محدودة، بحيث انكســر العــرب وتراجعوا. وقاد دو فوترز، بسـبب عدم الانتظام على الأرض، وإذ اضـطرب الأمر عليه وسـط الدخان، قاد الجناح الأيســر عابراً إلى الجناح الأيمن، حيث هاجم هو وميشو بضـعة أفراد مــن العدو، الذين تموضـعوا فــي الغابة. تابعت الجــزء الأكبر، ووجدت نفســي فجــأة في مؤخـرة العدو، واقعاً وســط حزام مــن الغابة. وإذ شـننت هجوماً، وجدت أن الطريق الوحيد خلال ذلك الحزام كان عبر طريق لا يزيد عرضه على خمسة أقدام. ولم يكن الإحساس بالمرور خلال هذا البقعة الخفيفــة النباتات، بينما كان العدو يطلق النار من الأســفل على الأرض، ومن أعالي الأشــجار وبكل الاتجاهات، باعثاً على الســرور أبداً. هناك اتحدت مرة أخرى مع دو فوترز وميشــو، اللذين لم يعثرا على عربي في الغابة: حيث إنهما وبعد الفشــل فـي إيقافي، قد أدركا أنهما ســيكونان واقعين بــين نارين إن بقيا. وما إن جمعنا قدراً معيناً من الرجال حتى هاجمنا مرة أخرى [166] الجســم الأكبر من العدو، مندهشــين من مقاومتهم العنيدة؛ لأن من السهل بشكل عام أن تجعـل مجموعــة من الرجال متحركة ما إن تكون قد بدأت فـي الانســحاب. خــلال هــذا الجزء من الاشــتباك هوجـم جناحنــا الأيمن. وقدحافـظ العدو علــى نار ثابتة ودائمة بشــكل جيد، والتي اقتربــت وإن بدت تتقدم على جبهتنا بانحراف.



حينها تراجع الجزء الأكبر الذي كنا نهاجمه في المقدمة، واستمر إطلاقنا على القوات المتقدمة على الجناح الأيمن. في تلك اللحظة سمعنا طبلاً، والذي عرفنا أنه صوت حلفائنا، فأوقفنا إطلاق النار فوراً. [يشكل الرسم الظاهر أعلاه ما حدث.] [167] سلك القائد الطريق الآخر، واشتبك فوراً مع العدو، وتمكن القائد من إرغامه على التراجع بعد قليل من القتال الشرس. ولقد طردنا العدو، وسط محاولتنا للنفاذ خلال حزام الغابة، أمامنا باتجاه طابور القائد الذي أوقف تقدمهم، وتقدمنا بدورنا بزاوية قائمة. وعندما تفرقت القوات العربية، تُركنا نطلق النار كل منا على الآخر، وسط أعشاب طويلة للغاية ولم تكن أعدادنا كثيرة. ولحسن الحظ، لم يقتل إلا رجل واحد وجرح ثلاثة أو أربعة بسبب هذه الحادثة البغيضة. وكان نافخو أبواقنا، في كلا الجانبين، ينفخون أبواقهم بحسب أفضل قدراتهم، لكنهم لم يكونوا ليُسمَعوا لأكثر من عشرين ياردة وسط معمعان المعركة، في حين أن الطبول كانت تسمع أفضل من أي شيء آخر. وما إن تمكنا من جمع عدد كبير من الرجال في تنظيم

جيد، حتى أخذنا بمتابعة العرب المتراجعين، واتجهنا صوب حصنهم المتقدم، والذي اجتحناه بعد دقيقتين ولكن بجهد بالغ. ولقد بدا أن العرب، لم يجدوا وقتاً كافياً للتجمع مجدّداً، بعد هزيمتهم في الخلاء، وهكذا سقطت قواتهم بسرعة. وبما أنهم بدأوا في إعادة التشكل على السهل [168] بين الحصنين واللوالابا، فإننا تقدمنا مرة أخرى ضدهم، وتراجعوا مرة أخرى إلى ضفة النهر. بعد ساعة ونصف من السير من الحصنين، يخلي اللوفوبو نفسه في اللوالابا، وهو يتسع هنا لمسافة مائة ياردة، وبعمق كبير جداً. ولقد تجمع العدو في جماعات متراصة في تلك الزاوية التي تشكلت باتصال النهرين. ولدى وصولنا حدث شيء بث الرعب في خطوط العدو المعاد تشكيلها؛ وبينما كان سيف وميسيريرا (Miserera) يعبران اللوفوبو (مالئين كل القوارب الصغيرة بأعوانهما)، فإن جمهرة العسكر بدأت بالمئات في محاولة للعبور في آن، ولقد غرق الكثير منهم.

في هذا الوقت يمكننا الادعاء بأننا وبدون قصد فاجأنا القوات العربية. فلقد بدا أنهم تركوا حصونهم في الوقت عينه الذي غادرنا فيه معسكرنا، بغرض مهاجمتنا في المعسكر من ثلاث جهات. ولقد أريد للطوابير الثلاثة، التي سلكت ثلاثة طرق، أن تصل في الوقت نفسه؛ على أن اثنين منهما، وبالنظر إلى حالة الأرض السيئة، فقد اضطرا للسير، كل منهما، على بعد مائتي ياردة عن الآخر، في اللحظة نفسها التي زحفنا أنا ودو فوترز بينهما.

الفصل العاشر

[169] عرض الواجينيا علينا أن يعطونا قواربهم، إن كنا مستعدين، في المقابل، أن نوفر لهم الحماية عبر الحصون العربية على الجزر أسفل النهر. لقد كان الأثر الذي تركناه فيهم بانتصارنا كبيراً للغاية إلى حدّ أنهم كانوا واثقين من نتيجة هجومنا على نيانجوي، وكانوا أيضاً على استعداد لإعارتنا قواربهم لعبور النهر. وكان أملهم في ذلك، أنه إذا نجحنا، أن يقوموا بقدر من النهب في المدينة؛ ومن ناحية أخرى، أنه إذا فشلنا، أن يجمعوا قدراً جيداً من النهب في معسكرنا. أرسل القائد شيرلينك وسيركيل أسفل ضفة النهر، وبعد اشتباك ذكي أو اثنين، نجحا في الوصول إلى موقع إنزالنا قبالة المعسكر بصحبة مائة قارب كبير.

في الثالث من مارس، وصلتنا رسائل وتوجيهات في غاية الإثارة من المفتش فيفيه (Fivé) وآخرين [170] فلم نسمع أي شيء عمّا كان جارياً خارج عالمنا الصغير لأشهر. لقد أرسل إلينا المفتش أخباراً طيبة أيضاً، ونقلت توجيهاته لنا أنه أمر القائد تشاليان أوف باسوكو (Chalian of Basoko) لتشكيل صلة معنا، وأن يحضر معه مدفعية وتموينات. كما قال إن القائد جيليان (Gillian)، سيلتحق بنا بأسرع ما يكون وبكل الرجال المتاحين من مقاطعات سانكوري كاساي. ولقد أمل من أنه، وهذه القوات مصطفة ضد العدو، فإن العدو لن يستطيع أن يقاوم لفترة طويلة. ولدى مناقشة الأمر من جوانبه، برزت لنا أنه لربما يقوم تشالتان (Chaltin)[42] بالاستيلاء على نيانجوي بالزحف على الضفة اليمنى للنهر. تملكتنا هذه الفكرة، فهرعنا جميعاً لتناول الطعام للتأكد مما إذا كان العلم العربي لا يزال يخفق في سماء نيانجوي. كان ذلك بمثابة خيبة أمل أنه وبعد كل المشاق والمصاعب، سيأتي شخص آخر ويحظى بشرف الاستيلاء على نيانجوي. تعلقت هذه الفكرة، بحسب اعتقادي،

42 - وردت تشالتان ولربما المقصود تشاليان أوف باسوكو. اُنظر ما سبق (المترجم).

كثـيراً بقرار القائد دانيس للهجوم فوراً على المدينة بعد سـاعة من حصـولنا على القوارب، مما جعل الأمر ممكناً.

خلال صـباح الرابع من مارس، أقمنا معسـكراً وانتظمنا فوراً على ضفة النهـر. بـدأت القوارب تمتلـئ بالجنود، وكان لكل ضـابط أبيضـ ثلاثين إلى أربعـين رجلاً بإمرته. لقد كان منظراً عظيماً أن ترى مائة من القوارب، تشـق سـطح الماء هابطة بانتظام أسـفل الماء تجاه المدينة المنكوبة. ولقد نجحنا في الإنزال وفي الاسـتيلاء على الجزء الأكبر من المدينة، ولم نكن قد أطلقنا طلقة واحدة. وبحلول العاشرة من مساء ذلك اليوم كنا قد حصنّا أنفسنا في الجزء الأعلى من المدينة. وانسحب الوجينيا فور إنزالنا وظلوا حتى تأكد لهم نجاحنا فوافقوا على الاسـتمرار في نقل أتباع المعسـكر من النساء والمتاع والأصدقاء. لقد تموضعنا في موقع لم نكن تماماً نحسد عليه، فلم نكن نسيطر على أي جزء من الضفة المعادية من اللوالابا، وخلفنا نهر عظيم، وبدون أيّ وسائل للتراجع، ودون إمكانية للحصول على تعزيزات أو تجهيزات جديدة من الذخيرة، أرسل ألبرت فريز في اليوم التالي بمعية مفرزة وبعض شعب لوتيته لمهاجمة المعسكر الـذي [172] شـكله مـوني بيمبـي (Muni Pembi) والذي كان مفترضـاً أن اثنين من أطفال هوديسـتر كانا سـجناء فيه على بعد مسـير بضع ساعات من نيانجوي. وبعد الزحف طوال الليل وسـط عاصفة، نجحت الحملة في إحضار طفلي هوديسـتر، وحريم مـوني بمبي، وكميات كبيرة من البارود، والأسـلحة، وغنائم أخرى. وصل مبعوث من سيف في كاسونجو، في الوقت عينه، بعروض للسـلام. وردّد دانيسـ أنه لا يمكن له أن يقدم أي شـروط فـي أيّ حال، حتى يعاد إلينا اثنان من أطفال لوتيته، واللذان يحتجزهما سيف كرهينتين، وبعدها سـينظر القائد فيما يمكن عمله. وكان المبعـوث، وهو الخادم الخاص لليبينز، والذي أصبح ومنذ وفاة سيده عبداً عربيًّا؛ لم يكن خائفاً من العودة إلى سيف، وبعـد مسـاءلته، قال بسـذاجة: «سـأكذب عليـه إن كان ذلك ضـرورياً، حتى

يرسلني إلى هنا في مهمة أخرى، وبعدها لن أعود إليه.» وهذا ما حدث فعلياً لاحقاً. جاء أصليون ذوو أشكال رائعة يقدمون خضوعهم للقائد. وكثير منهم كانوا رجالاً عرّفوا أنفسهم بأنهم جنود عرب [173] مهزومون، وكثير منهم كانوا زعماء بأتباع عديدين، لكنهم جميعاً كانت لديهم قصة واحدة جاهزة: «أنهم سيلقون بأسلحتهم، وسيكونون أتباعاً للرجل الأبيض.»

في التاسع من مارس، اكتشف أن نيانجوي قد اجتيحت على أيدي رجال مسلحين. ولقد كنت أتجول في بعض الحدائق عندما قابلت مئات من الناس متجمعين معاً. توتر رجالنا، واحتشدوا حولنا. وفجأة بدا كما لو أن المدينة بأسرها قد استيقظت في الوقت نفسه، وألقي القبض على بعض رجالنا وقتلوا على أيدي المسلمين [وردت المحمديّين]. أرسل القائد إلى لوتيته وأخبره أن هناك خيانة في المدينة. تخيل لوتيته، الذي كان معسكراً خارج الجزء الجنوبي منها، أنه لا بد من أن العرب قد وصلوا من الجانب الشمالي؛ ولذلك سار متبعاً ضفة النهر متجهاً شمالاً حتى وصل إلى خارج المدينة، وعندما، بدأ إطلاق منتظم للنار من الداخل قدم عبر المدينة باتجاه مقرنا، والتف مغافلاً المسلمين من الخلف. وعندما بدأ الهجوم، قاتل كل رجل، أبيض أو أسود، حيثما استقام. ولقد كان ذلك مفاجئاً إلى حدّ أنه لم تكن هناك [174] أيّ خطة عمل، وتوجب أن تمر ساعتان قبل أن نعرف بأي اتجاه كانت المعركة تسير. بعدها، وفي توافق متصل، بدا أن جماهير العدو بدأت تتكسر. واصلوا القتال في نقاط منفصلة فقط في الميادين، أو دافعوا عن البيوت المنفردة في أجزاء المدينة المختلفة. وبعد ساعة أو اثنتين من المرور بالشوارع، والاشتباك أحياناً بمعارك صغيرة، نُظّفت المدينة. كانت خسائرنا عظيمة، لكنها كادت تكون أكبر، والعديد من إصاباتنا أو إصابات قوات لوتيته سُبّبت بإطلاق النار العشوائي على بعض من رجالنا أنفسهم. أشعلت النار في المدينة في مواقع عدة، وأحرقت مئات المنازل في الليل. وفي اليوم التالي أرسلت القوة بمجملها بتعليمات لدفن الموتى،

أو بالأحـرى إلقائهم في النهر، حيـث تعذر التعامل معهم بطريقة أخرى. لكن الأمور سُـهلت لنا، فـي أيّ حال، حيث إنه لم يتم العثور إلا على بضـع مئات من الرؤوسـ بحيث أخذت كل الجثث كطعام. وأمر القائد عندها أن يحرق الجزء الأكبر مما تبقى من المدينة، [175] لأنه كان من الصعب لقوة صغيرة أن تبقي عدداً هائلاً من المباني تخضع للسيطرة، كما أننا كنا حذرين لئلا تنفجر موجة ثانيـة من الخيانة. يمكن القول بأن هـذه كانت الوقفة الأخيرة لجيش موهارا، حيث إن القليل ممن هربوا لم يكونوا منظمين. ولم نر أي شيء من لوتيته، ولقد علمـت منه لاحقاً، في أثناء الحديث عن الموضـوع، أنـه خلال تلك الأوقات لم يغادر مقره؛ لقد كانت المناظر في معسكره مريعة إلى حدّ أنه حتى هو لم يضع نفسه فـي موقع المراقب لها دون داع. قال لنا إن كل واحد من آكلي لحوم البشر قد حصـل على جثـة واحدة على الأقـل ليأكلها. ولقد طبـخ اللحم كله وجفف بالتدخين، وشـكل تموينـاً لمجمل قواته ولكل أتباع المعسكر لأيام بعدها. واختفى ضـارب طبل متطوع معنا، ولأيـام، وكنا اعتقدنا بأنه قتـل. وبعد يوم أو يومين اكتشف ميتاً في كوخ بقرب جثة جرى استهلاك نصفها-وكان من الواضح أنه أطعم نفسه بالكثير، ومات بالتخمة.

[176] وبـدأ الآن أسـوأ وقت عرفنـاه فـي أثناء الحملة. فلقد انتشـر نوع من الإنفلونزا الفتّاك فـي معسـكرنا. كانت هنـاك ثلاثون حالة فـي اليوم الأول، وبعدها في اليوم التالي كان هناك ما يقرب من سبعين، وقبل أن ينتهي الأسبوع خرّ رجالنا كلهم تقريباً ومن تبقّى بصـحة جيدة كان عليه الواجب مضـاعفاً، بحيث اسـتمر القيام بالحراسة، فضلاً عن رعاية المرضى. وأمضيت وقتي في الأسـبوعين اللاحقين فـي التنقل بين مجمل جنبات المعسـكر، والإصـرار على الأحيـاء أن يدفنـوا الموتى. فلقـد كان الجـزء الغالب من الموتى أو المشـارفين على الموت يُرمى بأيدي سـكنة الأكواخ خارجها فـي الشوارع المفتوحة. فـي هذا الوقت أيضـاً، بدأ العرب وأصدقاؤهم بإرسال حالات الجدري في المنطقة إلى

مـن تبقّى من المدينـة. ونجحت الحيلة، وتلا الإنفلونزا انتشـار وباء الجدري. وحول تفجر حالات الجدري خلال الحملة بمجملها كانت هناك حقائق مثيرة. فلقد كان الهوسـا كلهم فيما عدا حالة واحدة مطعّمين، ولم يصـب سـوى هذا الرجل في الكتيبة، ومات به. وفي كتيبة إلمينا (Elmina) لم يكن هناك سـوى رجلين غير مطعّمين، وأصيبا بالجدري، ومات أحدهما به. [177] وفيما يخص حمّالينـا من الكونغو الأدنى لم يكن إلا عدد قليل قد سـبقت أصـابته بالمرض، وبعضـهم فقط جـرى تطعيمهم. وبين هـذه المجموعة المكونة مـن مائتي رجل أصـيب ما يزيد عن ثلثيهم بالجدري، وحدثت بينهم خمس وستون حالة وفاة. وكانـت حالات الوفـاة من الجـدري والإنفلونزا بين شـعب لوتيته والأصـدقاء الآخرين مروّعة. ويعزى الكثير منها بسهولة إلى أنه وعلى الرغم من التعليمات المشدّدة بالعكس، فبعد اليوم الثالث من الحمى، وعندما يشعرون بأنهم أفضل حالاً، فإنهم يصـرون على الاستحمام. لقد تعلم المسـلمون والمانييما المحليون (Manyema) أن يتلقحوا ضد الجدري. وعلى الرغم من أن التلقيح قد أرسل إليّ مـن أوروبـا، برزم بمختلـف الطرق، فإنني لم أُلقِّح ولا فـي حالة واحدة وليتطـور اللقـاح لنهايته. ولقد كان ذلك من سـوء الطالع، لأنـه لو كانت لدينا حالة نجاح واحدة فقط، لتمكنا من تطعيم مجمل السكان.

الفصل الحادي عشر

وصول سفراء من سيف بعروض للسلام - القائد يؤخر زحفه على كاسونجو - إعادة تعزيز قوات الدولة الحرة - الزحف على كاسونجو: سقوطها - وصف أصناف الرفاه التي عثر عليها في المدينة - بقايا من أمين باشا - التمرد في مدينة نيانجوي المنتزعة

[178] بينما كنا في هذا المأزق أرسل سيف إلينا سفراء من كاسونجو، وأحضروا معهم ابن لوتيته وابنته، اللذين استبقاهم العرب كرهائن، وقدم عروضاً للسلام. وبعد الكثير من النقاش، وافق القائد بألا يزحف على كاسونجو لخمسة أيام، شرط أن يرسل له سيف كل حاجات ليبينز بما فيها خدمه الذين جرى استعبادهم. وخلال خمسة أيام عاد السفراء للظهور وبمعيتهم كل ما جرت المطالبة به، ومنح القائد كاسونجو [179] خمسة أيام أخرى من التأجيل، شرط حمل كل العاج الذي أخذ من ليبينز إلينا. والتزموا بذلك أيضاً، وأحضروا معهم هدية بما يقارب الثلاثين ناباً من العاج المُبهر، متضرّعين إلينا أن ننتظر أربعة أيام أو خمسة. أقر القائد توقفاً واستمع لتضرعاتهم، مبدياً ملاحظات عارضة أحياناً أنه ربما أراد سيف أن ينجز تحصينات كاسونجو. وقال إنه، ليس لديه اعتراض على ذلك، لأنه يرغب في أن يعلّم جنوده كيفية الاستيلاء على بلدة جيدة التحصين. ولقد كان ذلك مسليًّا على نحو كبير، بحيث إنه وخلال فترة استمرار المفاوضات، لم يكن لدينا أكثر من ثلاثين أو أربعين جندياً موجوداً بين أيدينا. وكان أوماري (Omari)، وهو جندي قديم لستانلي، السفير الأساس في هذه المسألة؛ ولقد أصر طوال تلك الأيام على أنه يحب الرجل الأبيض وأنه ينوي أن يلقي بحظه معنا، على أنه وحين أزف القتال مرة أخرى، انحاز لأعدائنا. تلقينا رسائل في الثالث والعشرين من مارس مرة أخرى تكرر بأن المفتش فيفه قد أمر معسكر باسوكو، ومدافع وخمسمائة رجل على الأقل [180]، بالزحف لدعمنا (وهو ما يؤكد ما سمعناه على الجانب الآخر من النهر)؛ وتبيّن الرسالة أيضاً أن القائد جيليا قادم لدعمنا بتعزيزات من لوسامبو، ويتوقع وصوله بعد يوم أو يومين من الرسالة.

أتحنا الفرصة ليوم أو يومين أفريقيين، والذي يعني عادة أسبوعين على الأقل ولم نبتعد كثيراً، لأنه حتى وإن وصل القائد جيليا في يوم الخامس من أبريل، فإن قافلته بمجملها لن تصل قبل يوم الثالث عشر منه، مما أعطى الفرص لأناسنا أن يتعافوا مما ألم بهم من مرض. في الرابع عشر من أبريل كنا على أهبة الاستعداد وبروح عالية، وبمعيتنا كميات كبيرة من الذخيرة والدعم مما جعل كل واحد يشعر بأن أياماً أفضل تُخبأ لنا. في اليوم السابع عشر أعطى القائد دانيس الأوامر بالزحف باتجاه كاسونجو، تاركين دو فوترز بمعية رقيب أبيض وخمسين رجلاً بإمرة نيانجوي، والتي تقلصت في خلال ستة أسابيع قصيرة من مدينة بنيت بشكل ممتاز يقطنها ثلاثون ألفاً من السكان إلى بيت كبير محصّن يحيط به الجنود. شكّل [181] القائد جيليا والملازم دوغم (Doorme) برجالهما الحرس المتقدم؛ وكنت أنا والقائد دانيس والملازم شيرلينك في القسم الرئيسي، وقام الرقيب سيركيل على المؤخرة. زحفنا ببطء، ولم يتأتّ لنا أن نرى منظر كاسونجو إلا في صباح اليوم الثاني والعشرين. كان القائد كما هي العادة حينما تكون هناك مهمة للإنجاز قد ترك القسم الأساس وأصبح في المقدمة بمراحل، حينما وقع تحت هجمات مناوشات سيف، والتي طاردها. في الوقت عينه هاجم دوغم حصن سعيد بن عبدي (Said-ben-a-Badi's). حمى هذا الحصن نهاية المدينة من حيث دخلنا، وبالكثير من حسن الحظ جرى الهجوم الأول الذي شنّه دوغم، على الرغم من أن رجاله لم يشتبكوا قطّ مع قوّات عربية من قبل. تابع بعدها الحامية المتراجعة عبر المدينة. بنيت كاسونجو في واد وعلى منحدرات التل على جانبي الوادي. عبر دوغم في هجومه الوادي، وظهر في الجانب المقابل من التل في الوقت نفسه الذي تم فيه نشر قواتنا. ولقد أربك ذلك حسابات المدافعين: فللوهلة الأولى، وبالنظر إلى كوننا قد ضللنا طريقنا، وصلنا بطريق ملتوية [182] بدل الطريق المستقيمة، وحططنا على كل دفاعاتهم بالمؤخرة. وبعد عشر دقائق من بدء القتال، ظهر دوغم على القسم الآخر من المدينة،

ونتيجة ذلك سقط العدو بين نارين. وبينما كنا نتقدم في متاهة الشوارع كان العرب خلفنا يتراجعون بانتظام، تعترض حركاتهم أعداد كبيرة من العبيد غير المسلحين وحشود من النساء والأطفال. وبعد فترة قصيرة أصيب الجمع من غير المسلحين بالهلع، ولدى محاولتهم الهروب نشروا المزيد من الفوضى بين صفوف العرب. لم نعطهم الفرصة لينظموا صفوفهم مجدداً، وخلال ساعة ونصف بتنا سادة كل النقاط الرئيسة والأمكنة المحصنة الأساسية في المدينة. وقام أتباعنا من القوات المساعدة وأتباع معسكرنا، وقد تحمّسوا للوضع، وقد أصبحوا شجعاناً للغاية، بمتابعة العرب المنسحبين في الأرض الخلاء - وهم يعلمون جيداً أن ليس هناك أسهل من إبقاء قوة منسحبة مستمرة في التراجع. وبالتراجع، تزايد الهلع أكثر، وغرقت أعداد هائلة وسط محاولتها عبور الأنهار التي تصادفها في طريقها. ولقد دفعت مجموعة كبيرة من الرجال على يد لوتيته [183] في اللوالابا، على بعد مسافة ثلاث ساعات. وهناك حُوصروا؛ وقام الوجينيا متظاهرين بأنهم سيعبرون بهم إلى الجانب الآخر من النهر، إما بنقلهم كأسرى وإما بإلقائهم من أسطح القوارب، وهكذا أبيدت القوة بكاملها، فيما عدا النساء والأطفال، الذين عانى الكثيرون منهم أيضاً.

وبعد ما تم بعد الهجوم خلال المدينة سرعان ما انفصلت الكتائب المختلفة، لكن القائد ومعه أربعة رجال، لم ينفصلوا عن بقية القوة بأكملها، وإنما أيضاً عن كتيبته نفسها. وبينما كان يحاول البحث عن رجاله كاد يصاب من برج المراقبة العائد لأحد أفضل البيوت في المدينة والذي كان من المفترض أن يكون خالياً؛ وعندما اقترب من الجدار الذي فيه فتحات للرمي بالرصاص لم يكد يتفادى محاولة قتله. وفي أيّ حال، فلقد استسلم الموقع بعد أن قدمت وبصحبتي دزينة من الرجال. وكان قد ألقي القبض للتوّ على خمسة من البيض العرب كأسرى، وأحدهم كما أعتقد كان تاجراً كبيراً في زنجبار، واسمه سعيد بن خلفان.

كانت كاسونجو مدينة أفضل كثيراً حتى من نيانجوي عاصمة العبيد العظيمة والقديمة. فحين حصار نيانجوي، التي كان الاستيلاء عليها متوقعاً بكثير أو بقليل [184] وجد السكان متسعاً من الوقت لحمل كل نفائسهم، وحتى الأثاث، إلى أماكن آمنة. في كاسونجو، في أيّ حال، كان الوضع مختلفاً. فلقد هاجمنا المدينة بشكل مفاجئ إلى حدّ أن كل شيء قد ترك في موقعه. وجدت قواتنا كلها تجهيزات جديدة، وحتى الجنود العاديون ناموا على حشايا من الحرير والساتان، على سرر مزخرفة بالحَفْر، وبشباك بعوض من الحرير. ولقد كانت الحجرة التي استوليت عليها بطول 80 قدماً وعرض 15 قدماً، وبباب يؤدي إلى حديقة برتقال، وبعدها يترامى منظر على مدى خمسة أميال. وكان من الصعب التصور عند الاستيقاظ صباحاً أنك في وسط أفريقيا، لكن نظرة على ثقوب الرصاص على الأبواب ومصاريع النوافذ، ولطخة حمراء غامقة على الحائط، تعيدك سريعاً إلى الواقع. نجد هنا الكثير من أساليب رفاه الأوروبيين، التي نسينا استعمالاتها طويلاً: الشموع، والسكر، وعلب الكبريت، والفضة والأقداح الزجاجية والدوارق: كلها كانت موجودة بوفرة. ولقد استولينا أيضاً على 25 طناً من العاج، وعلى عشرة أطنان إلى أحد عشر طنًّا من البارود، وعلى الملايين من الفتيل وعلى رصاص صنع لكل نوع من أنواع البنادق والمدافع والمسدسات على الإطلاق؛ وكانت هناك قنابل، وعلم ألماني، أخذه العرب في شرق أفريقيا الألمانية. [185] وكانت مخازن الحبوب في كل أنحاء المدينة ملآى بكميات هائلة من الأرز والقهوة والذرة الصفراء والأغذية الأخرى. وكانت الحدائق فخمة ومزروعة بشكل جيد: كان البرتقال الحلو والحامض، والجوافة والرمان والأناناس والموز كله متوافراً في كل منعطف.

وكانت أولى الزيارات التي قمنا بها والتي كانت محزنة أيضاً إلى البيت الذي أقام فيه ليبنز ودوبغون، أخوانا المسكينان من الضباط، واللذان عملا أحياناً كسفيرين في بلاط سيف. والغريب (على الرغم من أنهما قد قتلا

وقطّعا)، أنهما قد دفنا مقابل باب البيت الخارجي، وقد أقيم ضـريح صـغير مرتـب عليهما من قبل قتلتهما. وعند إخـراج رفاتهما من القبر، وبالنظر إلى طبيعة التربة التي دفنا فيها، فإنهما لم يتحللا. وقد أعدنا دفنهما بكل مظاهر الشرف العسكري.

أحضـر رجالنـا من ضـمن الغنائـم الأخرى مـن البنادق التـي تعبأ من المؤخـرة والمضـاعفة أنواعـاً مـن ذات العشـرة ثقـوب (ten-bore double breechloaders) والعشـرين ثقبـاً والاثني عشـر ثقباً وخمس عشـرة بندقية وينتشسـتر سـريعة الطلقات، وعدداً مماثلاً من الوينتشستر العادية. وعثروا علـى دزينـات مـن المارتينـي- [186] والسـريعة - وعلى عدد لا يحصـى من البنادق/المدافـع ذات الغطاء، وعلى ثلاثين أو أربعين سـاعة يد وسلاسـل من فضـة، وذهـب ونيكل؛ وعلى عدة من بقايا أمين باشـا، بما فيهـا مذكراته بين يناير وأكتوبر 1892، وعلى وسـامين - التاج الملكي لبروسـيا (Crown Royal of Prussia) وفرانسيز جوزيف من النمسا. وحتى أسرانا العرب قالوا إن أمين باشا كان أكثر الناس وداعة، ورأوه في أفريقيا. وقالوا إنه، وبحسب رواياتهم، لم يكـن هناك أي سـبب لقتله عدا قرار القيام بمذبحـة عامة للرجل الأبيض، وأنه صدف أن دخل منطقة قتل فيها كل الرجال البيض، فشاركهم مآلهم.

وتكوّن قطيع الحيوانات الذي عثرنا عليه في كاسـونجو من ثلاثة أنسال منفصـلة: قطيـع النوع الهندي - وهو بسـنام كبـير، ومسـتأنس للغاية - يدر أفضـل الحليـب، وإن كان الأكل هو المطلـوب، فإن النوع البرتغـالي المهجَّن ذا النـوع الطويـل القرون كان هو الأفضـل. ولم أتمكن من اكتشـاف من أين أتى النوع الثالث (weedy medium sized cattle) وهو نوع يعيش على الأعشـاب أو متوسـط الحجم بارتفاع الأعشاب ويكون أبيض اللون أو مبقعاً، وليس جيداً للتسـمين أو الأكل أو لإدرار الحليـب. كمـا أخذنا نسـلين جيدين من الحمير - [187] الحمار السوري الأبيض الضخم، والنوع المهجَّن بين هذا النوع والحمار

الصغير، والذي يشابه في مظهره حمار الفاكهاني المتجول في هذه المنطقة. ولم يظهر الحمار السوري على الرغم من كونه حيواناً جيداً، وفيما عدا استثناء واحداً أو استثناءين، أنه مفيد مثله مثل أي من النوعين الأخرين. وكان الهجين بين النوع العادي والحمار السوري قوياً للغاية، وعلى الرغم من أنه غالباً ما يكون حروناً، فإن من المؤكد أنه من الحيوانات الأكثر فائدة التي رأيتها في حياتي وسط نوعية الحمير. وكان العرب عندما يهربون، يقومون بإطلاق النار على الكثير من أفضل حميرهم وبعض القطعان، لمنعها من الوقوع في أيدينا حية.

حرصت في أثناء بقائي في كاسونجو على التعرّف على البلاد المحيطة، ولقد كنت مدهوشاً باستمرار من العمل الرائع الذي أنجزه العرب في الجوار. فلقد بنيت كاسونجو في زاوية غابة عذراء، وتمت إزالة كل الأشجار المقطوعة وغالبية الأشجار لأميال عدة. أما بعض الأشجار، مثل شجرة القطن البري الهائلة، فقد تركت على مسافات منتظمة، ربما كان ذلك كعلامات طريق أو للظل الذي كانت توفره، وهو ما لم يتضح لي. نمت في الغابة المزالة محاصيل [188] رائعة من قصب السكر والأرز والذرة الصفراء والفواكه؛ ولإعطاء فكرة عن مدى الغرس الذي تم فيمكن تخيله من واقعة أنني قد سرت راكباً في حقل أرز واحد لساعة ونصف. ولمّا كان يجري تجميع الناس لإقامة قرى في تلك البلاد، كانت تلك القرى تصبح مكتفية بعد مرور ثلاثة أشهر أو أربعة. كان الأرز يغلّ محصولين أو ثلاثة محاصيل بين زراعته في أكتوبر وبداية فصل الجفاف في مايو؛ وكان يمكن استهلاك الذرة الصفراء بعد ستة أسابيع أو سبعة، من زراعتها. ولقد أبعدت الطرائد من الجوار بالطبع - فيما عدا اللوالابا حيث كنت أذهب في حملات صغيرة إلى الصيد. كان يمكن صيد كل الطيور المائية والطرائد الصغيرة على ضفاف النهر بكميات - وبأعداد كبيرة خلال الفصل المطير؛ على الرغم من أنه في الكونغو الأسفل، كاساي (Kasai)، والأنهار الأخرى كان فصل الصيد الأفضل هو فصل الجفاف (من

مايو إلى أكتوبر)، عندما تكون الضفاف الرملية مكشوفة، وتكون المستنقعات والجداول بالداخل قد نشفت. وعلى اللوالابا، في أيّ حال، وحين يكون النهر واطئاً، فلا يكاد يرى المرء في يوم طويل من التجديف على القارب بطة برية أو بطة (duck or goose)، ولن ترى الطائر الخوّاض أبداً. أما أفراس النهر، فيندر وجودها لمئات الأمتار في أعلى الكاسونجو وأسفله، [189] وتكون شريرة، تهاجم باستمرار دون أن تستثار إما القوارب وإما الناس الذين يقتربون منها. ويخاف الأصليون من الأفراس هنا إلى حدٍّ كبير يصعب معه الحصول على طاقم للاقتراب من قطيع؛ ولن تكفي الآمال بالحصول على أكثر الكميات اللامحدودة من اللحم، حتى على الرجال الذين شهدوا رحلات صيد ناجحة. وكنت على الطريق من كاسونجو إلى نيانجوي، متوجهاً لزيارة دو فوترز - وهو ما اعتدت القيام به كلما سنحت الظروف لذلك - حين اصطدت أكبر فرس نهر رأيته في حياتي. لقد كان لمرأى أقدامه الأربع في الأفق وعلى بعد خمسين ياردة من القارب، وبدلاً من بث الطمأنينة في الطاقم، فقد أخافتهم إلى حدّ أنهم قفزوا جميعاً من السطح وسبحوا حتى الشاطئ. ولحسن الحظ، كان لديّ ثلاثة جنود أو أربعة، ومن خلالهم تمكنت من إردائه أرضاً. وبلغ ارتفاع أسنانه المعوجة، مقاساً بمسطرة محدّبة اثنتين وثلاثين بوصة، في حين أن ارتفاع إحدى أسنانه السفلية المستقيمة بلغ ثماني عشرة ونصف البوصة وكان قياس الآخر وكان مكسوراً أقل من ذلك قليلاً.

[190] وأفضل الطرق لقتل الفرس هو الدنو منه بالقارب بأقرب ما يكون مباشرة بعد إصابته. وبالتزود بقصبة نهر طويلة نسبيًّا وفي المياه العميقة، يمكن الاقتراب منه دون خطر، وبإيجاد حبل لربطه وهو لا يزال يصارع. وما لا يعرف عن فرس النهر أن سيقانه القصيرة وأرجله الصغيرة، بالمقارنة مع ضخامة جسمه الهائلة تجعل منه سبّاحاً غير ماهر؛ وفي الحقيقة أنه لا يستطيع أن يسبح إلاّ بإبقاء رأسه فوق سطح الماء حتى يتنفس أو ينظر نواحيه.

وتتمثل طريقته في التقدم بالنظر إلى حقيقة أنه يحتل ماء بوزن يقل عن وزنه، هو أن يركض إلى القاع. وأذكر أنني رأيت قطيعاً من الأفراس تحاول أن تجد طريقاً في الماء في جدول بعمق عشر قامات: وكم كانت مضحكة رؤية القفزات والتفجرات الحادثة عندما تطفو على السطح بعد كل غوصة - والتي كان قُضي الجزء الأكبر منها من أجل ملامسة القاع - دون أن تتقدم إلى ما يزيد على الأربع ياردات أو الخمس في الوقت كله.

وحدث في تلك المرة خلال زيارة نيانجوي في يوليو 1893 أن وجدت دو فوترز متموضعاً بشكل سيئ [191]. ففي داخل المدينة أقامت مجموعة صغيرة من الزعماء والأتباع العرب، الذين استسلموا وأقسموا على الولاء لنا. ولقد سبّب، من بين هؤلاء، وغدٌ يائس تبقى الكثير من المشاكل لدو فوترز. فبعد أعمال عديدة من التمرد والخيانات الصغيرة، تصاعدت الأوضاع إلى أن اكتشف المخلصون لدو فوترز مؤامرة رتبها علي لإبادة الحامية كلها في المستنقع والأعشاب الطويلة على بعد مائة ياردة من منزل دو فوترز. لقد نوى علي أن يضع رجاله - الذين يعدون من ثلاثمائة إلى أربعمائة في المدينة - قريباً من الحامية ومخفيين في الأعشاب، ورغب حين يصيح إنذار ما إن يغري دو فوترز وبعض رجاله نحو الشرك؛ ولقد عرف عن دوفوترز طريقته الحيوية في النظر في كل مسألة بنفسه. وعند سماعه عن الخطة، أرسل دو فوترز مترجمه سليماني منفرداً إلى معسكر علي، الذي يقع في نهاية المستنقع السابق ذكره. وتمثّلت مهمة سليماني في أن يبحث في المسألة، وأن يضغط على علي بواسطتها، بتوقع أنه إذا عرف علي بأن خطته قد اكتشفت، سيكون خائفاً [192] من تنفيذها. وما إن بدأ سليماني حتى ندم دو فوترز على إرساله منفرداً. وخوفاً من أن يحدس علي بأن يكون سليماني هو العالم الوحيد بخطته، فيقتله على الفور، قام دو فوترز بإرسال عريف بصحبة خمسة وعشرين من الهوسا في العشب خلفه. وحيث نشر الهوسا الأمر فيما بينهم بلغتهم (والتي لا

تعرفها حتى نساؤهم) انسلوا بين الأعشاب في مواقع عدة من المدينة، واختفوا وسطها تماماً، ليلتحقوا بالعريف واحداً واحداً في المستنقع، الذي تمكنوا من أن يقتربوا من معسكر علي، ودون أن ينكشفوا، لمسافة خمس وعشرين ياردة. وفي الوقت نفسه اقترب سليماني، الذي اصطحب معه صبيه فقط، من المعسكر عبر الطريق الرئيسي. وعندما اقترب سليماني لمسافة خمسين ياردة من المعسكر، صاح به علي أن يبقى حيثما هو وألا يدخل معسكره؛ وإن كانت لديه رسالة ليسلمها فسيقدم إليه علي بنفسه. وبعدها، وبدون أي إنذار أمر علي رجاله بإطلاق زخة رصاص على سليماني، الذي كان من الغريب ألا يصاب بأي أذى، على الرغم من مقتل صبيّه. فهم الهوسا على الفور الوضع، وهاجموا المعسكر [193] وأطلقوا زخات من الرصاص على مؤخرة قوة علي، الذين كانوا يتحركون لإلقاء القبض على سليماني. ولقد أوجد ذلك إرباكاً كبيراً وسطهم مكّن الهوسا من الثبات في مواقعهم مسلحين بحرابهم الطويلة حتى وصل دو فوترز وبقية القوة - وكانوا قد سمعوا إطلاق النار - وأرغم قوات علي على التراجع إلى اللوالابا. وتمكن علي نفسه وبعض رجاله من السباحة عبر النهر وبالتالي من الهرب. ثم بعد ذلك تمكن من لمّ مجموعة جديدة من الرجال، وهاجم قوة من أناسنا، ولكن ألقي القبض عليه، وأعدم بعد محاكمة عسكرية في الميدان.

الفصل الثاني عشر

استقرار قوات الدولة الحرة في كاسونجو
خرافات المواطنين: عاداتهم وطريقة عيشهم

[194] عندما بدأنا في تنظيم البلد بعد استقرارنا في كاسونجو، وجدنا أن من الأفضل أن نستعين بأولئك الأصليين وعبيد العرب الذين يمكنهم تعليم الآخرين. وهكذا وضع كل البنائين وصانعي القرميد والمزارعين والنجارين وصانعي السلاح والحدادين الذين عُثِر عليهم بين السجناء وضِعوا كمسؤولين عن الرجال النابهين بين المساجين وأولئك المتطوعين من القبائل المحلية، ووضِعوا للعمل، بهدف تشكيل مستوطنات، عندما يحين الوقت، في المقاطعات المناسبة لتلك الصناعات. بل إننا وظّفنا حتى صائدي الأفيال، الذين أُخذوا للقتال، وتركنا لهم أسلحتهم شرط أن يصطادوا لنا، وأن يعلّموا من يودّ أن يذهب معهم ماذا يتوجب عليه عمله. لقد كان صيادو الأفيال كثيري التطيّر [195] وكانوا يقضون أسبوعاً قبل أن يرتفع القمر الجديد «يصنعون الطب» للتأكد من نجاح حملتهم اللاحقة. ولذلك فلا يمكن إغراؤهم بالذهاب إلى الصيد إلاّ في النصف الثاني من القمر الجديد، وليس هناك من شيء يمكن إقناعهم به لبدء حملة (والتي عادة ما تستمر لشهر) في ظل أيّ ظروف. كانوا مسلحين ببنادق قديمة بعشرة ثقوب، ويرفضون استخدام الرصاص أو الحديد كطلقات، قائلين بأن النحاس هو أفضل القذائف. واعتدنا على شراء كل أساور النحاس والخلاخيل التي يمكن شراؤها من النسوة، ونعيد طرقها ككريات. ولقد كانت لدي دائماً شكوك، في أيّ حال، بأن النحاس الذي كان غالياً في طول البلاد وعرضها، اعتبر كشكل من أشكال النقد المقبولة. ولقد أسفت كثيراً لأنني لم أتمكن من مرافقة أيٍّ من تلك الرحلات. وكانت طريقتهم في الصيد هي أن يقيموا معسكراً في مقاطعة تكثر فيها الفيلة، والعبيد بالدرجة الأولى، لمراقبة قطيع من الفيلة ومتابعته. ويُرسل حينها إلى الصيّاد الأول، ترافقه دزينة أو ما يقارب ذلك من الرجال الأحرار، ولدى

اختياره لفيله، يقترب كثيراً [196] ويطلق رصاصة واحدة. فإن كان محظوظاً في قتل الحيوان، وهو نادراً ما يحدث، فإن الأمور تسهل، وإن لم يتمكن، فإنه يعود إلى المعسكر، ويقوم الباقي بتعقب الحيوان الجريح ليوم أو أسبوع، كما تقتضي الحاجة، حتى ينجحوا في قتله. نُعطَى الأنياب، وكانت مبيعات اللحم فقط تجعل من هؤلاء الصيادين الأغنى بين الناس في المقاطعة.

ولقد كنا حينها نصادف الكثير من المتاعب مع الأصليين إلى الغرب مما يجاور كاسونجو، والذين دأبوا على مهاجمة أصدقائنا، بل حتى أناسنا أنفسهم، ما إن يخرجوا بحثاً عن الطعام. لقد أوقفت أو فرقت القوافل من الأصليين الأصدقاء الذين كانوا يحملون الغذاء لبيعه في المدينة. وأرسل القائد الملازم دوغم والملازم الثاني سيركيل لمعاقبة هؤلاء، وأيضاً لاكتشاف النواحي. وبعد ست ساعات من المسير من كاسونجو دخلت الحملة غابة عذراء، جالت فيها لمدة أسبوع. لقد كانت النباتات السفلية منتشرة للغاية، لتشكل ما يشبه الجدار على جانب الطريق؛ وفي هذه الأدغال الكثيفة [197] قطعت الطرق المؤدية إلى الطريق العام بشكل عمودي، لتختفي بشجرة على كل جانب من التقاطع. ويقف الأصليون أنفسهم على جانب الطريق، وحين تمر القافلة (في رتل هندي، وبوجود مسافات طويلة بين الرجال أحياناً) فإنهم يقفزون عبر الطريق، ويمسكون بأول رجل يمكنهم القبض عليه، ويختفون معه وسط الأدغال الكثيفة على الجانب الآخر. وبهذه الشاكلة، وبدون أن يعرف أي واحد ما جرى، فإن كل الرجال المنتشرين سيقتلون. وفي مرات عدة أطلق المهاجمون النار من على الأشجار على بعد عشر ياردات إلى خمس عشرة ياردة من الطريق، ثم يهبطون فوراً، فيكونون آمنين من المتابعة بعد عشرة أدغال أو خمسة عشر، التي لا يمكن اختراقها بينهم وبين رجالنا. وكانت القرى في تلك المنطقة محصنة كلها، ومخفية عمليًّا بالغابة، والتي قطعت بكمية تكفي [198] لإيجاد فسحات للبناء فقط. ولقد أحرقت غالبية القرى قبل أن يصل دوغم.

وحين أقام بالمجموعة القليلة منها التي تمكن من مفاجأتها، تعرض طوال الليل إلى وابل من السهام، والرماح، والرصاص من الغابة المحيطة، وكان من غير المجدي الرد عليها. لكنه في أي حال، تمكّن من إلقاء القبض على ما بين عشرين أو ثلاثين أسيراً مهماً، وعاد إلى كاسونجو بعد أن قضى ربما أسوأ عشرة أيام في حياته.

ومن حين عبورنا اللوالابا كنا قلقين باستمرار من التطيُّر الذي يسميه المحليون والعرب بالـ «كيم - بوتو». ولم يكن الـ «كيم - بوتو» سوى عنكبوت واسع الانتشار. ولقد أحضر لي مرة واحداً منها لاختباره، وكانوا يقولون دائماً إن هذه الحشرة إذا عضّت أحداً فإن مآله الهزال والضعف حتى الموت بعدها. وعلى ذلك وبسبب هذا الاعتقاد، فكل حالات التسمم ومرض السل، بل حتى أي عارض مميت لا يرى جهلهم سبباً محدداً وراءه، بل كانوا يعزونه إلى «كيم -بوتو». ولقد كان هذا الاعتقاد قوياً، إلى حدّ أن أحد الأصليين قَدِم (بل وحتى بعض رجالنا أصابتهم عدوى هذا الاعتقاد الخرافي) واستقر ذهنه على أنه واقع بين مخالب الـ «كيم - بوتو» الشرير، وأنه بات من الناحية العملية مستحيلاً إنقاذه.

ويعتقد كل من العرب والأصليين المقيمين بكاسونجو وجوارها اعتقاداً قوياً في الأشباح. فقد كانوا يصدقون بأن أرواح الموتى لا تنتاب أماكن معينة فحسب، بل تنتاب أفراداً من الناس أيضاً، وأنه يمكن لإحدى أرواح الموتى هؤلاء أن تظهر لرجل حي وأن تناديه، وبعدها يضحي من المؤكد أنه سيموت. ولقد انتشر هذا المعتقد، وكما اكتشفنا، وسط رجالنا أنفسهم، إلى حد التأثير على بعض الرجال الأذكياء والمتعلمين والقادمين من الساحل، إلى حدّ أنهم يخافون من التحرك ليلاً. ولقد أتاني عدة أشخاص بقصص عن حوادث تجري فيها مناداتهم أو مهاجمتهم بكائن غير مرئي؛ وأذكر إحدى تلك الحوادث حين قدم جندي مع عريفه ألبرت فريز. بيّن هذا الرجل، أنه قريباً من المساء وبينما

كان يجلس بمعية ثلاثة أشخاص أو أربعة حول النار، فإن «شيئاً» لم يتمكن من رؤيته قدم من خلفه وصفع وجهه ولكم أذنيه. ولقد ودّ أن يعرف ما إذا كان يمكنني أن أنتزع [200] الروح لأجله، بحيث إنه إن لم أتمكن من ذلك، فإن موته مؤكد. وحين حاولت أن أخفف الأمر عليه بالتفكه من اعتقاده، متوقعاً أن يدعمني العريف، إلا أنه فاجأني بالرجاء ألا آخذ المسألة بمنحى الدعابة، مؤكداً لي أنه إن لم أقم بعمل شيء للرجل فإنه هالك لا محالة. وعلى الرغم من أنني استخدمت كل جدل يمكن أن يرد على البال، فإنني لم أتمكن من زعزعة اعتقادهما. ثم إن العريف، في أيّ حال، عاد ورجاني أن آخذ الأمر على محمل الجد، لأن الرجل كان قيّماً لنا وليس بمقدورنا تحمل فقدانه. عندها شرحت لهما أن ليس بمقدوري عمل شيء، وأخبرتهما أن يعودا لمناقشة الأمر بعد يومين. وفي المساء التالي استدعيت الرجل، الذي كان في حالة منهكة وبدا أنه ينازع. لقد كان مقتنعاً أنه سيموت حتماً، وهكذا مات في اليوم التالي. وعندما يقرر الرجل الأسود العادي بعقله أنه ميت، فهو حتماً يموت، ويستحيل تقريباً عمل أي شيء له. وأشير إلى ذلك كواحد من أمثلة عدة سجلتها في مفكرتي لحالات مشابهة.

[201] وفي كل من كاسونجو ونيانجوي أقيم في كل بيت كبير حمام أو أكثر، والذي كان بناؤه مبدعاً للغاية. يعلق في السقف جذع كبير مجوف أو قارب يثقب بثقب صغير في القاع ويحكم بسدادة حين لا يكون قيد الاستخدام. وحين يملأ بالماء، يشكّل حماماً برشاش مناسب جداً، ويمكن لستة جذوع حينما توضع جنباً إلى جنب في غور بالأرض أن تشكل منصة نظيفة للمستحم. ويسحب الماء عبر خندق، حيث يوضع جذع مجوف، يحتوي على الماء المستخدم وعبر جدار المنزل وإلى الخارج. ويضم كل بيت أو كوخ، مهما صغر، تحويطة صغيرة فيها ترتيبات النظافة نفسها، فيما عدا حمام برشاش. ولقد استحدث العرب صناعة الصابون، وبات يمكن في كل مؤسسة ضخمة أو سوق كبيرة

شراء صابون خشن لكنه مفيد. ويصنع هذا الصابون بخلط الأشنان ويحصل عليه عادة بعد حرق أوراق الموز وسيقانها مع زيت النخيل.

واحتللنا في الأشـهر القليلة الأولى [202] كاسـونجو، وكنا دائمي القلق بسـبب الحرائق المروّعة التي غالباً ما تحدث ليلاً. واكتشـفنا أن تلك الحرائق الواقعـة على المنطقة البعيدة من النهر سـببها أناسـ لوتيته، الذين دأبوا على عـادة إشـعال النار فـي البيوت كوسـيلة لطرد الفئـران، التي كانوا شـديدي الإعجاب بها كغذاء. ولقد أوقفت هذه العادة على يد لوتيته بطريقة مختصرة نوعـاً مـا. وبعدها، ظهرت حرائق من جانبنا من النهـر، وإذ بدا دائماً أن تلك النيران تشـتعل من مقراتنا نفسها باتجاه الريح، مما جعلنا نستنتج أنها كانت أعمال خيانة، واكتشـفنا أنها أعمال أناس منا في معسكرنا والذين كانوا على صـحبة مع العرب. وفي مرات عديدة بالـكاد تمكنا من الهروب، وقررنا بعدها أن نطيح بكل المنازل القائمة في جوارنا المباشر. وعندما تركنا محيطاً بعرض مائتـي ياردة حـول مقراتنا توقفـت النيران. ولقـد كانت أمراً مثـيراً مراقبة تصـرف رجالنا في تلك الأحداث. فمـا إن يطلق الإنذار، وأهرع خارجاً، حتى أجد نفسـي محوطاً على الفور بحرس متطوع مما يقرب من دزينة من الجنود المسـلحين [203]، الذيـن يرفضـون أن يتركـوني أقترب من الحشـد، أو حتى أتقـدم بأي اتجاه ليـاردة واحدة دون مرافقـة. وأعتقد أن الضـباط الآخرين يعاملـون، بالطريقة نفسـها. ولقد شـرح لي الرجال أن من السـهل طعن حتى الرجل الأبيض بسكين عندما يكون الوقت ظلاماً أو وسط حشد.

وأمضينا تلك الأشـهر وسط مصاعب عظيمة في توزيع وترتيب وتنظيم العدد الهائل من البشـر - الرجال منهم والنسـاء - الذين يعتبرون أنفسـهم كعبيد لنا والذين منذ أن طرد العرب، باتوا كالغنم من دون راع. كان يأتي يومياً الآلاف مـن عبيد العرب والأحرار من الأصـليين والعبيد الذين تتبعهم قطعان من النساء، والذين يسألون ما الذي يتوجب عليهم عمله. اخترنا الزعماء الأقل شـأناً، الذين لا يزالون قائمين (وفي الحالات التي قُتـل فيها الزعماء، أوجدنا

زعماء جداً)، وهم بدورهم، اختاروا، أناسهم. يقوم بعدها أحدنا ويقود هذا الجمع في البلاد المحيطة، وبعد أن نختار مكاناً مناسباً لهم، نعطي الأوامر بأن يبنوا قرية، ويبدؤون في الزراعة. وزوّدنا تلك [204] المستوطنات بالذرة والأرز والحبوب الأخرى؛ وكانت تلك الطريقة ناجحة جداً إلى حدّ أنه خلال ثلاثة أشهر إلى أربعة، باتوا يعتمدون على أنفسهم، وبعدها أخذوا يزودون قواتنا بالأغذية. وعلى بعد مسيرة ساعة تقريباً إلى الشمال من كاسونجو، وجدت بلاداً رائعة الثراء، بمساحات خلابة مقطوعة من الغابات وبموارد ماء جيدة. ولقد كثرت آثار القرى السابقة، وكم وددت لو أرعى مستعمرة مزدهرة في مقاطعة مواتية كتلك. ولقد قمت بتأسيس قرى لمرتين أو ثلاث مرات، وبالنتيجة الثابتة نفسها: كان السكان إما أنهم يقوّضون مساكنهم، ويقيمون سكناً في مناطق أخرى، أو يأتون إلينا في كاسونجو يتذمرون بصخب مطالبين بمقاطعة أخرى. يأتون قائلين، الفهود في جوارنا، باتت كثيرة وكبيرة للغاية وعنيفة، إلى حدّ أن أي رجل يخرج من كوخه بعد الخامسة مساءً أو قبل السابعة في الصباح كان يُفترس ويؤخذ من قبلها. ولم يبد قطّ أن لدى هؤلاء الناس العزم أو الطاقة، لصيد الفهود أو إيقاعها في الشرك.

وبينما كنت في كاسونجو مر سرب جراد باتجاه جنوبي وجنوبي شرقي، [205] واستمر في المرور عالياً لمدة شهر. وقال العرب والأصليون إن هذه هي المرة الأولى التي يرون فيها حشرة الجرادة. وكان من المثير البحث في واقع أن القسم الأكبر من حوض أفريقيا الشمالي كان واقعاً، بسبب الحرب، في حالة اضطراب لما يقرب من ثلاث سنوات. لقد كانت العادة لدى الأصليين في كل حوض الكونغو أن يحرقوا الأعشاب في فصل الجفاف؛ ولدى انشغالهم بالحرب فإنهم لم يواصلوا العمل بذلك؛ وللسبب نفسه، وبدون شك، فإن الدواب الأخرى مثل الفئران والثعابين، وبسبب هذه العادة، لم تسبب الطاعون قطّ فيما عدا مقاطعات الغابة. أليس من الممكن أن يرقات الجراد، وبسبب حرائق السهول، وفي ظل الظروف المعتادة لم يترك لها الوقت قطّ للوصول إلى حالة النضج؟

الفصل الثالث عشر

اتهام حليفنا جونجو لوتيته بالخيانة وإعدامه في نجاندو - وصول خمسة ضباط من أوروبا إلى كاسونجو - استمرار المواجهات مع العدو - رحيل العرب من مدينة ستانلي فولز، تاركينها تحت رحمة قوات الدولة - التحاق النقيب لوتيغ من البنجلا بقوات الدولة، ومطاردة العرب حتى النهر - بعد قتال مرير، تنظيف النهر من العرب وحشودهم حتى نيانجوي - تراجعات قوات الدولة - هجوم القائد دانيس على حصن روماليزا، على مسيرة ثماني ساعات من كاسونجو

[206] في الأسبوع الأخير من أغسطس بدأ القائد السير إلى نيانجوي من كاسونجو. وكانت الإشاعات قد سرت سابقاً لبعض الوقت آتية من مقاطعتي [207] ماليلا ولومامي، تظهر أن إدارة دوشين لم تكن ناجحة تماماً. كان الأصليون في حالة مشاكسة وعاصفة، وقد أرسل حليفنا جونجو لوتيته إلى عاصمته نجاندو لترتيب الأوضاع. وبما أنه لم يبد في الأفق أي حظ لعمل ناشط، وأيّ آفاق عاجلة لحملة على بحيرة تنجانيقا، فإنني قررت أن أتطوع لمقاطعة نجاندو، ولهذا القصد قررت النزول إلى نيانجوي للتحدث إلى القائد. وبينما كنت في نيانجوي وصلت المراسلات من دوشين بأنه قد اكتشف، وسط اتهامات أخرى، أن جونجو لوتيته كان خائناً، وأنه قد وضعه في السجن. كان هذا تصرفاً مغايراً للتوقعات، ولم نصدق بأي شكل الإشاعة القائلة بأن جونجو كان يتآمر لاغتيال القائد دانيس نفسه.

بدأت الرحيل في الساعة الخامسة من صباح الحادي عشر من سبتمبر مصطحباً معي اثني عشر رجلاً ومائتين من شعب لوتيته بقيادة زعيم صغير اسمه كيتينجي. استمرت مقابلتي مع القائد طوال الليل. وبعد ستة أيام من الزحف السريع، [208] بمعدل ثماني ساعات في اليوم، وفي أي حال أوصلتنا إلى نجاندو متأخرين لإنقاذ حليفنا الشجاع والمخلص، الذي أعدم قبل ثمان

وأربعـين سـاعة مـن وصـولنا. من المرجـح أنني كنـت أول من شـعر بتأثير هذه السياسـة الخاطئة. فبينما كنت على بعد يومين من اللومامي وبضـع ساعات من مقتـل جونجو لوتيتـه، فقد عرف الأصـليون كافة، وعبر اتصـالات من بعد عبر الطبـول، بما حدث في نجاندو، وإذ بات زعيمهم الأكبر ميتاً، اعتبروا أنفسـهم في حل لقتل أتباعه الخاصـين كافة وأكلهم والاسـتيلاء علـى مواقعه. وكان لدى تلك القبيلة على نحو التحديد سـبعة من رجال جونجو منظمين لقيادتهم، وكان واجبهم توجيه الاتصالات كافة بين اللوالابا والعاصمة نجاندو. وبعد ورود أخبار موت جونجو، هوجم هؤلاء الرجال، وقتلوا وأكلوا على أيدي سكان المدينة العائدة للزعيم ويمبي (Wembe). وإذ جمع ويمبي قواته معاً هاجم قواتي، معتقداً بأنها مجموعة من جنود لوتيته عائدين إلى بيوتهم؛ على أنه سـرعان ما انسـحب حين اكتشف بأني كنت حاضراً. في اليوم التالي [209] قدم بعض الرجال من العاصمة حاملـين معهم أخبار أن جونجو لوتيتـه قد قتله الرجل الأبيض؛ ولاحقاً في اليوم نفسـه، سمعنا أن الباكوسّـو (Bakussu) وإثر سماعهم بموت زعيمهم، هاجموا محطـة الدولة، وحاصـروها. ولم تكن تلـك الأخبار أبعد مـن أن تكون تطمينية، بحيث إنني قد قمت بزحف اضـطراري، آملاً أن أصـل قبل سـقوط المحطة. ثم سـمعنا لاحقاً وفي ذلك اليوم أيضـاً أن المحطة قد سـقطت. على أنني لم أصدق هذا التقرير، لأنه بدا من المسـتحيل ألا تسـتطيع الصمود لأسـبوع أو اثنين بأقل تقدير. وإذ اقتربت من نهر اللومامي، انتبهت أن دزينتي من الهوسا باتوا قريبين مني جداً. لقد أعطوا كل أشـيائهم ما عدا بنادقهم والذخائر لزوجاتهم لحملها، ولم يتركـوا أيًّا من ناسـ كيتينجي أن يقتربوا مني لثلاثين يـاردة: وقد كان ذلك احترازاً عديم الفائدة. وحتى بافتراض سـقوط المحطة، وإن حشـدنا للحظة قوة شـعب جونجو معنـا، فإن موقفنا - بوجودنا على بعد سـتة أيـام من الدعم بات ميؤوسـاً منـه إطلاقـاً. كان هذا [210] مثـلاً آخر على ما لاحظتـه في كثير من الأحيان، أن الهوسـا كانوا مسـتعدين دوماً للمضـي قدماً حتى الموت (meant to die game) وللالتصاق بقادتهم البيض ما داموا قادرين على الوقوف.

ولدى الالتفاف على التلال إلى الجانب الشرقي من اللومامي، سعدت حين رأيت، وبمساعدة منظاري المقرِّب، علم الدولة لا يزال يخفق على بعد ثلاثة أميال عبر الوادي. ولدى الوصول إلى المحطة، بدا واضحاً سبب الإشاعات المقلقة التي وصلتني. فإن كل سكان نجاندو والمقاطعات المحيطة (وقد حرموا من زعيمهم كما آلت الأمور) انقسموا إلى زمر، كل زمرة تقاتل الأخرى فيما بينها، وتهاجم مقرات بعضها البعض، ويقومون بقتل كل من يصادفهم. وربما أطلقت بعض الطلقات على محطة الدولة، من قبل بعض السكارى أو من رجال في حالة هيجان قتالي.

وخلال عشرة أيام تلت وصولي، أدى التصرف العدائي للضباط البيض والفوضى التي ضربت أطنابها في المقاطعة لتكون وضعيتي في حالة لا بد من أن أكون محسوداً عليها؛ ولقد كنت سعيداً جداً عندما وصل، وبعد عشرة أيام، القائد جيليا ليجري تحقيقاً. [211] رتب القائد وضعه في المدينة، على بعد ميل من المحطة (حيث بقَيْت)، وسرعان ما نصّبنا لوبونجو مكان والده، واعتُرف بسلطته كاملة.

لقد حافظ جونجو لوتيته على عهده معنا، وقد كان لعنايته ولعزمه الأثر الكبير لنجاحنا في المرحلة الأولى من الحملة. ولقد أصبح أكثر من نصف دائرة مواصلتنا بإمرته، ونجح كل شيء أوكلت إليه المحافظة عليه إلى حدّ أننا لم نفقد حتى حِملاً واحداً. وبعد سيطرتنا على ماليلا وسامبا (Samba) حافظ لنا عليهما، وأسس اتصالات منتظمة بين نيانجوي ولوسامبو. وكانت الرسائل والأحمال كافة تسلم ببساطة إليه، وحتى بدون أن يرافقها رجل واحد من عندنا، ودائماً ما أوصلت بسلام إلى مستقرها. أما فيما يتعلق به فإن شيئاً واحداً يجب ألاّ ينسى: فحينما انفجرت الحرب كان العرب يحتفظون باثنين من أطفاله - ولد وبنت - كرهائن. وحين ألقى بحظوظه معنا كان قد فكّر في أنه لربما لن يأمل أبداً برؤيتهما ثانية [212]. لكن القائد افتداهما، كما يُتذكّر،

من سـيف، لقاء تأخير هجومنا على كاسـونجو لخمسـة أيام. وعندما وصـل طفلاه وقدّما إليه سـرى فرحـه المؤثر على كل من كان حاضـراً. وعلى الرغم من أن هذا كان ابنه الأكبر فإن لوتيته لم يكن، لوجود الابن لخمس سنوات مع العرب، ليجعله خليفة له، ثبّت ثاني أبنائه، لوبونجو، وريثاً له، وأرسـله ليعيش معنا في المحطة لكي يتعلم على أيدينا. وبعد المحاكمة العسكرية، عندما أخبر المسـكين جونجو بأنه سـيعدم في الساعة الثامنة صباحاً، عيّن لوبونجو خليفة له، وعندما ترك في زنزانته شنق نفسه بحبل جدله من جزء من ثيابه لتفادي ذل الإعدام العلني. لكنه ولسـوء الحظ، اكتشـف قبل أن تفارقه الحياة، فقطع الحبل عنه وأنعش، وما إن تراجع بشكل كاف حتى اقتيد إلى الخارج وأعدم.

وبنـاء على اقتراح دانيسـ فإنه أرخى من نظامـه، وعفا عن كثيرين من مرتكبي الجرائم، الذين وقبل تحالفه معنا، كانوا سـيقدمون للآخرين كطعام [213] - إلى حـدّ أن سـلطته كانت أحياناً فـي خطر، وتوجـب علينا أن نتدخل باسـمه. وكانت فكرته الأكبر أنه سـيزور أوروبا، وقبـل وفاته أجرى الترتيبات لإرسال ابنه الأكبر نزيجي (N'zigi) إلى أوروبا لإزالة ما علق به من آثار سيئة من التعاليم. ويوجد الولد الآن بمدرسة في بلجيكا.

لقـد كان العمـل في ذلك الشـهر هو الأصـعب إبان الحملـة - إذ كانت هناك مناقشـات لتُجرى، وقضـايا لتحاكم، والكثير من التنقل في الجوار بين المدينة والمحطة، وبأسـرع ما يستطيع حماري حملي (اثنان رائعان، أحضرهما العرب من مسـقط إلى البلاد). وبدا أن رؤية الرجل الأبيض راكباً مصـدر لا ينفذ لاسـتثارة اهتمام أصـليي المقاطعة، والذين نادراً ما رأوا شـيئاً مشابهاً. وفي إحـدى المرات، كما أذكر، كنت ماراً بسـرعة فـي موقع مفتوح في المدينة، وصـادف أن كانـت هنـاك حملتـان كبيرتان قادمتـان للتو من غـزوة، فجرى ترتيبهما وشـكلا طابوراً لرؤيتي ماراً بهما. سـرت بدون حراسة، حتى لا يبدو علـيّ أنني أخـاف منهم، [214] وكنت أركب دوماً بأسـرع ما يكـون بحيث إنه

إذا ما ركب أي متذمر رأسه، لإطلاق النار أو رمي رمح، فإنني من المرجح لن أصاب. وإذ كنت على وشك أن أرد تحية المسؤول صدف أن وضع حماري حافره في حفرة، لينقلب بالكامل، وليقذف بي طائراً في الهواء. وإذ لحظ الصبي العامل معي، الذي كان يحمل مسدساً احتياطياً، أن الكل قد غرق في الضحك على ما حل من ارتباك، أفرغ سلاحه في وجوههم، مما جعلهم يفرون جميعاً، إلا أنه ولحسن الحظ لم يصب أحد. ولقد لاحظت بعدها أنه في مرات ركوبي اللاحقة يسارع كل شخص للابتعاد عني، تحت وازع وجود عمل لديه إما داخل البيوت وإما خلف الأشجار.

وإذ أخذت الأمور منحاها نحو الهدوء، وصل خمسة ضباط من أوروبا وتقدموا للالتحاق بالقائد في كاسونجو، حيث كان من المقرر أن يعد لهجوم على روماليزا الذي ترك أوجيجي (Ujiji) وعَبر تنجانيقا وأقام نفسه مع سيف وما تبقى من قواته في كابامباري (Kapambari). وخلال الشهر السابق، حدثت بالأحرى تحركات مهمة إلى الشمال [215]. ففي مارس 1893، وبأمر من مفتش الدولة فيفيه، فقد أمر النقيب تشالته، قائد الموقع العسكري في باسوكو بأن يلتحق بنا وبمعيته كل قواته في سدة الحرب. ولقد كان في وضعية جيدة على نحو خاص لإسداء كل دعم لنا، بحيث إن معسكر باسوكو قد أسسته الدولة الحرة كاحتياط في حال حدوث أي نزاع مع العرب في ستانلي فولز. فقام بمساعدة مركبيه البخاريين بالصعود إلى أعلى اللومامي، واحتل الموقع العربي السابق في بِينا كامبا (Bena Kamba). ولا تبتعد عنه في هذه النقطة إلا مسيرة ثلاثة أيام عن المدينة العربية الكبيرة في ريبا ريبا (Riba Riba) على اللوالابا؛ إلاّ أنه وبسبب رداءة الطقس فقد جرى تأخيره، ولمّا وصل إلى ريبا ريبا كانت المدينة قد أُحرقت وهجرها الأصليون. وكان ميسيريرا (Miserera) وبوانا لويزي (Boina Loisi)، الحاكمان من قبل العرب، قد تركا المدينة بقواتهما قبل ذلك بفترة من الزمن، وكانا في تلك الفترة يقاتلاننا

في نيانجوي. عاد تشالته من باسوكو، حيث إن وباء الجدري قد تفشّى في قافلته. ووصل ستانلي فولز (المساقط) في الثامن عشر من مايو، حيث كان النقيب توبَك (Tobback) والملازم فان لينت (Van Lint) يقاومان وعلى مدى خمسة أيام هجمات العرب [216] بقيادة راشد/رشيد، الحاكم الثائر وضابط الدولة في ستانلي فولز. ولدى هبوط القوات من باسوكو في ستانلي فولز، انسحب العرب، تاركين المدينة بكل ثرائها، تحت رحمة قوات الدولة. وبعد ذلك ظلّ كل شيء هادئاً حتى الخامس والعشرين من يونيو 1893، عندما وصل القائد بونتييه (Ponthier) إلى المساقط من أوروبا. فجمع على الفور كل القوات التي يمكن جمعها، وأخذ معه القائد لوتيغ (Lothaire) وبعض رجال البنجلا معه، وتابع العرب الذين هربوا من المساقط باتجاه أعلى النهر. وبعد قليل من القتال الشرس والكثير من المناوشات، نظّف النهر والجوار من العرب وجماعاتهم حتى نيانجوي، حيث وصل بعد يوم من مغادرتي إلى نجاندو.

وفي الوقت نفسه كنا في نجاندو قد وصلتنا تعليمات عدة من الجبهة في آن والتي يمكن تلخيصها في التالي: إن الهجمات على حصون روماليزا قد فشلت؛ وأنه وخلال أسبوعين من القتال الشرس فإن القائد بونتييه قد قتل؛ وأن التموين من الذخائر قد أوشك تقريباً على النفاد. وانتقل [217] زعيم مساعد قوي، اسمه كيتومبا مويا (Kitumba Moya)، بعد نصف ساعة من إعدام جونجو، إلى العرب وبمعيته ستمائة بندقية. ولقد اتبع مَثَلَه بالطبع العديد من الآخرين. وتوجب علينا، بحسب التعليمات، أن نلتحق وبأسرع وقت بالصفوف، آخذين معنا كل الذخائر والرجال. وكانت آخر التعليمات قد وصلت بعد عشرة أيام من إصدارها، وبذلك وبكل التوقعات الإنسانية سنكون متأخرين. بدأنا في الرابع من نوفمبر، كنا أربعة ضباط، من بينهم اثنان: القائد جيليا والملازم أوجستين (Augustin) - توجب نقلهما على الشباك المحمولة. وتكونت قوتنا من خمسين جندياً، وكان كل ما تبقّى من قوات جونجو لوتيته - ألف جندي جرى تسليحهم بما توافر لدينا.

كانت تلك أكثر الأوقات تطلباً، وأحياناً فقدت الأمل في أن أوصل الضابطين المريضين حيَّين إلى كاسونجو. كانت لدينا مشاكل لا حصر لها، ومن بينها محاولة إبقاء شعب جونجو وزعمائهم الأقل شأناً (والذين باتوا من دون قائد) خاضعين للسيطرة. لقد ثبت في ذهنهم أنهم أحرار في نهب البلاد التي كنا نمر بها بمجملها [218]، تحت الشعور بأنني لست قوياً بدرجة كافية لإنفاذ أوامري بالعكس. ووصلنا إلى كاسونجو في الرابع عشر من نوفمبر لنكتشف أنه، وفي اليوم السابق، كان العرب قد هجروا بوماتهم أو حصونهم الخشبية وبدأوا ما بدا أنه تراجع إلى الشرق. وهذا ما جرى:

في الثالث عشر من أكتوبر عام 1893، وحين لم يتبقَّ شك في أن روماليزا قد أقام معسكراً بما لا يبعد من مسيرة ثماني ساعات من كاسونجو، فإن قوات الدولة بقيادة البارون دانيس، بدأت التقدم إزاء هذا العدو الجديد. وقسمت القوات على النحو التالي: الاحتياط الأول بقيادة القائد دانيس، والاحتياط الثاني بقيادة بونتيي؛ ووضعت ست كتائب بقيادة الملازمين لونج (Lange) ودوغم وأمبورسا (Hambursin)، والعرفاء كوليه (Collet) وفان غِيل (Van Riel)؛ وتشكلت القوة بمجملها من النظاميين وعددهم أربعمائة رجل، ومدفع كروب قياس 7.5، الذي كان له في حوزتنا أربع وأربعون قذيفة فقط، وتبقت لدينا اثنتا عشرة طلقة من القنابل الصوتية (rounds of canister)[43]. ورافقت ذلك قوات غير نظامية مسلحة ببنادق ذات كمامة، تقدر بثلاثمائة بندقية. وتحركت القوة في أول عشرة أميال من السير [219] باتجاه قرية بياني مينجي (Piani Mayenge). وأدى السير لاثني عشر ميلاً إضافية في اليوم التالي لقدوم التشكيل من موانا مكونجا (Mwana Mkwanga)، وحيث يفترض بأن العدو قد بات على مسافة ساعتي سير. وفي الخامس عشر من أكتوبر، وبوجود القوات المساعدة تستكشف على المقدمة، بدأ التشكيل السير

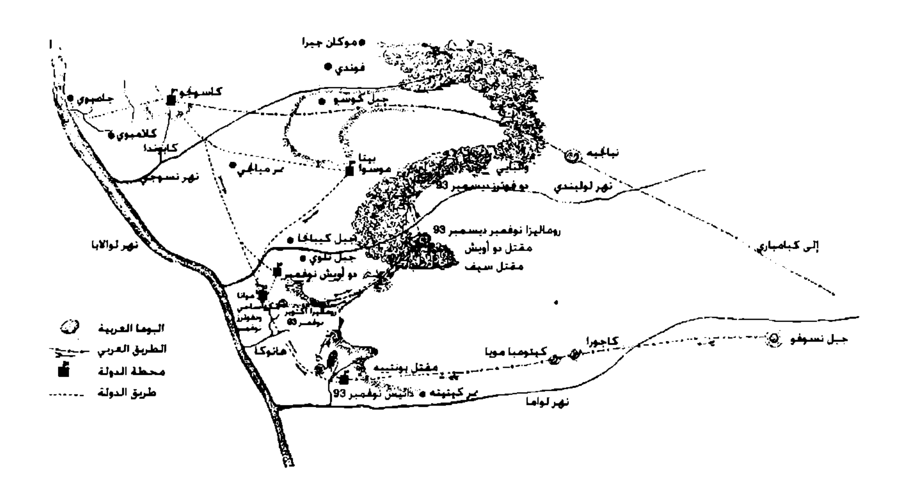
43 - قد يعني ذلك أيضاً كمية رصاص مضغوطة في وعاء ويستخدم المدفع في إطلاقها (http://www.answers.com/canister) (المترجم).

بنيّة الاستيلاء على موقع في مؤخرة المواقع العربية؛ وكان العدو قد أقام عدة حصون، اثنان منها وقعا بين اللوليندي (Lulindi) واللواما (Luama) - وهما فرعان من اللوالابا - وكانت حصوناً كبيرة، مبنية بشكل رائع، ومحمية بشكل جيد. وعلمتنا التجربة أن الحصون العربية تكون عادة ضعيفة فيما يعتبرونه المؤخرة، وكان القائد يود بالإضافة إلى ذلك، أن يكون على خط العدو الطبيعي للانسحاب في حال كان الهجوم ناجحاً. وعلى الرغم من الدروس القاسية التي كلناها لهم، فقد بدا أن العرب غير قادرين على فهم حقيقة أننا لن نكون في وارد الانعطاف قبل أن نهاجم.

وإذ تمكنا من لَيّ جناح العدو في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر اقترب التشكيل من حصن كبير، تخفيه الأعشاب الطويلة، [220] ولا يظهر حتى نقترب على مسافة ربع ميل من العدو. وإذ تشكّل خط القتال، تقدمت كتيبتي دوغم ولونج ببطء في مناوشات، وكانت إشارة الهجوم إطلاق قذيفة على الحصن. تقدمت القوات حتى مسافة عشرين ياردة من البوما دون إطلاق رصاصة، إذ إن نار العدو لم تكن لتسبب أي ضرر مادي. على أن نار العدو تزايدت حدتها إلى درجة أن الهجوم أوقف، وأخذ الرجال في تبادل إطلاق النيران. وصلت التعزيزات للتو، وانبطح الرجال على بعد ياردات قليلة من القلعة. ومضى وقت غير قليل قبل أن يتمكن الضباط من إسكات نيران الرجال. ولحسن الحظ فإن كوى العدو لإطلاق النيران كانت قد بنيت بزاوية بحيث إن أضحى رجالنا تحت خط النار، وإذا ما أراد العدو أن يتأكد من تحقيق إطلاق نار مؤثر، توجب على أفراده إبراز أنفسهم من أعالي موانعهم الأرضية. أصيب الملازم لونج بجرح بالغ في الدقائق الأولى من معركته الأولى، لكنه واصل في توجيه كتيبته حتى نهاية اليوم. وعلى الرغم من الجهد الجريء للقائد والضباط، فإنه بدا [221] مستحيلاً إقناع الرجال بأن يتسلقوا الموانع باتجاه القلعة في وجه نيران مستمرة بشكل ثابت. أحضر المدفع إلى الأعلى،

فـــي محاولــة لإيقاف نيران العدو بقنابـل صــوتية (with canister)؛ على أن العديد من الحمالين العاملين على حبال الســحب قد أصــيبوا إلى حدّ أن عمّت الفوضــى، فتحركوا بشكل سريع، تاركين المدفع وسط نيران كثيفة. قام القائد بونتييه وأمبورســا وكوليه بســحب المدفع إلى الموقع المناســب تقريباً بأنفسهم، وبالدعم الذي وصــل في الوقت المناســب وقدمه دوغم وبضعة من رجاله ثُبّت المدفع في مكانه على بعد مائة ياردة من الحصن. وهكذا وبحماية من النيران الفاعلة لتلك القطعة، سُــحِب الرجال من تحت جدران الحصن بخسارة قليلة نســبيًّا. وفي تلــك اللحظة على وجه التحديد ظهر قســم كبير مــن قوات العدو على الجناح الأيمن، وقد خرجوا من حصـــن أكبر بكثير، لكن الأدغال أخفتهم إلى حدّ أنه وحتى حين انكشــفت قواتهم لم يلحظ أحد وجودهم. واجه القســم الأكــبر من القــوات هذا العدو الجديد تاركين القليل مــن القوات الكافية أمام الحصن رقم 1 لإيقاف أيّ محاولة للقيام بهجمة مفاجئة يمكن القيام بها ضد الحامية. ولقد واجه القســم الأكبر أوقاتاً أفضــل الآن [222] بظهور العدو إلى الفلاة، وســرعان ما أرغموهم على العودة إلى ملجئهم، وكانت عودتهم أسرع كثيراً من تقدمهم. ولقد تم اختيار هضــبة صــغيرة على بعد ميل من الحصن الأكبر ونصــف ميل من الحصن الأصــغر، وفيما عدا مناوشة في الصباح مر الليــل بهدوء. وبعد قدر كبير من الاستكشـــاف، عثر القائــد بونتييه على موقع أفضل بالنسبة إلى المعسكر وأقرب إلى الحصون. وفي أثناء غيابه أرغم دوغم العدو على التقهقر الى الداخل - وكان قد ظهر من الحصـــن الأصغر لمهاجمة مدفع الكروب - مبقياً، في الوقت عينه، الحصـــن الأكبر هادئاً ببضع قذائف. ومــا إن بــدأت القــوات في التمركــز في مواقع، قبــل أن تقيم معســكراً، حتى هاجمها العدو من جميع الجهات، على أنه سرعان ما تم احتلال الموقع الجديد مباشرة ورتبت حماية للرجال، فانسحب العدو إلى حصونه. وخلال اليومين أو الثلاثة أيام التالية صُــدت عدة هجمات صغيرة على المعسكر، وقُذفت القنابل المتبقية وسط الحصون.

التحق بنا النقيب دو فوترز، في الوقت عينه، من كاسونجو بسبعين رجلاً، تاركاً ملازماً ألمانياً [223] حديث السن يدعى ميركوس (Mercus)، وبمعيته عشرون رجلاً والمرضى، كحرس في كاسونجو. وبعد بضعة أيام، أرسل القائد أمراً لميركوس يطلب فيه إرسال كل طلقة يمكنه الاستغناء عنها عبر نهري اللوالابا واللواما، وبعدها إلى معسكره عبر المؤخرة، حيث إن القوات العربية كانت بينه وبين كاسونجو. وكان قلقه الأكبر، بعد يومين آخرين، عندما رأى ميركوس بنفسه قادماً مع الذخائر، تاركاً كاسونجو دون حماية على الإطلاق، وهو يعرف، أنه بواسطة الطبول والجواسيس، فإن روماليزا سيكون مطلعاً على الفور على الموقف!



انطلق دو فوترز على الفور بمفرزة، آملاً في أن يتمكن من أن يقوم بين روماليزا وكاسونجو قبل فوات الأوان. وبالامتنان لإعصار مروّع، الذي أوقف العرب وحال دون أن ينالوا من دو فوترز، الذي عرف أنها مسألة حياة أو موت، تمكن من الوصول قبلهم إلى الطريق، وبالالتفاف، هاجمهم في المقدمة. وإذ وجد العرب أنفسهم مُناوراً عليهم، تراجعوا إلى حصنهم،

وتخندق دو فوترز في الموقع الذي استولى عليه. وأقام دو أويش، والذي وصل بعد بضعة أيام [224]، في موقع إلى الشرق من دو فوترز. وكما سيرى من الشكل المرفق، فإن العرب قد وُجدوا في موقع غريب - فالقائد دانيس يقطع عليهم مؤخرتهم، ودو فوترز ودو أويش على كل جانب من حصنهم المتقدم، ثم هناك الجبال القاحلة التي لا يمكن الوصول إليها من الشرق. كان السهل في جوار دو فوترز ودو أويش، ومن هناك إلى كاسونجو مزروعاً - حقولاً هائلة من الأرز، ومحصول لسان الحمل (plantain)[44]، والكسادا أو الكسافا[45]، وكلها ناضجة وجاهزة للاستهلاك، وبذلك كانت لدى قواتنا الوفرة للأكل؛ في حين أن العرب لا يمكنهم سوى الاعتماد على تمويناتهم القادمة عبر قطاع ضيق بين حصونهم واللوالابا. ولقد حدثت المناوشات التي جرت في العشرة أيام الأخيرة بأجمعها تقريباً في هذه المنطقة، ولقد قطع الطريق على العديد من القوات العربية المقاتلة[46]. وحيث أخذ عبيد العرب - الذين كان من المتوقع بالطبع أن يستشعروا بأثر المجاعة أولاً - في الموت من الجوع، فإن روماليزا قام بهجوم كبير على موقع دانيس، وكاد يكتسحه. وفي إحدى المرات نجح فعلياً في احتلال قسم من المعسكر، وهنا قتل الشجاع بونتييه.

[225] لقد طُوِّق النقيب دوغم، وقد كان قسمه من المعسكر هو الذي هوجم، وحين رأى بونتييه الموقف من على بعد، نادى على دزينة من الرجال كانوا واقفين بقربه ليلتحقوا به، وكان غليونه في فمه ولم يكن معه حتى مسدس بيده.

---

44 - نبتة عشبية مدارية كبيرة تشبه الشجرة (*Musa paradisiaca*) في جنوب شرق آسيا، وتشبه الموز وتأتي بثمر مشابه له. يستخدم كغذاء معيشي في المناطق المدارية (http://www.answers.com/plantain) (المترجم).

45 - نبات يزرع لاستهلاك جذوره (http://www.thefreedictionary.com/Cassada) (المترجم).

46 - النص هنا غير واضح (Arab foraging parties) لربما قصد بالجملة: الجماعات العربية التي كانت تحاول الحصول على غذاء أو علف للماشية (224) (المترجم).

وحاول العدو أن يلقي عليه القبض حيّاً، وإذ خافوا أن يفشلوا أطلقوا عليه النار. ولقد قاوم لمدة ثلاثة أيام أو أربعة، ثم دفن تحت خيمته، التي تركت قائمة، والغذاء يحمل إليها بانتظام، ووضع حرس سرّي على خيمته. ولقد كان لمعنويات قوتنا أن تعاني لو علموا بمقتل قائد مهم كهذا، وبالقدر نفسه سيبتهج روماليزا.

وبعد خمس ساعات من القتال رُد العرب على طول الخط، وقاد القائد دانيس الهجوم الأخير والأنجح في ذلك اليوم حتى شارف على بوابات روماليزا. وبمراجعة وضعيتنا في ذلك المساء، وجدنا أنها باعثة على الأسى؛ فبالإضافة إلى العدد الكبير من القتلى والجرحى، لم يتبقّ سوى أربعين طلقة لكل فرد من القوات النظامية، ولم يعد هناك أي بارود أو [226] قبعات للقوات المساعدة والصديقة. وما كان أسوأ، أنه لم يكن متوقعاً أن تصل إلينا تموينات من نجاندو قبل أقل من أسبوعين. على أن العرب أيضاً قد قاتلوا لوقت طويل، وظلّوا هادئين في بوماتهم لأيام أخرى. وأخبرنا الجواسيس بأن العرب يتوقعون قافلة من أوجيجي، محملة بالبارود والتموينات الأخرى، فأرسلت فرقاً صغيرة لمعرفة موقعها. وإذ فاجأها زعيم إحدى القوات المساعدة، وفرض عليها التراجع، وقعت بين يدي العريف ألبرت فريز، الذي كان خارجاً في الجوار نفسه، فقامت القوتان بتقطيعها إرباً. ودخل ألبرت المعسكر ذلك المساء مفتخراً وبمعيته ما يزيد على الطنين ونصف الطن من البارود الألماني الرائع و60 ألف كمامة، والتي وزع القسم الأكبر منها على الفور للقوات المساعدة والصديقة. وقام هؤلاء، في الليل والنهار، بالطواف في الجوار، ومهاجمة أيّ قطعات صغيرة يجازف العدو بإنفاذها خارج تحصيناته للبحث عن الطعام. في تلك الأوقات اختار النقيب دوغم أعداداً من الأصليين وعبيد العرب من بين الأسرى، ودرّبهم، [227] كجنود وبنتائج ناجحة جداً. ولقد قاد مائة منهم بنفسه في القتال الذي نشب لاحقاً. ولقد طرأت عليه الفكرة بشكل فردي تقريباً. فلقد كان يعترض بشدة على كتابة التقارير، وإن قتل أحد رجاله في

الكتيبة فقد كان يرفع مقتله، ويملأ موقعه في الحال بأحد هؤلاء المجندين ويعطي المجند اسم القتيل ورقمه وبندقيته وتجهيزه. ولم يكتشف ذلك لوقت طويل حتى كان القائد في أحد الأيام يتفقد تقارير الفاعلية، واكتشف أنه على الرغم من أن النقيب دوغم كان لديه خمسون أصابة قاتلة، فإن كتيبته ظلت على الشاكلة نفسها وبالأسماء والأعداد نفسها كما كانت لثلاثة أشهر أو أربعة أشهر سابقة.

وفي السادس عشر من نوفمبر، كانت القوات العربية التي عانت الأمرّين من المجاعة، قد تخلّت عن مواقعها وهربت إلى الشرق، في حين أن قواتنا غير النظامية والمساعدة سارت إثرها. وعاد القائد إلى كاسونجو بمعية حرسه الخاص ورجال بونتييه، تاركاً البقية كلها مع دو فوترز في موانا مكوانجا. وتشكل طابور خفيف للتوّ على يد النقيب دو فوترز، وبواسطته طارد العرب المتراجعين. ولمسيرة ساعتين تناثرت الجثث على الطريق، مظهرة كيف كان هرب العرب معجّلاً، والدمار الذي حاق بمؤخرتهم على أيدي غير النظاميين والأصليين الآخرين. وسمع دو فوترز أن العرب كانوا متمركزين غير بعيد أمامه، وهكذا، وإذ ترك كل الأصليين وغير النظاميين للحاق به في المؤخرة (لتفادي الارتداد المحقّق عندما يتواجدون وجهاً لوجه مع العرب)، تقدم مع النظاميين، آملاً أن يسيطر على الموقع بالهجوم الأول. كان المسلك سيئاً: لم يكن هناك من طريق، عدا الأثر الواسع لاتّباعه الذي تركه العدو الهارب. وإذ تقدمت أفراد قواتنا خلال الغابة، الممتدة عبر طريقهم، كان في مستطاعهم أن يسمعوا العدو في كل اتجاه يقطعون الغابة لإعداد تحصيناتهم. وكانوا، في أيّ حال، محظوظين للاقتراب من موقع العدو دون أن يُكتشفوا، بل إن الحراس المتقدمين لم يتم إطلاق النار عليهم إلا بعد أن جرى الحديث بينهم وبين العدو في المعسكر، ظنّاً، عن طريق الخطأ، أنهم من الأصليين. أورد غير النظاميين أن العدو قد تمركز بمعسكر في سهل واسع، حيث استولوا [229]

على فسحة وسط الغابة؛ وأحاطوها بسياج، ظهر لاحقاً أنه كان غير مكتمل ببعض مواقع فيه. كان هناك العديد من الأكواخ العشبية خارج السياج، مما يظهر أن العدو قد تمكن فقط من تشكيل الدائرة الداخلية من الحصن. وهكذا وإذ فوجئ العدو فرت أعداد منه إلى الغابة المجاورة، وتمركزت البقية في موقعهم داخل الحصن وخارجه ووقعت بأيدينا أعداد كبيرة من البنادق والقبعات، ورزم الأقمشة وغنائم أخرى. واشتبكت كتائب أخرى بالتتابع، آخذة مواقعها إلى اليمين. وقاد الملازم دو أويش كتيبته حول الحصن وهاجم المؤخرة، آملاً أن يجد نقطة ضعف. ونجح بهذا: فحيث إن السياج لم يكن مكتملاً، كانت هناك فتحات بعرض ياردتين أو ثلاث في مواقع عدة، وإذ وجد دو أويش أنه ربما يمكنه أن يوجد مدخلاً قبل أن يستعيد العرب أنفاسهم بعد المفاجأة، قاد كتيبته حتى حافة الخندق، حيث سقط وقد أصيب في الصدر. تراجع رجاله، تاركين قائدهم البطل والكثير من أعدادهم على الأرض، كأثر للموقع الذي احتلوه [230]. رأى العريف الأسود ألبرت فريز ورقيب أصلي اسمه باديلونجا (Badilonga) دو أويش يسقط وبمفرده، فهرعا لإنقاذه كيلا يسقط بيد العدو. وشجع سقوطه بعضاً من العدو الذين هجموا خارجين من الفتحة القائمة في السياج على بعد بضعة أمتار، لكنهم أجبروا على التراجع على أيدي الأسودين، اللذين حافظا على نار ثابتة حول جسد قائدهما. أرسل ألبرت عريفاً لطلب المساعدة، ولدى عودته بمعية النقيب دو فوترز ونصف دزينة من الرجال، وجدوا أن العريف لا يزال قائماً في الموقع. فهو لم يمنع العدو من الاستيلاء على الجثة فحسب، بل وعلى الرغم من تعرضه لنار كثيفة فإنه لم يصب. حمل دو فوترز رفيقه، الذي كان قد فارق الحياة. وعندما وجد دو فوترز الوقت لمراجعة الموقف، اكتشف أن كتيبة دو أويش من غير النظاميين كافة والقوات المساعدة قد اختفوا، فسقوط الرجل الأبيض قد أحدث أبلغ الأثر في معنوياتهم. فقط القوات المتمدنة تتحمل ضغط سقوط القائد. وإذ توجب على القوات النظامية أن يقوموا بنقل القتلى والجرحى بأنفسهم - وكانوا

عديديـن – قرر دو فوتـرز [231] أن يتراجع. وما إن اسـتوعب العدو الحركة، حتى ارتد إلى الهجوم، وبصـعوبة كبيرة وعبر عدة هجمات وانسـحابات نجح دو فوتـرز في دفن الموتى وفي أخذ الجرحى، مـع البنادق والذخيرة وذلك في بواكير الاشتباك، بسلام وبعيداً من موقع الاشتباك.

ولقد جرح سيف بجرح قاتل في أثناء إحدى الهجمات العربية (وهو ابن تيبـو تيب، وأكبر الزعمـاء العرب الذين هاجمونا علـى اللومامي)، ومات بعد ذلك بعدة أيام. واسـتمر العرب في مهاجمـة الطابور المتراجع حتى بات على بعـد مسـيرة يومين من موقعنا في موانا مكوانجـا. ولم يقرر القائد دانيس ما إذا كان ذلك بمثابة نصر أو هزيمة؛ حيث إنه على الرغم من أننا قد فشلنا في الوصول إلى الحصن وفقدنا دو أويش، فإن العرب قد فقدوا سيفاً والعديد من الرجال، وكمية من البنادق والذخيرة.

ولم يُقَم بأيّ عمليات إضافية، عندما عبر روماليزا اللوليندي (Lulindi) (الـذي كان فـي الحقيقة تقدماً آخر على كاسـونجو)، أقـام دو فوترز بمعية دوغم وأمبورسـا نفسه على [232] بينا موسوا (Bena Musua) على الطريق بين موقع روماليزا الجديد وكاسـونجو. وتُرك لونج، الذي شـارف جرحه على أن يبرأ الآن، في موانا مكوانجا برفقة ضابطين آخرين.

جـرى تعزيزنـا فـي الرابع من ديسـمبر بمائـة وثمانين جنديـاً، بقيادة النقيبين كولينجنون (Collingnon) وروم (Rom)، وضابطين آخرين، وكمية جيـدة من الذخائر مع ثلاثمائـة بندقية بتعبئة من الخلف. وهكذا وجد القائد نفسه مرة أخرى في وضع لمباشرة الهجوم.

الفصل الرابع عشر

نقل قوات الدولة من كاسونجو إلى بينا موسوا - القائد يقسم قواته لأجل القضاء على المواصلات العربية - تمركز المزيد من القوات في بينا جويا، وعلى الطريق الرئيسي إلى كابامباري، وفي بينا كالونجا، وفي بينا موسوا - إعادة تعزيز العدو - قوات الدولة تشكل شبه دائرة تطوّق الحصون العربية، وقطع إمداداتهم الغذائية - وصول النقيب لوتيغ بمفرزة من الجنود من بنجالا - الانفجار في المعسكر العربي - استسلام العدو - الاستيلاء على كابامباري - أسر زعماء عرب على يد لوتيغ

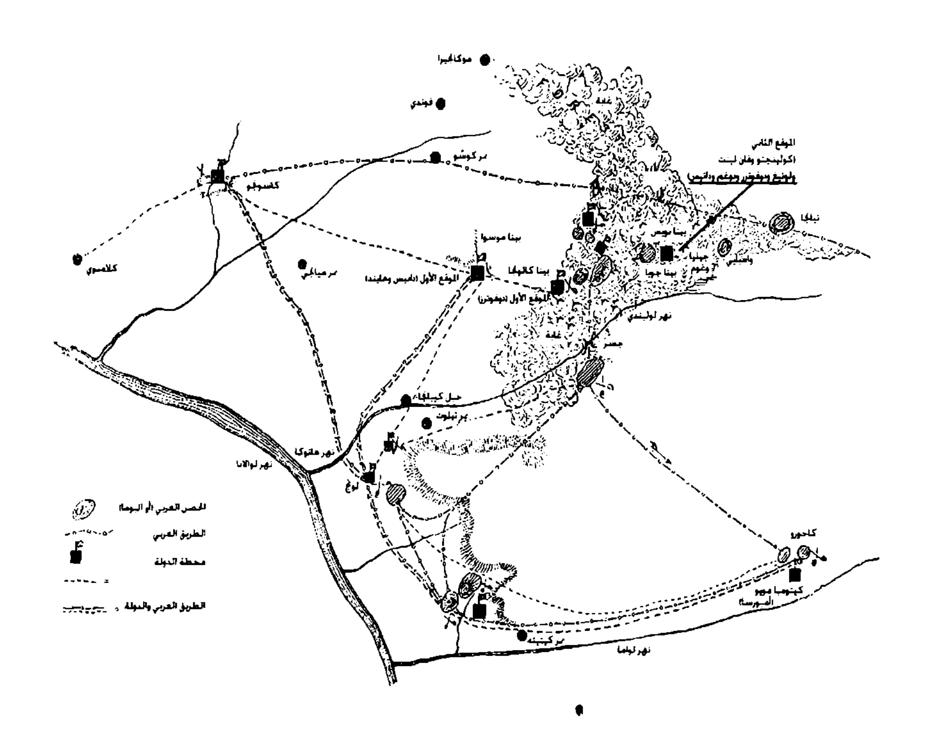
[233] بحلول العشرين من ديسمبر نقل القائد كل الضباط المتوافرين والرجال من كاسونجو إلى بينا موسوا (Bena Musua)، والتحق بنا [234] في الثالث والعشرين. وجرى تعزيز روماليزا، الذي بات في موقع قوي جداً، بامتلاكه حصناً كبيراً مبنيًّا بشكل جيد على الضفة اليمنى لنهر اللوليندي وثلاثة مواقع صغرى ومتقدمة باتجاه كاسونجو. وكانت لديه مواصلات مباشرة عبر جسر صغير (الذي نجح في بنائه على اللوليندي) مع القلعة التي قتل فيها دو أويش، وعلى ذلك فقد امتلك خطاً آمناً للمواصلات مع المدينة الكبيرة المحصنة، كامباباري. وكانت كامباباري في ذلك الوقت بيد بوانا نزيجي، ويذكر أنه قاد الهجوم على محطة ستانلي فولز، والذي انتهى بطرد دين (Deane) ودوبوا (Dubois)، وتأسيس السيادة العربية على الكونغو الأصلي. وعُزّز هذا النجاح العربي لاحقاً على يد ستانلي، الذي عيّن تيبو تيب، أكبر صائدي العبيد من العرب، حاكماً وبسلطة مطلقة تقريباً.

في الثالث والعشرين من ديسمبر دعي لمجلس حرب، والذي على أساسه قرر القائد دانيس أن يقسم قواته قدر الإمكان لأجل تقطيع شبكة المواصلات العربية بأكبر قدر ممكن. كانت لديه معلومات كافية تقريباً بأن رشيد والعرب [235] الآخرين من ستانلي فولز، الذين طردوا إلى الجنوب على يد القائد

بوانتييه (في حملته على كيروندو (Kirundu) وعلى نهر لوا (Lowa)) قبل أن يلتحق بنا، كانوا الآن قد توحدوا وباتوا يزحفون من الشمال الشرقي للاتصال بروماليزا. وبذلت كل الجهود من أجل قلب السكان الأصليين للمقاطعة أجمع للتعاون معنا ولتزويدنا بالطعام، وبالتالي تجويع قوات روماليزا. وقد أخبرنا الكثير من الأصليين بأن بعض القبائل التي قد التحقت بروماليزا كانت مستعدة للقدوم إلينا وتنفيذ تلك السياسة. أنفذ كل من القائد جيليا والنقيبين كوليجنون وروم بمعية قوة متمكنة من القوات الجديدة، وبدأوا السير يوم الرابع والعشرين من ديسمبر إلى بينا جويا (Bena Guia) على الطريق الرئيسي إلى كابامباري. وفي اليوم نفسه توجه النقيب دو فوترز وضباط آخرون، بمعية مائتين وخمسين من النظاميين وأربعمائة من غير النظاميين، لتثبيت أنفسهم في بينا كالونجا (Bena Kalunga)، على مسافة ساعة إلى الجنوب الشرقي من الحصن الرئيسي في روماليزا. وقد سيطرت مع القائد في الوقت نفسه على بينا موسوا (Bena Musua) على الطريق الرئيسي إلى كاسونجو، والواقعة في مكان متوسط بين المنطقتين الأخريين [236].
التحق بنا السيد موهون (Mohun)[47] الوكيل التجاري للولايات المتحدة، والذي وصل قبل مغادرتنا كاسونجو بيوم. وكان قد شارك أيضاً في زحف النقيب تشالته على ريبا ريبا، لثمانية أشهر خلت. كان يتمتع بلطف كبير إلى حدّ أنه تحمل مسؤولية إحضار بعض تمويناتنا من لوسامبو إلى كاسونجو. وكان موقفنا حينها على النحو التالي: كان ليميغي (Lemery) في القيادة في نيانجوي، وفي وضع خطير جداً حيث إن رشيد وقواته من الشمال، وبدل محاولة تشكيل ارتباط مع روماليزا، يلتف جانباً ويهاجم نيانجوي؛ وكانت كاسونجو بيد الملازم ميداج (Middagh)؛ وعلى أقصى اليمين كان لونج في

47 - ريتشارد دورسي لورين موهن (Richard Dorsey Loraine Mohun) (13-1865 يوليو 1915) مستكشف أميري وجندي إثر الثروات. عمل كوكيل تجاري للولايات المتحدة في أنجولا ودولة الكونغو الحرة (http://en.wikipedia.org/wiki/Richard_Mohun) (المترجم).

موانا مكوانجا، وبصحبته مائة وعشرون رجلاً ومدفع كروب، في وضع محكم جداً؛ وكنت أنا ودو فوترز والقائد دانيس في الوسط؛ وكان القائد جيليا قد احتل أقصى اليسار في بينا جويا. وكان لدينا في الوسط مدفعا كروب 7.5، ولأول مرة خلال الحرب، ذخائر وفيرة.



ووجد دو فوترز أن في إمكانه، وبسبب طبيعة [237] الأرض والأدغال الكثيفة، أن يهاجم أحد حصون روماليزا على بعد ثلاثمائة ياردة، دون أن يتمكن العدو من رؤية قواته. صمّم على تحقيق فجوة آملاً أن يستحوذ على الحصن. بدأ في السادسة من صباح يوم الثامن والعشرين. وبما أنه لم يكن لديّ على نحو خاص شيء أفعله، تسلقت قمة جبل يتحكم في رؤية منظر

العمليات، وكنت متألماً من رؤية ما كان يجري، دون معرفة النتيجة. وبعد قصف مدفعي منتظم حتى الساعة التاسعة كان هناك اشتباك بالبنادق على جانبي الحصن، وافترضت بالتوقف التالي أن الحصن قد استولي عليه، في حين أن الحال الحقيقية للأشياء كانت مختلفة تماماً. فلقد أحدث دو فوترز فجوة لا تتجاوز ياردة واحدة مربعة فقط، على الرغم من أنه قرّب المدفع إلى مسافة مائة ياردة من الحصن. وبينما كان مشتبكاً، وبدون معرفته، قام القائد جيليا بمهاجمة القلعة من المؤخرة، وبعد عشرين دقيقة من القتال العنيف أرغم على التراجع بعد خسائر فادحة. بعدها قاد دو فوترز ودوغم الرجال [238] إلى أعلى الحصن، إلا أنهما ما كان بمقدورهما فعل شيء لإقناع الرجال بتسلق الفجوة، على الرغم أن بعضاً منهم قد تبعوا الخطى حتى الخندق. في النهاية، تراجع دو فوترز. وعندما سيطرنا على القلعة اكتشفنا أن خسارة العرب في ذلك اليوم لم تكن أكثر من اثني عشر قتيلاً، حيث إنهم كانوا محميين بأعمال التحصين الأرضية، وبالحفر التي كانت أسفل أكواخهم.

أصبحت لدى القائد الآن صعوبات جديدة للتعامل معها، فلقد كانت لدينا معلومات محددة بأن بوانا نزيجي، كان يزحف، مدعوماً بقوات ضخمة من تنجانيقا وكميّات من الذخائر، من كابامباري للالتحاق بروماليزا، وأنه تموضع حينها في كيتومبا مويو (Kitumba Moyo). أنفِذ الملازم أمبورسا بصحبة طابور قوي بأكثر ما يستطاع الاستغناء عنه، لفصل بوانا نزينجي أو إرغامه على العودة. وكان عليه أن يحقق التفافاً، فالبلاد التي كانت على الضفة اليسرى من اللوليندي - ما عدا تلك التي كانت بأقصى اليمين في موانا مكوانجا - يسيطر عليها العرب. وكان الأصليون في المقاطعة معادين لنا أيضاً. وبعد أسبوع من القتال الدائم مع نزيجي - والذي تخندق في كيتومبا مويو - [239] - أرغم هامبرسين على التراجع. فلقد خسر الكثير من الرجال نتيجة القتال وانتشار وباء الجدري السيّئ بين قواته. وفي أي حال فقد تضرر

نيزيجي، بقسوة، إلى حدّ أنه بدل محاولة التقدم للالتحاق بروماليزا، فإنه ما إن استدعيَ أمبورسا حتى رجع إلى كابامباري، وبعدها بفترة قصيرة، وعندما أخذت كابامباري، فر إلى زنجبار.

وفي الثلاثين من ديسمبر، وصلت رسل، رداً لطلب القائد لتعزيزات، من القائد تشالته في باسوكو، وأيضاً من المساقط (Falls)، بأن لا شيء سيرسل. تطوع السيد موهون بأن يذهب أسفل النهر إلى بوسوكو وأن يأتي بأيّ تعزيزات يمكنه تجميعها، وعلى ذلك غادرنا في الأول من يناير. فُصِل في الثامن من يناير، النقيب كولينجون من جيليا، وثُبّت في بينا بويس (Bena Bwesse)، أمام حصنَي العرب المتقدمين. وعلى ذلك استكملنا شبه دائرة لنا؛ وحيث باتت الدوريات تستطيع المرور بسلامة بالمقارنة بين مواقعنا المختلفة، لم يعد بمقدور العرب أن يحصلوا على تمويناتهم [240] الغذائية من الضفة اليسرى لنهر اللوليندي. وسرعان ما واجهوا صعوبة في تموين رجالهم بالغذاء، وكعادتهم، فلقد خربوا الكثير من البلاد التي زحفوا عبرها. وفي الثامن من يناير فوجئنا، وكنا مسرورين، بوصول القائد لوتيغ برفقة مفرزة قوية من الجنود من بنجلا وضابطين لامعين. فلقد سبق الرسل؛ وفي الحقيقة فإن دانيس لم يكن قد أمل حتى الحصول على جواب للطلب الذي أرسله له، ولأسبوعين قادمين. ولم يكن للمرء إلاّ أن يقارن بشدة بين فعلي تشالته ولوتيغ، استجابة للطلب نفسه الذي أرسل لكليهما. فلقد تحرك لوتيغ على الفور بمعية مائتين من الرجال للالتحاق بدو فوترز، وأقاموا أنفسهم خلال يومين في موضع على بعد ثلاثمائة ياردة من بومة روماليزا نفسه، وبينها وبين بومته الأكثر تقدماً، وبذلك كان رجالنا في موقع يمكنهما من مضايقة الموقعين. وإذ كان لدى روماليزا انطباع أنهم إنما يستكشفون الوضع، لم يهاجمهم حتى استقام معسكرهم وحُصّن جزئياً، في قرية مهجورة، وكانت الأكواخ فيها [241] مبنية من الطين، وهي حماية مفيدة جداً من نيران البنادق.

في الرابع عشر من يناير، وقد عاد أمبورسا من حملة ضد نزيجي، التحق بلوتيغ، حاملاً معه كروب. ثبت المدفع في الموقع، وأطلق أمبورسا طلقة لقياس المسافة، حتى يكون كل شيء جاهزاً للقصف، والذي أريد له أن يكون في الصباح. على أن هذه القذيفة التجريبية، حققت نتائج اختلفت عما قصد بها: فلقد فجرت المخزن وأشعلت النيران في الحصن العربي. وبما أن الوقت كان فصل المطر، فإن الأكواخ والخنادق وحفر التراجع في القلعة كلها كانت قد بنيت بالأغصان بكثافة. وإذ أطلقت بضع طلقات صوتية منعت العدو من إطفاء النيران، وفي خلال دقائق كان الحصن بأكمله، والذي يغطي ثلاثة فدادين إلى أربعة، يغلي كمرجل من نار، وكانت الذخائر تتفجر بكل اتجاه. ولم تقف قواتنا ساكنة، بل حاولت أن تستفيد من الفوضى التي عمت العدو، وتسلقت التحصينات بكل اتجاه وقذفت بأكبر قدر من النيران من بنادقهم. ارتفعت درجة الحرارة في الداخل إلى حدّ أن رفع العرب الكثير من [242] الطلقات والبارود والفتيل إلى دفاعاتهم لتفادي تفجّرها. انتشروا من الحصن وهربوا هابطين إلى النهر، مرغمين على سلوك هذا الاتجاه بموقعنا القائم بينهم وبين بوماتهم الأخرى. ولدى الوصول عند النهر، تزاحموا عند الجسر بأعداد كبيرة إلى حد أنه انكسر: وقد ضايقهم غير النظاميين والأصليون وحتى قواتهم المساعدة نفسها، وحيث عمّ الهلع تقافزوا إلى النهر، وفي محاولتهم تلك، أغرق كل منهم الآخر. ولا بد من أنه، مع سقوط الجسر غاصاً بالناس وبأولئك الذين قتلوا بأسهُم الأصليين أو بالغرق، فإن خسارتهم عند النهر وحده لا بد من أنها بلغت مئات عدة. وكان تقرير اليوم قد أورد أن «خسائر العدو تفوق الألف». كان مغنمنا من الذخيرة قليلاً، لأن غالبيتها كانت قد تفجرت خلال النار، وكانت درجة احتراق البنادق والبنادق المترددة كبيرة جداً إلى حدّ باتت معه غير صالحة. وبدون أن يتابع العدو الهارب، أدار لوتيغ اهتمامه إلى الحصن الثاني في جواره المباشر، وحاصره جزئياً. وفي اليوم التالي [243] التحق القائد بلوتيغ، بعد وضعي كقائد للمركز في بينا موسوا، وإذ تسنَّم القيادة، أكمل الحلقة حول البوما. ولقد تقدم الخط بحيث بات

رجالنا قائمين فعلياً بين العدو والجدول الذي يجلبون منه تموينهم المائي. ولقد حوفظ على المواقع لثلاثة أيام وليال، داوم العدو خلالها على إطلاق نار دائمة ثابتة، لم يرد عليها رجالنا؛ بل إن الحقيقة ما كادت تطلق طلقة من جانبنا حتى حاول العدو أن يقوم بهجمة مفاجئة. في اليوم الثالث، وتحت علم الهدنة، أرسل الزعماء العرب عشرة رجال إلى القائد يقدمون عشر بنادق لقاء قصعة ماء. أمر القائد بإحضار القصعة، ثم سكبها على الأرض أمامهم وأعادهم إلى الحصن ومعهم بنادقهم. وقد نجحت تلك الحيلة. وفي خلال نصف ساعة استسلم الحصن بشروط - فحين رأى الرجال الماء لم يعد شيء قادراً على ضبطهم. كدّسوا الأسلحة في معسكرنا، وبعدها تم تفتيش الحصن، خوفاً من خيانة، وسمح للبؤساء العطاشى بأن ينطلقوا إلى الجدول، الذي غطسوا فيه [244]. وما كادت هذه المسألة تنتهي حتى هب إعصار، وسقط من المطر في خلال عشر دقائق ما يمكنه أن يزود الحامية بالماء لشهر كامل لو أنهم قاوموا. وبهذا الاستسلام سقط بأيدينا ألفا أسير، وستمائة بندقية، وعشرون بندقية من البنادق المرتدة، وذخائر. في ذلك الوقت كان القائد جيليا قد غادر بينا جويا والتحق بكوليجنون في مهاجمة الحصنين المتقدمين، وكلاهما واجه أعمالاً شرسة من المدافعين. وإذ سقطت القلعة الوسطى، تقدمت قواتنا بأكملها مع القائد دانيس لمحاصرة المواقع المتبقية للعدو؛ على أنه وقبل أن يتم ذلك استسلم الحصنان. قام النقيب روم بتصرف جريء (وبمعرفتنا للشخصية العربية) لكنه أحمق. أرسل بوانا نزينجي، آمر الحصون العربية، رسولاً إلى حصن القائد جيليا حاملاً معه قرآنا، قائلاً بأنه إن قدم رجل أبيض مع القرآن نفسه بيده فلن يلحقه أذى، وأن بوانا نزيجي نفسه سيرتب الشروط معه. وبينما كانت تجري مناقشة المسألة، أمسك النقيب روم [245] القرآن وانطلق به، قائلاً إنه لربما حقن ذلك دماً. ذهب إلى الحصن، ورتب شروط الاستسلام مع بوانا نزيجي وفي نهاية مناقشة طويلة تبادل مع بوانا نزيجي علم الدولة براية نزيجي.

في الثامن عشر من يناير أرسل طابور إثر روماليزا، بقيادة لوتيغ

والنقيبين دو فوترز ودوغم. وإذ زحفوا ضاغطين على أنفسهم وصلوا إلى كابامباري في الخامس والعشرين من يناير، ووصلوا إلى أطراف المدينة في الرابعة عصراً، واخترقوها حتى قبل أن يجد العرب الوقت لإغلاق بواباتها. ونظر الأصليون والعبيد في الحقول المحيطة، في الوقت نفسه، بلا مبالاة ودون اهتمام لوصولهم. ولربما عزيت سهُولة تحقيق ذلك النجاح بسبب السياسة الممتازة التي اتبعها القائد دانيس في مراحل الحملة كافة، وهي عدم السماح بالتدخل في شؤون الأصليين أو التحرش بهم إلا إذا هاجمونا فعلياً تحت العلم العربي. ولا بد من أن الأصليين قد باتوا يعرفون ذلك في مجمل البلاد، وعليه، فعند تقدم لوتيغ، فبدلاً من الهرب تحت وطأة الرعب إلى المدينة، [246] راقبوا بحب استطلاع، وبكل بساطة، قواتنا وهي تعبر. ويقال بأن روماليزا قد فر إلى الغابة بصحبة أربعة رجال فقط. وزحف دو فوترز وكتيبته إلى تنجانيقا، لفتح خطوط الاتصال مع قوات جمعية مقاومة العبودية، الذين تمددوا دون نشاط خلال حملتنا. وقابل النقيب دوكامب على الطريق، على بعد عشرين ميلاً من ألبرت فيل. وكان دوكامب قد تسلّم للتو إمرة قوات مقاومة العبودية، ونظم فوراً حملة لذلك وبات في الميدان. عاد دو فوترز برفقته، والتحقا بالقائد لوتيغ، الذي كان يزحف باتجاه الشمال -الشرقي طريق الأوجيجي، وكان هذا هو الطريق الذي سلكته بقايا القوة العربية في أثناء هربها. لقد استولوا على أربعة حصون على الطريق، التي كان المدافعون عنها في كل مرة يقومون بتركها ما إن تبدو قواتنا في الأفق دون إطلاق طلقة. ولدى الوصول إلى البحيرة، أقيمت محطة في بكاري (Bakari) على خليج بيرتون، والتي وضع الملازم لونج على قيادتها؛ وعادت القوات إلى كابامباري حيث أقيم معسكر كبير ومحصّن فوراً لمواجهة أيٍ احتمال لعودة العرب من الجنوب أو الشرق [247]. استسلم الأصليون جميعاً وكل الجماعات الصغيرة المنعزلة من العرب؛ وألقى لوتيغ القبض على كل من رشيد وسعيد بن عبدي وميسيريرا وآميسي (Amici). وكان سعيد بن عبدي قد قاد أمين باشا من المقاطعة الاستوائية

إلى جوار كابونجي، حيث قتل أمين على يد الزعيم كيبونجي (Kibungi)، واتهم سعيد بن عبدي بأنه هو نفسه على علاقة بالقتل. وبعد محاكمة من المحكمة العسكرية برئت ساحته، ثم عاد معنا إلى أوروبا.

وفي الثاني عشر من مارس، عاد السيد موهون القنصل الأميركي، من بوسوكو، بعد أن جمع معه حوالي مائة رجل، من الذين كانوا يتبعونه بقيادة الملازم بولدوين (Baldwin). وسيذكر أنه بعد رفض القائد تشالته أن يرسل إلينا أي مساعدة، عرض القنصل في الأول من يناير، بأن يذهب إلى أسفل النهر ويجمع أي رجال يستطيع جمعهم، في وقت كنا فيه في ظل ضغط شديد. لكنه عاد وأنجز عمله التطوعي هذا بنجاح، وإن كان الخطر، ولحسن الحظ، قد تم تجنبه. ووصل الملازم بولدوين والرجال في الوقت المناسب.

الفصل الخامس عشر

وصف الحملة لاكتشاف أعالي مياه نهر اللوالابا

[248] باتت البلد في الوقت الراهن هادئة من الناحية العملية، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى تنجانيقا، وكان القائد يتطلع إلى معرفة ما إذا كان من الممكن استكشاف طريق مائي للبحيرة الكبرى. إذ كان يتوجب على طريق القوافل القديم عبر كابامباري حمل كل شيء على رؤوس الرجال، وكان ذلك بالطبع مكلفاً للغاية، وإيجاد طريق مائي حتى لجزء من الطريق سيعني تكاليف أقل على نحو كبير. تسلّمت أمراً بأن أتسلّم قيادة رجال بولدوين وأن أشكل قافلة، لاستكشاف أعالي المياه في اللوالابا، والتي كانت غير معروفة حتى ذلك الوقت للأوروبيين.

وكانت تعليماتي على النحو التالي:

كاسونجو، 16 آذار (مارس) 1894

عزيزي الدكتور،

[249] يشرفني أن أبلغك بتكليفي لك لقيادة حملة استكشافية باتجاه تنجانيقا. لقد عبر القنصل موهون عن رغبته في مرافقتك؛ وستساعده بأيّ وسيلة ممكنة. سترحل مع كتيبة باسوكو (Basoko). وسيكون هدفك متابعة [نهري] اللوالابا واللوكوجا (Lukuga)، وأن تقدّر صلاحية هذين النهرين للملاحة وحتى البحيرة. كذلك سيتوجب عليك، قبل كل شيء، تسجيل أسماء القرى، والزعماء والإشارة لأهميتهم، وتحديد بمن من القبائل العربية يرتبطون، وأن تحدد بأكبر قدر من الدقة إلى أي مدى ينتشر التأثير العربي. وبالمناسبة، أرفق بطيه تعليمات بشأن خط الرحلة. ستتقدم حتى إمبالا (M'pala) أو ألبرتفيل (Albertville). وإن شعرت بضرورة الذهاب إلى أي مكان ضمن حدود المنطقة الإدارية فيمكنك ذلك، على ألا يكون ذلك بعيداً جداً. أرسل التقارير عن وضعك له [؟] دوماً وكذلك رسمك لخريطة بحيرة كاسونجو. ولست مضطراً للبقاء في البحيرة أكثر مما هو ضروري فعلياً، وسيتوجب عليك أن تحضر معك بعض البطاطا الأوروبية وبعض بذور القمح؛ ويمكن توفير بعضها لكابامباري. سأبعث بمراسلاتك إلى ألبرتفيل ورزمك إلى كابامباري.

قائد القطاع العربي

كان تومســون (Thomson) وســتانلي وآخرون قد اقترحوا أن اللوكوجا، الذي ينبع من تنجانيقا، يخلي نفســه للوالابا، أو بشكل غير مباشر في اللوالابا عبر بحيرة لانتشي (Lanchi). واقترح أيضاً أن اللوكوجا يصب في تنجانيقا، وليس منها. كانت تلك نقاطاً مهمة بالطبع ينبغي توضـيحها. [250] رغب وكيل الولايات المتحدة موهون في مرافقتي، وبدأنا في ترتيب القافلة. وبعد استبعاد أســوأ الرجال من مفرزة بولدوين بعناية، وجدت خمســة وســتين شخصاً قوياً لأصطحبهم معي. ولقد أثبتوا بأنهم مجموعة لصوص غير منضبطين وعاصين للأوامر فاضطررت إلى رفض التعامل معهم. فبالإضافة إلى عدم نفعهم بشكل عام، لم يكن بمقدورهم لا السباحة ولا التجديف - وهي من المضار الاستثنائية في رحلة مائية، حيث إن مســألة المواصلات، أبقتنا بالكامل بين أيدي الأصليين الذين مررنا في مقاطعاتهم. كان من بين هؤلاء الرجال خمســة من الأحباش، شكّلوا الناجين الوحيدين من فرقة مؤلفة من خمسة وسبعين شخصاً بدأوا من بومـا للالتحاق بنا، حيث مـات البقية على الطريق، لعـدم قدرتهم على تحمّل تعرّضهم للطقس السيئ، والغذاء الرديء، والحاجة إلى العناية. وكان الأحباش الخمسة في حالة يرثى لها ويعانون من الحمى عندما التحقوا بنا، ولكن تراءى لي أنه بالإمكان أن يصـنع شـيء ما منهم بوجه من الوجوه؛ وهو ما ثبت فعلياً. فمع العناية والتغذية المناسـبتين أصـبحوا أكثر الرجال فائدة [251] وأكثرهم جلداً على العمل، وإخلاصــاً بكل المفرزة. وفي مرات عديدة وحين كانت المفرزة على وشـك العصيان، كان هؤلاء الأحباش يلتصقون بي وبموهون، وفي الحقيقة كانوا غالباً ما يصرون على أن يناموا على بعد ياردة أو اثنتين من خيمتينا.

في الرابـع عشـر من مارسـ وزّعت مائة طلقـة وبزة جديـدة لكل رجل. وأوقظت في تلك الليلة بإنذار حول اشـتعال النار على جانبنا من كاسـونجو، وحـين هرعـت إلى الخـارج وجدت أن قسـم المعسـكر حيـث أقـام الكوَنجولا (Kwangolas) (كتيبتـي الجديدة) وسـط اللهيب. وهبت فـي تلك اللحظة للأسف زوبعة، أو عاصفة صغيرة، وفي لحظات كان قسمي بأجمعه من المعسكر

يتأجج بالنيران. وكان رجالي، وبافتراض أنهم قد عملوا لستة أشهر كجنود، عديمي الفائدة على الإطلاق، وعلى ذلك فقدت ثلاث بنادق وما يزيد على السبعمائة طلقة، لم أكد أنقذ نفسي لمرّتين، من الرصاص المتفجر حين كنت أحاول إنقاذه. ومع ذلك فقد وبخني القائد بقسوة على خسارة الذخيرة، وتوجب عليّ أن أبدأ في اليوم التالي دون أن يسمح لي بتعويض الخسائر.
[252] زحفنا إلى فرهاجيس (Farrhagis) على اللوالابا، حيث زُوِّدنا بالقوارب. وكان لدى موهون ستة رجال خاصّون به، وطباخ من الهوسا كان بدوره مترجماً مفيداً وطباخاً جيداً حين لا يكون سكرانا. وأضعنا يوماً كاملاً نحاول فيه الحصول على قوارب كان يفترض أن تكون جاهزة لنا. فلقد قام الوجينيا، متناغمين وغريزتهم، بالاستيلاء على أفضل القوارب وأكبرها التي تمكنوا من وضع أيديهم عليها وأخفوها في وسط البحيرات والمستنقعات. على أننا تمكنا في أيّ حال من تجميع اثني عشر قارباً، كانت كافية لنقل الفرقة كاملة. شكّلت تلك القوارب والتي نُحِت كل واحد منها في الأصل وببساطة من شجرة واحدة، وسيلة مواصلات عظيمة. حمل الأكبر الذي كان تابعاً لموهون ستين رجلاً للتجذيف؛ واثني عشر جندياً بمعداتهم وغذائهم؛ وموهون وفراشه ومتاعه في بيت بُنِيَ على أحد القوارب، والطباخ فيليب واثنين أو ثلاثة من الخدم الآخرين؛ مع نار للمطبخ، وعنزتين للحليب، ونصف طن من المخازن. ولقد مرّ هذا القارب خلال أكثر المغامرات الخارقة دون أن يتلف. وحين كان يهبط المجاري بسرعة [253] عشرين ميلاً في الساعة، كان غالباً ما توقفه فجأة وبسرعة تامة صخرة ترسل نصف المجذفين خارج السطح. (في هذه المنطقة، يجذف الرجال جميعهم وهم واقفون، حيث يجري تسطيح كلٍّ من مقدمة القارب والدفة على هيئة منصة، بمساحة ثلاثة إلى أربعة أقدام مربعة، التي يمكن لعدد من الرجال أن يقفوا هناك أثناء العمل). وبعد أشهر عدة من الأعمال الصعبة، التي لا أعتقد أن أي قارب آخر سيتحملها، تركت هذا القارب في ستانلي فولز، في حالة بدا فيها أنه كما لو كان جديداً.

في السابع عشر من مارس بدأنا، وخلال ساعةٍ كنا نتقدم باستخدام أعمدة التقدم ساحبين القوارب إلى المجاري الأولى. وأمضي اليوم الأول في هذا العمل. وحين يكون التيار قوياً، أو حين يكون هناك شلال قوي بارتفاع قدمين أو ثلاثة أقدام ليمتطى، نقطع معترشات حبال القرود، ونصلها ببعضها بالقوارب ونضع مائتين من الرجال يجدّفون، وبهذه الطريقة نسحبها بمحض القوة البدنية. وغالباً ما نحصل على كل المساعدة التي نود أن نحصل عليها من قرى السمّاكين على ضفة النهر، لقاء بضع ياردات من الأقمشة، أو حفنة أو اثنتين من الخرز. [254] وأحياناً يكون الجزء الممكن العبور منه من شلّال أو منحدر سريع مسدوداً بمانع قوي، صنع بعضه من شجرة بأكملها، يتضح أنه قد وضعه الأصليون هناك عندما يكون الماء واطئاً. وتترك فتحات بسعة قدمين أو ثلاثة أقدام مربعة في هذه السدود، وتغطى بمصائد أسماك تشكل على هيئة شرك أم الربيان ومصنوعة من شباك مجدولة[48]. وغالباً ما توضع فتحات تلك المصائد باتجاه أرضية النهر، لأجل أن تصطاد الأسماك التي تحاول صعود أعلى الجدول حين تتغذى. ولقد وجدت في إحدى تلك المصائد، والتي بلغ قطرها ما يزيد على الثمانية أقدام، نوعاً من الشبّوط بزنة خمسة وعشرين رطلاً. وهذا النوع من الشبوط يكون بلون بني مائل إلى الذهبي، وهو ألذ سمك ذقته من مياه الكونغو.

وتميل صخور تلك المنحدرات السريعة إلى لون بني غامق - ضارب في السواد - فيه خطوط حمراء، وهو ما يشير إلى ثراء هائل بالحديد. وعلى ذلك، وجدنا صعوبة في مسح هذا الجزء من النهر، حيث باتت بوصلاتنا عديمة الفائدة، تشير دائماً إلى أقرب صخرة. وكانت الطرائد كثيرة، وخصوصاً

48 - مصائد لجراد البحر وهو نوع كبير من الجمبري أو الربيان ويطلق عليه في الخليج اسم أم الربيان http://images.google.com.bh/images?q=lobster+pot&oe=utf-8&rls=org.) mozilla:en-US:official&client=firefox-a&um=1&ie=UTF-8&ei=cxbsStPFEI XSjAfFnIybDQ&sa=X&oi=image_result_group&ct=title&resnum=4&ved= 0CBgQsAQwAw) (المترجم).

في المنحدرات السريعة. [255] وانتشرت طيور مالك الحزين بألوان وأحجام متعددة، من أسراب النوع الأبيض الثلجي، إلى الطيور الفردية الهائلة الحجم. ولقد كان حجم أحد الطيور الأخيرة من طرف الجناح إلى طرفه الآخر ثمانية أقدام وست بوصات، وستة أقدام من طرف منقاره إلى طرف ظفر قدمه. وأمكن رؤية نوع من الزقزاق، أو رسول الغيث، إلى نصف دزينة من البط (ducks) بألوان وأحجام متعددة في كل اتجاه. ولقد اصطدت عدة بطات من النوع الرمادي (sperm-wing geese)، التي على الرغم من أنها لم تكن في موسمها، فإن أعضاء القافلة أحبّوها كثيراً. وكانت أفراس النهر نادرة نسبيًّا، حيث تعلم المحلّيون كيفية قتلها بالرماح، أو بالمصائد العادية للأفراس. وتكونت تلك من رمح يثبت على رافدة خشبية، تعلق في موقع مناسب قرب ضفة النهر، على أن يربط الحبل المعلق بمقداح يوضع في طريق الفرس. وحين كنا نعسكر في القرى، كنا نرى رؤوس أو أسنان أفراس أو الخنازير الأفريقية ذات الثآليل (wart hogs)، والخنازير البرية، وأحياناً بعض الجواميس أو قرون الظباء. وعلى الرغم من انتشار الأفيال والجواميس في المقاطعة كافة، فإنه نادراً ما يجري التحرش بها، نظراً إلى أن الأصليين يخافون منها كثيراً.

[256] وفي العشرين من مارس، وبعد يوم عمل شاق للغاية، وصلنا إلى قرية مونا تامبوي (Mona Tambui). التي كانت تقع على جزيرة، تحيط بها وتخترقها مجار سريعة وجداول، في حين أن النهر الرئيسي يمرّ في مقدمة الجزيرة - ليشكل موقعاً جميلاً للغاية، وهو مكان يتحكم في البلاد المحيطة بالبقعة تماماً. جلسنا أنا وموهون في مقدمة القرية وتسلينا باصطياد البط، الذي استمر في المرور فوق رؤوسنا والعودة إلى أراضي تغذيته. ولقد خرج السكان بأكملهم، مظهرين عجباً وسروراً فائقين من قدرتنا على اصطياد الطيور في حالة طيرانها، التي اعتادوا خلال وجودهم على رؤية أسراب منها تمر بهم كل يوم.

ومتى كان الوقت مناسباً، نمنا في قرى الأصليين، بدل النوم في القوارب، أو بإقامة خيامنا. ولقد كانت معظم تلك القرى معادية، وإن لم يكن سكان القسم الأعظم من المقاطعة، يعرفون ما هي البندقية، وعاشوا وسط الاعتقاد بأننا مسلحين بهراوات، بل حاول عشرون منهم أو ثلاثون أن يستعدوا لمهاجمتنا بسهامهم ورماحهم. [257] ولقد وجدت أن أفضل طريقة للاقتراب من قرية (والتي غالباً ما يتجمع مقاتلوها عادة على الشاطئ، وسهامهم على النبال) هو بترك بقية الأسطول الصغير على مبعدة، وأن أعرض، من قاربي، مناديل وأسلاك الخرز كلما اقتربت منهم - وأن ألقي وبأسرع ما يمكن بعض حفنات من الخرز على الشاطئ. وإن وجد في القرية أي ممن يمكن أن يتحدث بالسواحيلية، أو أيّ لغة نعرفها، أسارع إلى الاتصال بالزعيم. وبعد أن أقدم له هدية، واعداً إيّاه بهدية أكبر في اليوم التالي، أعطيه نصف ساعة لإخلاء القرية من النساء، والبضائع والأمتعة والعبيد، موضحاً بأن رجالي من المرجح أنهم سيستولون على أي شيء يتركه خلفه. وبذلك كنت أنجح بشكل عام في المرور عبر البلاد دون أي ازعاجات من الأصليين. وما إن نستولي على القرية، وما إن نتبين الغذاء الذي ترك إثر ذلك، نبدأ بشراء ما نراه ضرورياً. وكان هذا يستثير استغراب الأصليين، الذين لطالما اعتبروا أنهم يضطرون لإطعام المسافرين لقاء لا شيء إن كان [258] من يطلق عليهم اسم العابرين بقوة كافية لطلب ذلك. وغالباً ما ننهي مبادلاتنا التجارية بنثر حفنات من الخرز، أو المناديل أو الأسلاك؛ أو ببدء سباقات، يكون أحد المناديل أو جرس صغير هو الجائزة وقد ثبت بأعلى شجرة أو كوخ. فيهرع السكان بأكملهم للسباق ويتقاتلون من أجل الجائزة، وفي الغالب يهيلون الشيء الذي علقت الجائزة في أعلاه على الأرض وسط جهدهم للحصول عليها. وإذا ما نجحنا في إقامة تلك العلاقات مع الأصليين فإننا قلّما نجد صعوبة في الحصول على رجال للتجذيف بنا في طريقنا صباح اليوم التالي. وإن صدف أن كان معسكرنا في المساء التالي وسط شعب من القبيلة نفسها، أو بين قبيلة

صـديقة للمضيف السـابق، فإننا سنجد أن سمعتنا قد سـبقتنا، وأننا نستقبل بـأذرع مفتوحة. وفي أيّ حال أحياناً كانت تطرح المسـألة نفسـها على الجانب الآخر ولا تسـير الأمور سـيراً حسـناً، إذ عادة ما تبدأ المشـاكل من عصـيان رجالي أنفسـهم. ففي مرة أو مرتين وبينما كنت على الشـاطئ أرتب الأمور مع الزعيم، مصـحوباً [259] باثنين أو ثلاثة من الأحباش، تسللت قوارب عديدة إلى الضـفة أدنى المنطقة السـفلى، بقيادة المجذفين الأصليين - الذين، مثلهم مثـل غالبية الأصـليين، ينهبـون أو يقتلـون جيرانهم وأقرباءهـم دون تردد - وهاجموا القرية من المؤخرة وبدأوا النهب. ولقد وضـعني ذلك عدة مرات في أكثر الأوضـاع صعوبة وخطورة. وعلى الرغم من أنني جعلت من أسوأ الحرس السـود دروسـاً بمعاقبتهم، فإن المصاعب اسـتمرت تقريباً إلى نهاية الفصل. فما إن وصـلنا إلى أعلى قرية فامبوسـي (Fambusi) لم نعثر على المزيد من الوجينيـا، وكان يطلق على شـعب الماء هنا ووجابيليـو (Waujabillio). ولقد كانوا عرقاً جيداً: فكلهم طوال القامة، وسـيمو الهيئة، سـمر البشرة يسرّحون شـعرهم بأكثر الطرائق غرابة؛ وإن كان مثيراً إلى حد كبير أن بدا أن الرجال هـم فقط من يهتمون بهذا الجزء من هيئتهم، ونـادراً ما رأيت امرأة بدا أنها تقـوم بـأي جهد على الاطلاق للاعتناء بتصـفيف شـعرها. ولربمـا عاد ذلك إلى أننـا رأينـا عبيداً فقـط - حيث إن النسـاء الحرائر وزوجـات الزعيم قد جـرى إبعادهن عـن ملتقانا. كان الرجال يرتدون رباطـات من التعاويذ معلقة حول رقابهم وأوسـاطهم، وبعضـها كان يمثل صور [260] نساء ورجال، نحتت جميعها من العاج بجمال أو من أسنان الخنازير الأفريقية ذات الثآليل. يلفّون جميعاً حول وسطهم قطعة من قماش محلي، نسج من نسيج نخلة، يسمى مادبا (madeba). وكانوا مسـلحين بأقواس وأسـهم قوية، وقد صنعت الأسهم على نحو جيد، برؤوس تنتهي بالحديد، ومغطاة بالسم. لكن هذا السم لم يكن على الدوام قاتلاً، وربما عاد ذلك إلى حقيقة أنه وباتساق مع غالبية السموم المحلية التـي رأيتها في حوض الكونغو، فإنهـا تفقد قدرتها القاتلة إن لم تكن طازجة.

وحين أصيب أحد رجالي بسهم شلّ فخذه، وقد غطي بطبقة غليظة ممّا يسمى بالسـم، فإنه لم يمت، على الرغم من أن العلاج الوحيد الذي اسـتخدمته كان شـراب النشادر أو الأمونيا والماء، وقطرتين من النشادر فـي كل من الجرحين. لقد آلمه هذا كثيراً، وشـكّه الألم فـي أنفه وحنجرته وعيونه إلى حدّ أنه اسـتنتج بـأن طب الرجل الأبيض يفوق كثيراً السـم المحلي، ولذا، صـمم على أن يحيا. واحتفظ تقريباً كل من رأيت من الووجابيليو بموس مثير به شـفرة مثلثة ثبتت على مسكة، وأدخل فـي غمد، وعلق من حزام الوسط أو الرقبة. وكانت [261]، لسـبب لم يحدد، تحمل دائماً والمسـكة للأسفل، والشفرة قد أدخلت فـي الغمد على نحو محكم إلى حدّ أنها لا تسقط خارجاً. وكان نحتهم على الخشب والعاج جميلاً حقاً، وكنت محظوظاً لتمكني من أن آخذ معي إلى إنجلترا بعض نماذج جميلة بهيئة مجاذيف، أو عصـي المشي، ومقابض فؤوس، والتي باتت الآن فـي المتحف البريطاني. وكانت بيوت هذا العرق مثيرة أيضاً: فهي تبنى من الطين، وتتكوّن من غرفتين، أمامية بحجم سـبعة أمتار مربعة، وأخرى خلفية - والتي تشكل الجزء الأساس من البيت- ذات تشكيل دائري بقطر عشرة أقدام. ويتم نسـج الكوخ بمجمله ويسـقف الجزء الدائري على هيئة خلية عسـل، فـي حين أن المربـع يكون على هيئة سـطح واحد مائل. ويوجد فـي الداخل دائماً ما بين عشـرين إلى ثلاثين عارضة من الخشـب المغطاة بالسخام. وكما هو جلي فقد اسـتخدم بعضها كأسِرّة، على أنني لم أكتشف أوجه استخدام البقية قطّ، وإن كان الاعتقاد العام فـي القافلة أنها تسـتخدم لتشكيل منصات لعمل السمك أو اللحم المُدخّن. وعلى ما يبدو، يصـعب تصـديق ذلك، مع وجود الخيار الآخر الأبسـط وهو العصي المشـتعلة. ويوجد فـي كلتا الغرفتين الداخلية والخارجية منصات طينية مرتفعة، [261] بطول ياردة وعرض قدمين تفيد كمواقع إشعال نـيران. وبين هذه المواقد توجد دائماً أشـكال طينية مخروطية من الطين على هيئـة مزهريات معتادة مقلوبة رأسـاً على عقب. توضـع ثـلاث من تلك قريبة من بعض وتشـعل النار بينها لتشكل الأثافي الأسـاس لقدر طبيخ. وينتشر هذا

النظام في كل من منطقتي اللوالابا واللومامي. وفي أجزاء أخرى من الكونغو رأيت أعشاش النمل بشكل المشروم تستخدم لهذا الغرض. وتغزو البيوت كلها أعداد هائلة من الفئران، ومما يبعث على الخوف والفزع أنها كلها مستأنسة. واعتادت أعداد هائلة الحجم منها، أن تتجول ليلاً في أعلى وأسفل شبكتي المانعة للبعوض، وفي أكثر من مرة قطّعت الخيوط وهبطت بجسمها الصلب فوقي في الفراش. ولقد اعتدنا عليها إلى حدّ أنها لم تعد تسبب لنا أي إزعاج، إلا إذا كانت من النوع السام ذي الرائحة (musk variety) وهو حيوان رمادي بأنف طويل بحجم فأر مجارينا، وهذه الفئران تتصف بخاصية بغيضة وهي أنها أينما تذهب أو تلمس أي شيء يتلوث برائحة كريهة تبقى لأيام لاحقة. وكان يكفي وجود أحد تلك الفئران في الكوخ لو فشلت في اصطياده، لأضطر إلى تبديل المكان. وكان العدد الهائل والاستثنائي للفئران الموجودة في تلك المقاطعات قد قادني إلى الاستنتاج بأن هؤلاء المحليين، على غير عادة أجزاء أخرى من حوض الكونغو، لا يستفيدون من الفئران كغذاء.

وما إن تخلصنا من الواجينيا حتى تزايد قلقنا اليومي بسبب أننا كنا خارج منطقة النفوذ العربي. فلقد وجدت أن الشعوب والقبائل التي اعتادت على الاحتكاك بالعرب كانت متمدنة ولطيفة، وتعلمت، بدون شك، أن أفضل وسيلة للتخلص من الزوار الطيّبين والسيئين هو بمساعدتهم على المضي في طريقهم. وكان أحد أصعب الناس الذين توجب علينا أن نتعامل معهم هو زعيم اسمه كيتينجي (Kitenge)، وهو تابع قوي وغير منضبط لأب عجوز حيي وذي طبيعة طيبة اسمه كونغولو (Kongolo) والذي زرناه لاحقاً. كان مقر كيتينجي على جزيرة صغيرة في وسط النهر. وكان الجزء الأعظم من هذه الجزيرة قد تشكل من نبات عطري أبيض جميل، وكان الوصول إليها يمر بأحد أجمل المناظر التي رأيتها في حياتي. وفي الجزء الأدنى من الجزيرة كانت هناك مجموعة من الشلالات والمنحدرات النهرية تسمى نيانجي (Nyangi). [264]

وقد ارتفعت وعلى نحو مفاجئ على قمة عظيمة من المرو على الضفة اليسرى من النهر؛ وفي أسفلها، انتصبت كتل ضخمة، تراكمت بأشكال فائقة الجمال، وتمتد إلى النهر. وفي وسط أحد المنحدرات النهرية تنتصب كتلة من النبات العطري على هيئة مخروط يُتوجها سهل أو سهلان صغيران معشبان تقوم بهما شجرتان أو ثلاث شجرات، وحولها تحوم أسراب من النسور البيضاء والسوداء. واستقام على الجهة اليسرى منحدر التل بحدة من ضفة النهر، مشكلاً قمماً عمودية تغطيها حشائش متفرقة.

وكان كيتينجي قد وعدنا بالغذاء والرجال للتقدم في رحلتنا، لكنه تركنا دون أي منهما، وبتنا على الطوى في الجزيرة. وفي اليوم التالي جدّد وعوده، لكنه احتج بأن لا رجال عنده بين يديه؛ وقال إنه أرسل إلى بعض منهم في الداخل، وحيث إنه ليس لديه قوارب ولا مجاذيف فسيتوجب علينا أن نعيره تلك العائدة لنا لإحضار الناس من البر الرئيسي. وبينما كنا نتحدث على هذه الشاكلة، رأينا ثلاثة قوارب تعبر بهدوء النهاية الدنيا من الجزيرة. وبينما شاغلت الرئيس بالجدل الدائر، أرسلت بعض رجالي وبمعيتهم الأوامر بمصادرة القوارب، [265] وهو ما قاموا به بنجاح وأحضروها إلى نهايتنا في الجزيرة مما أوقع الكدر في نفس الزعيم. وكان في أحد القوارب سمكة ممتازة من نوع القط تزن حوالي مائتي رطل، وكانت مقبولة جداً للعساكر الجائعين. وبواسطة تلك القوارب، عبر أوماري (Omarri) المترجم وبضعة رجال إلى البر الرئيسي، في حين أن الزعيم كان محجوزاً بواسطتنا على الجزيرة. وبعد ساعتين عادوا ومعهم كل مانريد، وبدأنا وسط الانطباع بأننا قد انتهينا من كيتينجي؛ ولكن، بدا أننا لم نكن قد فرغنا منه نهائياً. ففي وقت متأخر من اليوم، وبينما كنت أمر بمنطقة صعبة من المنحدرات النهرية، في نهاية المنحدر التالي بانتظار قدوم بقية القوارب، رأيت المحليين يقلبون أحد القوارب في وسط المجرى عمداً. وعلى رغم أن مياهه كانت هادئة، بحيث إن

الكوَنجولا (Kwangola) لا يستطيعون السباحة فلقد غرقوا كلهم. ولحسن الحظ فلقد احتوى القارب على ثمانية رجال- وكان أحدهم المترجم أوماري، الذي سبح نحو الضفة ببندقيته لتعقب الأصليين. ولم يكن يتأتى لي فعل شيء بالطبع [266] من موقعي على الصخرة، فقد كان هدير الشلال بالأعلى يمنع أياً كان من سماع التوجيهات التي كنت أصرخ بها. ولم تدم الفاجعة إلا بضع ثوانٍ: رأيت رأساً ويدين تظهران، ثم جرى النهر العظيم متقدماً، دون ترك أي إشارة على ما حدث. عاد أوماري إليّ، ولكن المجدّفين المحليين اختفوا كلهم في الدغل، ولم أر أياً منهم أبداً.

وفي المساء كنا لا نزال في المنحدرات، وحيث كانت هناك صعوبة كبيرة في الحصول على قارب موهون التحقت به على القارب. وفي الغسق، وحيث نجحت في إيصال نصف القارب فقط إلى قمم صخرية، قفز المحليون كلهم من السطح وسبحوا إلى الساحل على بعد ميل في الظلام الداكن. ولسوء الحظ فإن التموينات وفرش النوم قد سبقتنا في القوارب الأخرى، وتُركنا في وضع لا نحسد عليه في تمضية الليل في قارب رطب، يقلقنا عدد هائل من البعوض والجوع، ويبللنا ضباب كثيف. وفي الصباح التالي عاد خدمنا والمترجم والأحباش وساعدونا على التخلص من المأزق؛ أما بقية رجالنا، وإذ ظنوا بأنهم تخلصوا منا، فقد باتوا يمتعون أنفسهم في الوقت نفسه، مما ضايق المحليين. [267] اكتشفنا لاحقاً أن كونغولو - الزعيم الأكبر لمجمل المقاطعة- والذي قدمنا بعدها إلى قريته، قد أعطى أوامره بألا يسمح لنا بالنزول. كانت قريته تقع فوق المنحدرات، وعندما ظهرنا، وعلى الرغم من أوامره، فإنه، قام بالعمل بأفضل ما يكون لإنجاز مهمة اعتبرها سيئة، وعاملنا بشكل جيد للغاية. ولقد علمنا منه أنه يمكن أن نجذف في النهر لثلاثة أسابيع لاحقة دون أن نواجه مزيداً من المنحدرات. ولربما لم يكن هذا صحيحاً، وقد أسفت لأننا لم نتمكن من التأكد من دقة ذلك؛ وذلك أننا في الواحد والثلاثين من مارس، وبعد

أربعة أيام، وصلنا مصب اللوكوجا (Lukuga)، وبصعوده عدنا أدراجنا. وقبل الوصول إلى هناك مررت بتجربة لا تبعث على السعادة. ففي قرية كيبينيما (Kiebenema) التي تقع على بعد نصف ميل من الضفة التي كنا نخيم عليها، انطلق عدد من رجالي دون ضابط وأخذوا ينهبون القرية. وقدم الزعيم إليّ محتجاً من المعاملة التي يلقاها شعبه، لكنه هدأ، بعد [268] أن تابعت الرجال، وأخذت منهم الطيور والماعز وبقية الأشياء التي نهبوها، وأعدتها إليه. على أن أحد الأوغاد عندي، وإذ رأى مآل الأمور، اندفع مع فريسته، وعندما قدمت إليه، راوغ خلف دغل. وسمعت مؤخرة البندقية تطقطق حين فتحها. وحين قفزت في الدغل والمسدس بيدي، قفزت في اللحظة المناسبة لطرحه ومؤخرة البندقية بعد أغلاقها وقبل أن يحصل على الوقت الكافي لإشهارها عليّ. وبعد أن جرح جرحاً بالغاً بسبب الضربة، جردته من السلاح. ولقد كان الوقع المعنوي لتلك الحادثة على الرجال ملحوظاً للغاية، ولم تظهر بعدها أيّ مظاهر مكشوفة للتمرد إن كنت في الجوار.

لم يرتفع اللوكوجا، أو كما يطلق عليه الأصليون في مصبه، اللومبريدجي (Lumbridgi) في هذا الوقت - بواكير أبريل- لعدة أقدام تشكل أعلى ارتفاع للماء. فهذا النهر يخلي نفسه مباشرة في اللوالابا. وليس هناك أي إشارة لبحيرة لانتشي (Lanchi)، والتي رسمت في عدة خرائط في هذه النقطة. وليس هناك حتى اتساع للوالابا يمكن أن يؤخذ خطأ على أنه البحيرة [269] إن كان أعلى مصب اللوكوجا أو تحته. وجدنا مصب النهر، الذي ينقسم هنا، وقد سد جزئياً بدلتا باتساع نصف ميل وبطول ميل ونصف. لقد كان النهر في أعلى الدلتا بعمق عشرة أقدام، وبمياه صافية جداً، وراوح عرضه ما بين ميل وربع وميل عرضاً، وبالعمق نفسه على طول ذلك. ونما عشب طويل على جزء كبير منه، ولم تظهر أيّ إشارات بوجود مستنقعات حول ضفافه. اضطررنا للتوقف التام تقريباً أمام الأعشاب على بعد بضعة أميال في أعلى النهر، والتي ارتفعت بطول ستة أقدام أو سبعة، أعلى من مستوى الماء وحجبت كل

مـدى النظـر. كان المـاء فـي هذا النقطة علـى عمق أكثر من خمسـة أقدام أو سـتة، وواجهتنا صعوبة كبيرة فـي التجذيف، أو استخدام الأعمدة أو حتى دفع القوارب إلى الأمام. ولقد شـعرنا بالضـياع التام فـي هذه البرية من الأعشاب التي بلا أثر، ولم نتمكن من تتبع النهر إلا بالسير عكس التيار، حيث إن الضفة كانت مختفية تماماً. وبعد أميال عدة في سـفر غير مريح، عثرنا على امتداد مائـي مفتـوح، باتسـاع أربعين يـاردة، والذي قادنـا إلى قريـة [270] أنجوما (Angoma). ولقد طُرِح أنه بالنظر إلى مسـتوى ارتفاع الأعشـاب والنباتات الأخـرى مع البقايا التي يراكمها الراشـح من الماء عليها، فإن اللوكوجا أحياناً ينسـد، وأن ذلك ربما كان السـبب للتغير الاسـتثنائي في مسـتوى الماء والذي لوحظ فـي تنجانيقا.

فلقد أخبرني السير فرانسيس دو وينتون (Sir Francis de Winton)[49] أنـه فـي إحدى السـنوات حين كان فـي فيفـي (Vivi)، قرب مصـب الكونغو، ارتفع النهر إلى ما يزيد على الأربعة عشـر قدماً في ليلة واحدة. وباستفسـار آخر فلقد تمكن من تأكيد تقرير لاحق من ستانلي بول بأن التأثير قد صار إلى أن تتشـكل بحيرة عظمى فـي الأعلى. وهنـاك شيئان فقط يقالان بهذا الاتجاه، الأول أن الأمر يفتح المجال دوماً للشك فـي ما إذا كان انفجار سد على اللوكوجا سـيؤثر فـي النهر العظيم الواقع على بعد ألف وسـتمائة ميـل للأدنى إلى حد ارتفاع مسـتواه بنسـبة أربعة عشـر قدماً فـي ليلة واحدة؛ الثاني، أن ما ينطبق علـى تنجانيقـا يمكن أن ينطبق أيضـاً على بحـيرة ليوبولد الثـاني، أخذاً بأن البحيرة الأخيرة أقرب نسبيّاً إلى الساحل.

وحـين كنا قرب مجموعـة أغصـان ناتئـة (spur-wing) [271] بدا أن البط يسـتعد للتجمع في أفواج اسـتعداداً للهجرة. ولقد جذفت لساعات بدون

49 - هو من المرجع السير فرانسيس دو وينتون المدير العام للكونغو (1884 - 1886) وعاش بين 1835 - 1901 http://openlibrary.org/b/OL14810710M/Sir_Francis_de_Winton_) (administrateur_general_du_Congo_1(884-1886 (المترجم).

توقّف عبر أكبر سرب من الطيور رأيته في حياتي. كان النهر وضفافه والجزر والسهول إلى منتهى النظر، كانت كلها مغطاة بالبط، ولم يكن يرى هنا أي طائر غير البط.

وصلنا امبوري (M'buri) أو امبولي (M'buli) كما يلفظها الأصليون (الذين لا يستطيعون لفظ الحرف «ر») في الرابع من أبريل. وكانت هذه أبعد نقطة من اللوكوجا وصل إليها كل من تومسون أو دولكومون. وأنا ممتن للقول بأنني لم أحقق اختراقاً إلى الأمام حتى أنجز استكشاف الأجزاء غير المعروفة من النهر. أصابتني حمى شديدة لبضعة أيام، وعندها بت أهذي.

الفصل السادس عشر

[271] في الحادي عشر من أبريل تسلّم السيد موهون زمام قيادة الحملة، وعاد إلى أسفل النهر، آملاً أن يعيدني حياً إلى كاسونجو، حيث كانت هناك بقية أمل في العثور على الأدوية اللازمة والقليل من الغذاء. وفي أول ليلة (وعندما نزلنا على شريط من الرمل تحت قمة عالية غُطيت بالأدغال) هاجمنا الأصليون ظانين بأننا بتنا وجلين من التقدم، وأننا لسنا حقاً أقوياء كما كانوا يظنون في البدء حين كنا نصعد النهر. كنت أضعف من أن أتمكن من الجلوس، واستلقيت دون أي قدرة في حين أن المناوشات تشتعل حولي؛ كان كل واحد مشتبكاً، ولم أكن لأحصل على معلومات عما كان يجري حتى عن الساحل الرملي الذي أرسِي قاربي عليه. وانتهى الأمر بأن طُرد الأصليون، تاركين بعض الأسرى، وقتلاهم والموشكين على الموت بين يدي موهون. [273] لكن موهون أعطى كل أسير هدية، وأطلق سراحهم في الصباح بعد أن حاول أن يشرح لهم أننا لم نأت إلى هنا للقتال. ولمّا عدنا للوالابا اكتشفنا أن المياه قد ارتفعت بضعة أقدام، وكنتيجة، بات في إمكاننا أن نتجاوز منحدرات سريعة عدة، وكان سيتوجب علينا أن ننزل من قواربنا لنتعامل معها. لم تكن الرحلة طيبة بالنسبة إليّ، فبالإضافة إلى وقوعي مريضاً لم أكن قادراً على تناول لحم الماعز، الذي كان الغذاء الدائم. ولم أحتفظ إلا بقليل من الذكريات عن بقية الرحلة. وصلنا إلى كاسونجو في الخامس والعشرين من أبريل، لنجد أن البارون دانيس قد هبط أسفل النهر إلى ستانلي فولز وهو بطريقه للعودة إلى وطنه؛ وأن صديقي العظيم، الفارس دو فوترز قد وصل من تنجانيقا موشكاً على الموت. حُمِلت لرؤيته، وحين الكشف عليه وجدت أنه يعاني من خراج في كبده. أدى بي هذا الأمر للاستغراق في التفكير؛ وفي اليوم التالي وبعد أن ارتحت من الرحلة، وحين قمت بالكشف على نفسي بأكثر ما أستطيع [274] وجدت أنني أيضاً أعاني من العارض نفسه. ولم يكن هناك من إمكانية لعمل

شـيء، لأننــا كنا دون أدوات؛ حتى وإن كانت فـي حوزتنــا فلن يكون هناك أحد قـادر على اسـتخدامها. بعدهــا بيومين أو بثلاثــة أيام، توفي فوتــرز. وبعد أن تحـدث لوتيـغ إليّ حول الحالة، وهــو بلطفه الذي يعجز الوصــف عنه، قرر أن من الأفضــل محاولة الهبوط إلى باسوكو، أسفل ستانلي فولز، حيث كان هنـاك طبيب وحيث كانت لا تزال هناك فرصــة أن تجرى لي عملية، إن اســتطعت أن أصــل هنــاك فـي الوقت المناسـب؛ على أن ذلك يعتمد علــى إبقائي حياً، ولكن فـي حالة الضــعف التي كنت أعاني منها لثلاثة أسابيع، كانت الفرصة ضئيلة. لكننــي، وافقته الــرأي أن من الأفضــل المحاولة، مع الأخــذ بمخاطر الطريق. أرســل القائد لوتيغ النقيب روم لمواكبتي، وعلى الرغم كل المحاولات والمخاوف من العناية برجل مريض، لم يكن بمقدوري ســوى القول بأنه عاملني كأخ بدل معاملتي كغريب أو أجنبي.

في التاســع والعشــرين من أبريل، وبعد يومين من وفاة دو فوترز، غادرت كاســونجو، منقولاً براحة [275] على قارب ســبق لي أن وصــفته. وصــلت إلى نيانجوي فـي الأول من مايو. وهنا أصــر الملازم ليميغي الذي كان مسؤولاً، على بقائنا ليومين أو ثلاثة أيام، حاثاً على أن حليب البقر الذي نجح في الحصــول عليه من القطيع فـي نيانجوي سـيكون ذا مفعول جلي فـي إعطائي القوة لتحمل الرحلــة. وقــد نجح، وبعد صــعوبات جمّة، لكــون القطيع متوحشــاً من الناحية الفعلية، فـي إحضــار ســت عشرة بقرة يمكن حلبها، وأنشــأ ملبنة. وكان فخوراً جــداً إذ تمكن من صــناعة زبــدة، على الرغم من أن الحليب المأخوذ من ســت عشــرة بقــرة، لم يكن يكفي لإنتــاج ثلاث أو أربع أونصــات من الزبــدة يومياً. وكانــت النظرية القائمة حينئذٍ في الكونغو، أنه وبالنظر إلى الطقس، فقد كان من المســتحيل صناعة زبدة ســواء أكان من حليب البقر أم الماعز. ومن المرجح أن الفكــرة قد تأسســت من واقعة أن الحليب، وبســبب الطقس وجزئياً صــنف الأعشاب التي تتغذى عليها الحيوانات، فإنه لا يحتوي إلا على القليل من الدسم

والذي لم يمكن لأحد أن ينجح من قبل في الحصول على كمية [276] كافية منه لاستخلاص قشطة، قبل أن يتصلب، أو أن يتم الحصول على أيّ نتيجة.

عانيت أهوالاً بين نيانجوي وريبا ريبا، وبوصولي إلى هناك، فإن الخراج في كبدي انفجر بنجاح، وبالتالي أنقذت حياتي. كان الملازم رو (Rue) قد ثُبت في ريبا ريبا، وبنى ثلاثة إلى أربعة بيوت على موقع المدينة القديم، الذي أحرق على أيدي الأصليين بعد رحيل العرب، وذلك قبل وصول النقيب تشالتان بعد أشهر سابقة. ولقد شهد هذا المكان قيام ميسيريرا والبلوش الآخرين، الذين نُصِّبوا كزعماء عرب، بجَلْد نوبليز (Noblesse) وميشيل (Michels) حتى الموت، ثم قطّعوهما وقسّموهما بين عبيدهم لأكلهما. كان هذان هما الضابطين الوحيدين من بعثة هوديستر السيئة الطالع، واللذين كانا سيئي الحظ للوقوع بين أيدي العرب أحياءً. وكان أحد الأشياء الذي ظل قائماً من المدينة القديمة ما وصف لي بأنه شبيه بمعصرة لقصب السكر والتي ربط إليها هذان الرجلان البائسان وعذبا حتى الموت. وكان موهارا هو أحد المحرضين على الاعتداءات، وهو زعيم نيانجوي الرئيسي (والذي أمر بإبادة الرجال البيض) [277] قد قتل على أيدينا في معركة التاسع من يناير 1892؛ وكذلك بوانا لوسا، أحد زعماء ريبا ريبا، الذي قتل على أيدينا أيضاً في معركة السادس والعشرين من فبراير 1892؛ وميسيريرا وابنه اللذين أخذا كأسيرين، وشنقا بعد محاكمة أجراها البارون دانيس.

وصلنا في التاسع من مايو إلى كيريندو حيث وجدنا دانيس مقيماً. لقد وجد أن المقاطعة كانت في وضع مضطرب للغاية إلا أنه بدلاً من بدء العودة مباشرة إلى أوروبا، فإنه تأخر لترتيب الأوضاع. ولقد أمضيت معه أمسية كانت من أكثر أمسياتي سعادة وإن كانت من أكثرها ألماً أيضاً. فإذ كان مصراً على أن أضحك ضحكة واحدة حقيقية على الأقل قبل أن أموت، قدّم لي وصفاً كوميديًّا لأعماله ولوضعية المقاطعة، إلى حدٍّ ظلّ يضحكني طوال الأمسية. ولقد

أثبت أن ذلك كان أفضل شيء يمكن القيام به، فلقد أدى الاختضاض المستمر، إلى تفريغ الخراج إلى حدٍّ أنني تعافيت بشكل متسارع منذ ذلك اليوم وما بعد.

ولقد شهدت كيريندو أكثر العقوبات التي أنزلت بقاتلي أمين باشا ورجاله. فبعد مقتل [278] هوديستر وكتيبته، أعطى موهارا من نيانجوي الأوامر بذبح جميع الرجال البيض في مناطقه. وكان سعيد بن عبدي، وهو زعيم عربي شاب ذكي ومتعلم (والذي رافق أمين باشا من المقاطعة الاستوائية، وعبر الغابة الكبيرة، إلى ما يقرب من مسيرة يومين من اللوالابا، وسط جوار كيريندو)، تسلّم أوامر عبر كيلبونجي، زعيم كيريندو بقتل الباشا. وبدلاً من ذلك فقد ذهب فوراً إلى نيانجوي يرجو موهارا أن يستبقي على حياة أمين. على أن الطاغية العجوز، في أيّ حال، ظل دون أن يقلع عن إصراره، وعاد سعيد، محتفظاً بالأمل في أن ينقذ أمين على مسؤوليته. وبينما كان على مسيرة يوم أو يومين من كيريندو، أخذ كيلبونجي وجماعته على عاتقهم مسؤولية تنفيذ أوامر موهارا. فلقد أظهروا للباشا وجنوده كل علامات الصداقة، وعوملوا بأفضل أشكال الضيافة، حتى غاب كل شك راودهم إزاء مضيفهم. وبعد توطيد علاقات ثقة بينهم وبين أمين وقافلته، ذبح كل فرد - وقد أحيط كما بدا [279] بأنه بين مجموعة من أكثر الأشخاص وداً - وبحسب إشارة معينة، أينما كان واقفاً. هذه هي القصة - وبحسبما أتذكر - وكما أخبرتني اثنتان أو ثلاث من حريم أمين واللائي تمكنّا من إنقاذهن، فقد برئ سعيد بن عبدي، في المحاكمة من كل مشاركة في مقتل أمين، والذي عمل كل ما في وسعه لإنقاذه. وشنق أحد عشر شخصاً ممن تورّطوا فعلياً في المذبحة، مع ميسيريرا وابنه في صباح واحد في كيريندو لقتلهما نوبليز وميشيل. أما كيلبونجي نفسه فقد هرب إلى الغابة الكبيرة، ومضت تسعة أشهر قبل أن يلقى القبض عليه على يد النقيب لوتيغ، ويحاكم محاكمة ميدانية وتطلق النار عليه.

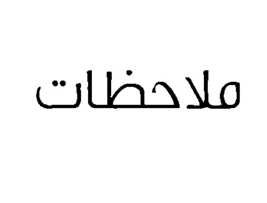
وصلنا ستانلي فولز في الخامس عشر من مايو، ووصل في اليوم نفسه النقيب كوك (Kock) من ستانلي بول على المركب فيل دو بروجيس (Ville de

Bruges). ذهبت برفقته إلى باسوكو للالتحاق بالقوة، حيث مال الطبيب إلى الاعتقاد بأنه على الرغم من ابتعادي عن حالة الخطر، فإن من الأفضل بالنسبة إليّ العودة إلى أوروبا دون تضييع أي وقت. وإذ وصل النقيب جاسِن (Jasen) بسفينته بعد بضعة أيام، ركبت معه إلى [280] ستانلي بول. ولقد شدهت بمتابعة الواقعة التي وبقدر ما نهبط النهر من ستانلي فولز، يبدو تزايد توحش الأصليين وغرابة تصرفاتهم وقذارتهم، وإن كانت بيمبا على النهر الرئيسي، هي المكان الوحيد الذي كان فيه الأصليون عراة تماماً. ولدى وصولي إلى ليوبولد فيل، شعرت أنني بت بصحة أفضل كثيراً، وحيث إن طبيبين اثنين قد أخبراني بأنني إن رغبت في تحمل مسؤولية اتخاذ القرار، فقد بات بمقدوري العودة إلى ستانلي فولز. وكان صديقي النقيب جاسِن سيأخذ سفينته مرة أخرى إلى الفولز، وهكذا وبعد بضعة أيام من الراحة ركبت معه، بلا اهتمام بالعودة إلى الوطن دون البارون دانيس، والذي كان مشاركاً في الحملة بأكملها ومستمرًّا في الاعتقاد بأن لا يزال هناك عمل يتوجب عليه القيام به. سارت رحلتنا إلى ستانلي فولز دون حوادث تذكر، باستثناء مناوشة بسيطة مع الأصليين. ولكن، ما أثار اشمئزازي، هو أنني اكتشفت، ولدى وصولي إلى الفولز، أنه وبينما كنا في نهر إيتيمبري (Itimeberie)، مرّ بنا دانيس في رحلته للعودة إلى الوطن، وترك لي تعليمات منه تفيد بأن ألتحق به على الفور، إذ إنه في خلال رحلته هبوطاً كان قد سمع بأنني قد صعدت الفولز مرة أخرى. وفي أيّ حال، فإن هذا ما كان يسعدني القيام به والتحقنا به في ستانلي بول - وقد حقق جاسِن عبوراً قياسياً من ستانلي بول إلى الفولز ثم العودة ثانية، متضمناً رحلة إلى إيبيمبو، في ثلاثين يوماً. وبعد بضعة أيام في ستانلي بول أمضيت في تنظيم قافلة، بدأنا أنا والقائد سيرنا نحو الساحل، برفقة المونسنيير فان أيرتيزلر (Monseigneur van Aertzlaer) والأب دو دوكا (Père de Deken)[50]

50 - الأب كونستانت دو دوكا (1852 - 1896) مبشر بلجيكي اشتهر بعمله التبشيري في الصين والتحق بستانلي طامحاً بتحويل سكان الكونغو إلى المسيحية (http://fr.wikipedia.org/wiki/P%C3%A8re_De_Deken) (المترجم).

الرحالة الآسيوي المشهور للبعثة البلجيكية الصينية الأفريقية.

ولدى وصــولنا إلى الكونغو دو ليمبــا (Congo de Lemba) وجدنا قطاراً خاصًّا في انتظارنا، لكنني فضلت مواصلة السير، بدل أن أضع نفسي بين مقادير سكة قطار في حالة غير آمنة؛ وإذ وصلت إلى متادي (Matadi) بعد يومين، وفي الأول من سبتمبر 1894، وبعد بضعة أسابيع ركبت السفينة إلى أوروبا.


ملاحظات

ملاحظة حول أكل لحوم البشر

[282] تقع بلاد المانييما، التي كانت موقع الحملة البلجيكية، في وسط الطريق بين المركز العربي في زنجبار والمستوطنة البلجيكية في مصب الكونغو. كان ليفينجستون في خلال جهوده لاكتشاف النهر العظيم والذي عرف عنه من العرب شفاهياً، أول أوروبي يخترق بلاد المانييما. ولأنه كان بحماية فرقة من العرب صائدي العبيد، تمكن من دخول البلاد في عام 1869. وإذ ارتحل مع العرب، مضطراً لسلوك طرقهم الضالّة، وبسبب التأخيرات التي تضمنتها تلك الطرق، تمكّن أكثر من غيره من ملاحظة، وعن كثب، أكثر عادات الشعب. وعلى الرغم من أن عادات المانييما في أكل لحوم البشر كانت معروفة ومصدر رعب كبير لأتباعه، فإن وقتاً كبيراً قد مرّ قبل أن يقتنع ليفينجستون نفسه بالأمر. ولقد تردد كثيراً قبل أن يقتنع [283] بأن عادة أكلهم للبشر كانت نتيجة الشراهة، وهي في الأصل، وإن نتجت لأي سبب من الأسباب، ليست إلاّ نتيجة علاقة واهية بالطقوس الدينية أو الخرافات. ولقد اعترف المانييما، بحرية، بعادتهم في أكل لحم البشر، الذي وصفوه بأنه: «مالح الطعم، ولا يحتاج إلا إلى القليل من البهارات»، وإن خلطت بعض الأجزاء أحياناً كالقلب مثلاً، ضمن مقادير من لحم الماعز؛ وفي إحدى المرات، وبعد معركة، رأى ليفينجستون الأجزاء، «تقطّع وتطبخ مع الموز».

وخلص ليفينجستون أخيراً في مسألة أكل لحوم البشر إلى الاستنتاج بأنه وبين المانييما وبحسب أي مقياس، ينتصب فساد الأخلاق كسبب وحيد لانتشار تلك العادة، لأن البلد ثرية ومليئة بالأغذية (الحيوانية منها والنشوية)، ولا يمكن رفع ذريعة المجاعة أو الحاجة إلى الغذاء الحيواني، للدفاع عن المسألة. «ويبقى» بحسب ليفينجستون «أنهم جنس بقسمات جميلة؛ وأستطيع أن أراهن على أن مجموعة من رجال المانييما سيبزون في جمال الرأس، بل حتى في شكل البدن عموماً، مجمل أعضاء الجمعية الأنثروبولوجية، والكثير من النساء ذوات البشرة الفاتحة والجميلات جداً».

وستبدو ممارسة أكل لحوم البشر بأنها ليست كمسألة متصلة بالتمدن بقدر ما تنتج من انحراف الذوق؛ [284] وتنتمي الأجناس آكلة البشر إلى قبائل أقل شراسة وسفكاً للدماء من قبائل أقل إدماناً على تلك العادة. ويقول هربرت وورد (Herbert Ward) [51] في كتابه: خمس سنوات مع آكلي لحوم البشر في الكونغو: [52] «ولا يتوجب الافتراض بأن القبائل الآكلة للبشر في الداخل متوحشة في كل مناحي الحياة. بل على العكس، إذ إنني لاحظت وجود عادات بينهم مثل حب الزوجة والأطفال تنتشر أكثر مما هي موجودة في وسط شعوب الكونغو الأدنى أو با كونغو (Ba Congo)، الذين لا يمارسون عادة الأكل، كما أنهم ليسوا معتادين على سفك الدماء، إلا في المسائل الدينية».

وترد ملاحظة حول أصل أكل لحوم البشر وانتشاره ضمن مقال في المجلة الجغرافية عدد يوليو 1893، [53] أنه بينما عزا بعض الكتّاب أصل أكل البشر إلى دوافع دينية، اعتبر آخرون أن «الجوع هو الباعث الأصلي وراء الممارسة، التي استمرت فيما بعد كاختيار، ثم طرأت الجوانب الخرافية والدينية كتطورات لاحقة. ويبدو أن أكل لحم البشر قد انتشر إلى حدّ كبير بين سكان أوروبا البدائيين، ولا يزال في أميركا. وتوحي واقعة انعدام العثور على آثار له تعود إلى العصور الحجرية، بأنه بينما يندر أكل الحيوانات الأدنى نوعها لنفسه، ينطلق بروز [285] الممارسة من تملك حدٍّ أدنى من الذكاء. وفي الإمكان مقارنة ذلك بملاحظة بيشيل (Peschel) [54]، بأن تلك العادة تنتشر على نحو أوسع

51 - هربرت وورد، عسكري وفنان (1863 - 1919) إنجليزي وعمل في الكونغو وشارك في حملة إنقاذ أمين باشا (.http://net.lib.byu.edu/estu/wwi/memoir/MrPoilu/Ward1 (htm) (http://www.artnet.com/artist/17512/herbert-ward.html) (المترجم).

52 - Five Years with the Congo Cannibals.

53 - «Origin and Distribution of Cannibalism», *Geographical Journal*, July, 1893.

54 - هو، من المرجع، أوسكار فرديناند بيشيل (Oscar Ferdinand Peschel) 1826 - 1875 مؤلف كتاب (*The Races of Man and their Geographical Distribution*) وهو

وسـط القبائل التي تتميز بقدر من التقدم الاجتماعي... وبينما تنتشر شواهد اللجوء إلى اللحم البشري كغذاء في أوقات المجاعة، تكون أكثر الدوافع شيوعاً هي الخرافة بأنه بأكل قلب العدو أو جزء منه - والذي تقتصـر الممارسـة عليه غالباً - يجري تملك بسـالته. ويحدث الأكل في بولينيزيا[55] ووسط أميركا في أغلب الأحيان متصلاً بطقوس دينية. وفي المنطقة الأولى، يعطى تفضيل خاص لعيـون الضـحية. لكن القرابين البشـرية، في أيّ حال، لا تـؤدي إلى أكل لحم البشر دائماً.... وبينما يجري أكل لحم الأقارب على وجه الخصوص في بعض الحالات، جرى النظر إلى ذلك بمقت بين المآوري (Maoris)[56]، الذين أيضـاً حرّموا لحم البشر على النساء أيضاً»

.(.E. C. M)

باحث ألماني (http://de.wikipedia.org/wiki/Oscar_Ferdinand_Peschel) (http://www.wku.edu/~smithch/wallace/S266.htm) (المترجم).

55 - منطقة إقليمية من وسط وجنوب المحيط الهادي تضم ما يقرب من الألف جزيرة متناثرة في الإقليم (http://en.wikipedia.org/wiki/Polynesia) (المترجم).

56 - السكان البولينيزيون الأصليون لنيوزيلندا (http://en.wikipedia.org/wiki/M%C4%81ori) (المترجم).

ملاحظة على الحرس الخاص لجونجو لوتيته

تكوّن الحرس الخاص لجونجو لوتيته من 600 رجل، لكونهم الأفراد الوحيدين من بين كل شعبه الذين يمكنه أن يضع فيهم ثقته، والذين احتفظوا بامتيازات خاصة. فبعد يوم أو يومين من إعدام جونجو، أبدى هؤلاء الرجال، والذين كانوا مكرسين لزعيمهم، ميلاً إلى الانتقام لمقتله. [286] وهكذا ومن أجل سلامته ولأجل أمن أكبر للمحطة، فإن الملازم شيرلينك أرسلهم إلى لوسامبو، ومن ثم إلى لولوابيرج، حيث فكر حينها في أنهم حين يكونون خارج مقاطعتهم فسوف تقلّ إمكانية قيامهم بالمشاكل.

وصلنا نجاندو من نيانجوي في اليوم الذي أُمروا فيه بالمغادرة، وإذ غضبوا من أن قوتهم قد زلزلت، أقسموا على الانتقام من الرجل الأبيض ومن بقية شعب جونجو، الذين حكموهم بقسوة وحشية. وإذ ساروا خارج نجاندو أطلقوا النار على سكان المدينة، فقتلوا وجرحوا قليلاً من الناس، وساروا يصرخون في الشوارع بأنهم سيعودون يوماً ما وسيقتلون ويأكلون كل واحد هناك.

وبعد ذلك بفترة قصيرة من وصولهم إلى لولوابيرج، جرى تسجيلهم كجنود ضمن خدمة الدولة، وضمن هذه السُّلطة ميّزوا أنفسهم بالذكاء والاستعداد والعزم ضد ثورة قبيلة صائدة للعبيد في مقاطعة كاساي.

وبعد سنتين تقريباً ثاروا، وبعد قتلهم لرؤسائهم في لولوابيرج، ساروا في البلاد، يقتلون الرجال البيض، ويهاجمون الأصليين، حتى استَعدوا البلاد بكاملها ضد الحكومة، ووصلوا نجاندو. ولقد جرح في المعارك التي تلت كل من الآمر لوتيغ والنقيب دوغم [287] وقتل العديد من بينهم الملازمون كوليه وفغانكين (Franken)، وأوجستي (Augustin) وساندرا (Sandrad)، وسعيد بن عبدي - الذين هرعوا لنجدة لوتيغ. مات النقيب كوليجنون من الحمى، وغرق النقيب بودوان (Bauduin) في ستانلي بول.

.(S. L. H)

ملاحظة على استكشاف قسم من نهر لوالابا على يد النقيب هايند

بالنظـر إلى أن الجانـب الجغـرافي من عمـل النقيب هايـنـد قد عرض علـى عجالـة في روايتـه للحملـة البلجيكية، فـإن الخلاصة التاليـة والمعنونة بـ «ثـلاث سنـوات مـن الترحـال فـي دولـة الكونغـو الحـرة»[57] قـد قرئـت أمـام الجمعيـة الملكيـة الجغرافيـة فـي الحـادي عشـر مـن مارس 1895:

تسلّمت مع انتهاء الحملة تعليمات لمسح اللوالابا واللوكوجا، من جوار كاسونجو والاتجـاه صعوداً. ولقد تمت هـذه البعثة بنجاح حتى امبـولي (M'Buli) في السادس مـن مارس 1894. ويذكر بأن النهر تحت كاسونجو قد تم استكشافه على يد ستانلي، وعلى أيدي آخرين منذ زمنه ذاك، وأن اللوكوجا من تنجانيقا وحتـى امبولي قد عرفه تومسون ودولكومـون. وكان عملي، على ذلك هو وصل مسح تومسون [288] ودولكومون مع ذلك العائد لستانلي ومن لحقه.

ولقد حصل السيد موهون، الوكيل التجاري للولايات المتحدة، على إجازة من العمل لمرافقتنا.

ولقـد جرى، ولمرات عدة، وصف الرحلة بأعلـى النهر من الشاطئ، على ليوبولدفيـل إلى المحطـة على لوسامبو على السانكـورو، ولا أحتاج إلا إلى لفت الانتباه إلى نقطة أو اثنتين بما يتعلق بالطريق من متادي إلى ستانلي بول – وهو طريق بات الآن إلى حدٍّ بعيد طريقاً مقاماً بحيث إن هناك جسوراً على غالبية الأنهـار، ونظف الطريق مـن الأشجار ومن العوائق الكبـيرة. وبنيت ملاجئ/ محطـات في فسحات على طول المسافة. وينتمي الحمّالون المستخدمون لحمل البضائع للمنيانجا (Manyanga) والقبائل النسيبة لها. وهناك فارق ملحوظ بـين هؤلاء النـاس والحمّالين الذين استخدمهم العرب فـي مقاطعة المانييما: فالآخـرون هم عبيد، يفرض عليهم العمل، ولكـن يتم إطعامهم بكميات كافية من اللحوم؛ في حين أن السابقين هم رجال أحرار، يطعمون كيفما كان. وبينما

57 - «Three Years' Travel in the Congo Free State».

يمكـن للمانييمـا أن يحملوا مـن 80 إلى 90 رطلاً للفرد دون صـعوبة تذكر، لا يمكن للمنيانجا أن يحملوا ما يساوي وزن 60 رطلاً للفرد.

وبعد ثلاثة أشهر أُمضـيت في الجوار في ستانلي بول، استلمت تعليمات بالتقدم إلى مقاطعة اللوالابا على الســانكورو. غادرت [289] ستانلي بول على المركب البخاري ســتانلي، برفقة خمسمائة من الجنود والحمالين، وبعد أربعة أيام من السـير بالبخار وصلنا إلى مصـب نهر الكاساي، حيث عدنا أدراجنا. لقد كنا الآن في أرض الوفرة. حيث يمكننا شـراء الماعز لقاء حفنة من الخرز الأزرق، أو لقاء قطعة نسـيج او منديل، إن كان أزرق. كان الحصول على خشب للمركب البخاري أمراً صـعباً، حيث يقع طرف الغابة على بعد ميل أو ما يشـبه فـي العادة، ولقد تكرر سـيرنا ليوم واحد بطولـه دون أن نتمكن من تجديد ما نخزنه من وقود. وضـاقت المسـتنقعات والسـهول المعشـبة على حدود الأنهار والضـفاف الرملية والجزر في منحدرات الأنهار حرفيـاً بالحيوانات: فهناك أسـراب الطيور الهائلة من مالك الحزين والبجع والبط والعديد من الأجناس الأخرى. ولقد حسبنا في إحدى المرات ما يقرب من 230 فرساً من البحر التي اصـطفت في خط فظهرت كأنها سلسـلة من الصخور السـوداء. وكان أصليو الكاسـاي خطيرين، إذ إنهم وفي مرات عدة وبينما كنا نمر قريباً من اليابسة، في النقاط التي تكون فيها الأشـجار على الضـفاف كثيفة إلى درجة تخفيهم، كانوا يرمون المركب بالسهام وبالبنادق، لا لغرض إلا الرغبة في الإيذاء؛ حيث إنه وفي الوقت الذي أتحدث عنه، لم يكن هناك مرور كثيف من المراكب لتشكل سبباً عاماً للنزاع.

وبعـد اثنـين وعشـرين يوماً مـن السـير بالمركب البخـاري وصـلنا إلى بينا باندي (Benabendi) - محطة الشـركة التجارية البلجيكية، [290] حيث يلتحم السـانكوري بكاساي. وقبل ثلاث سنوات كانت تلك هي المحطة الوحيدة على الكاساي، على الرغم من أنه في الوقت الحاضر هناك، بحسب اعتقادي، أربع عشرة منها تعود لشركات مختلفة.

ونتجـه هنا من الكاسـاي الجاري بقـوة، إلى السـانكورو الهادئ، والذي تمتـد ضـفافه بمقارنة جلية مع تلك العائدة للكاسـاي والتـي تتغطى بالغابات حتى حافة الماء. فـي هذا الوقت خلا السانكورو حتى من محطة واحدة؛ هناك الآن اثنتا عشرة محطة منهمكة فـي جمع كميات كبيرة من المطاط الهندي.

اسـتغرق السـير بالمركب البخاري عشـرة أيام إلى لوسـامبو، عاصـمة مقاطعة اللوالابا، والواقعة بحسب ليمارينيل (Lemarinel)، على خط الطول 23 درجة شرقاً، وعرض 4 درجات جنوباً. ولقد بنيت المحطة على سهل رملي، علـى الضـفة اليمنى للسـانكورو، قبالة مصـب اللوبي (Lubi)، وقد أسسـت بغرضـ الحد من تقدم العرب من الشـرق. وتكونت من حاميـة مؤلفة من 13 رجلاً من البيض و400 جندي من السود. ولم يجر هناك إلا القليل من القتال، ولقد جرى اسـتخدام المحطة لإقامة مزارع للكسـافا والذرة والأرز والتي كانت فـي أوضاع جيدة بحيث إن المحطة كانت مكتفية ذاتياً.

حمل [المركب] سـتانلي تعليمات لنا بإرسـال حملة استكشـافية لكتانجا وكانت وصلتني توجيهات من الآمر لكي [291] التحق بالقافلة، التي تكوّنت من 7 ضباط (رجال بيض) وثلاثمائة جندي ومائتي حمال، بالإضافة إلى معسكر من الأتباع والنسـاء. ولقد تسـلّم القائد نفسـه القيادة. وامتلك كل من القادة السـبعة ثلاثـة ثيران مدربـة للركوب، والتي أفـادت فـي النهاية لاسـتخدامها كغذاء على الطريق.

بدأنا فـي السـابع عشر من يوليو متجهين إلى قرية بانيا موتومبا (Pania Mutumba)، على مسافة ثلاثة أيام من لوسامبو. وإذ عبرنا السانكورو، سرنا صـعوداً على الضـفة اليسـرى عبر غابة واسـعة، وحيث بدت بكل جانب منها القهوة البريـة، والمطاط الهندي، والفيلة. وفي كل مناطق الكونغو العذراء التي قمـت بزيارتها، كانت القهوة البرية متوافـرة وممتازة إلى حدّ أننا تركنا علب القهوة المستوردة دون أن تفتح. وعلى مدى خمسة أيام إلى الجنوب الشرقي من

مونا تشـيليو (Mona Chellios) لم نجد على الطريق أي طعام على الإطلاق - ولقـد كان خـواء تلك المقاطعة هذا مـن الرجال كما الغذاء، قـد أوجد على أيدي صائدي العبيد الذين كانوا في خدمة تيبو تيب.

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات إلى الشرق، وصلنا إلى قريتين في الفسحة المصفاة، والتي أقيمت مؤخراً، ويعيش فيها البكوا (Baquas)، أو الأقزام، من الغابة المحيطة.

ومباشـرة بعد آخر قرية للأقزام نصـل للوبيفو (Lubefu)، وهو جدول يجري بسـرعة وباتساع مائتي ياردة، واسـتغرق من القافلة يومين للعبور. كان الماء حينها أحمر، [292] لأن رافداً صغيراً للأعلى، يمر وسط طين أحمر، كان في حالة فيضـان. وصـل في تلك النقطة، سـفراء من جونجو لوتيته بعروض للسلام، مع طلب بأن يقوم الرجل الأبيض بزيارته في عاصمته، نجاندو. قرر القائد دانيس أن يقوم بذلك، على حسـاب تغيير الاتجاه إلى الشمال والشمال الشرقي من الطريق المباشر إلى كاتانجا.

وجدنا بين التلال ووسـط مسيرة أربع ساعات من موليندا (Mulenda) إلى لودي (Ludi)، بحيرة صـغيرة مستديرة بقطر ميل واحد. ويفترض بتلك البحيرة بحسـب الأصـليين أن تكون مسـكونة. فمن الخطورة، بحسب قولهم، النوم قربها، أو الشرب منها، أو السباحة فيها، وبالامتنان لتلك الخرافات كان يـأوي فيهـا اثنان من أكبر ذكور فرس النهر التي شـاهدتها. كان ماء البحيرة صافياً على أفضل ما يكون. وفي مرتين شرب العديد من جماعتنا منها وسبحوا فيها ليومين دون إصابتهم بأية أمراض.

توقفنا لشـهر في نجاندو، وفي نهاية الفترة، تركنا مركزاً وفيه ضابطان خلفنا، وتابعنا سيرنا باتجاه كاتانجا، متبعين حافة المياه المتجمعة بين اللومامي واللوبيفو. مررنا بجبلين، سـبق لفيسمن أن رآهما من على بعد. ويكاد يستحيل أن يراهمـا المـرء من على بعد ميل، إلا ويعتقد بأن أحدهما يشـكل قلعة [293]

بنتهـا يدا إنسـان، وتمتلك تلك الكتـل المربعة الكبيرة من الصـخور الرمادية كل مظهر البناء القديم. وبعد مسـيرة سـتة أيام وصـلنا إلى كابيندا، عاصمة لوبونجو، وعندها توجب على دانيس أن يعود إلى لوسامبو.

تقع كابيندا على خط 6 درجات جنوباً و35 درجة شرقاً، وقد بنيت على تل. وتتمثل صـناعتها الأساسـية في عمل نسيج محلي من ألياف النخيل. ويستفاد من قطع ذلك القماش، وهي بقياس ثماني عشـرة بوصة مربعة وتسمى ماديبا كنقود في كاسـونجو علـى اللوالابا، حيث لا يوجد النخيـل. كما يمثل الحديد مصـدر ثراء لهؤلاء الناس، وبعض أعمالهم فائقة الجمال، خصوصاً الفؤوس ورؤوس الأسـهم. لقد قنصـنا واصـطدنا في الجـوار، ووجدنا أن اللوكاسـي (Lukassi) وقد اكتشـفه فيسـمان، يرتفع في بحيرة على بعد اثني عشر ميلاً جنوبي كابيندا. وكانت هذه البحيرة التي لا تزيد مسـاحتها على ميلين مربعين تقريباً تمتلئ بأفراس النهر.

ولقد عسـكرنا لستة أسابيع في مستنقعات وصفها كاميرون، على الضفة اليسرى من اللوالابا، قبالة نيانجوي.

ولدى العودة إلى كاسـونجو تسلّمت تعليمات بأن أحاول اكتشاف الطريق المائي من كاسونجو، إذا كان ذلك ممكناً، إلى بحيرة تنجانيقا، حيث إن طريق القوافل عبر كابامباري كانت مليئة بالمصاعب. ولقد طلب السيد موهون الوكيل التجـاري للولايات المتحدة بـأن يرافقني وكانت [294] لديّ أوامر بمسـاعدته بأي وسيلة أستطيع بذلها، لأنه كان حريصاً على الاختراق إلى زنجبار.

بدأنا في السـادس عشر من مارس ووصـلنا اللوالابا عند جرف متحكم يقع تماماً تحت أول المنحدرات النهرية للكاسـونجو. تمكنا هنا من الحصـول علـى اثني عشـر قاربـاً. اجتزنا المنحـدرات النهريـة، وتوقفنا عنـد لونتومبا (Luntumba)، على الضـفة اليسـرى، فقد كانت البـلاد التي نمر بها واطئة وغنية وقد استزرعها العرب. وكان النهر الذي يعلو المنحدرات النهرية مواتياً،

يجري مثل نهاية مجرى قناة الطاحون ولأميال عدة. وبعد عشـرين دقيقة في أعلى قرية اللونتومبا وصلنا إلى مجارٍ أخرى، سحب الأصليون قواربنا عبرها. وقد فعلوا ذلك عبر وصـل أغصـان التعريشـات إلى القوارب، ثم قام ستون أو سـبعون من الرجال بسـحبها واحداً واحداً إلى أعلى المنحدرات. ولقد قسـت في إحدى المرات ارتفاع الشـلال فبلغ عشرين قدماً تقريباً. وتتشكل الصخور في تلك المجموعة الثانية من المنحدرات من صـبغة غامقة، لتسـودّ تماماً في بعض الأحيان، ومخططـة بالأحمر القاني. وهي صـخور ثرية للغاية بالحديد - إلى حد أنه كانت بوصـلاتنا في أغلب الأحيان وفي ذلك اليوم بطوله عديمة الفائدة. وحين نتجه في خط مسـتقيم لمسـافة عشـرين ياردة، ودون ظهور أيّ صخور على وجه الماء، فإن الإبرة ستلتف نصف مسافة حول الصندوق.

يرتبـط اللوالابـا بالضـفة اليمنـى للوليـنـدي مباشـرة فـوق المنحدرات الثانيـة. ويبلغ عرضـه ميلاً هنا. وتوجد في الزاوية العليا [295] التي تتشـكل مـن اللوالابا واللوليـنـدي جبال جميلة، تغطيهـا الغابات، ويطلـق عليها جبال بينـا تويتي (Bena Twiti). وبعد مسـافة أعلى قليلاً، يرتبـط اللوالابا برافد آخـر مـن الشـرق - اللواما. وبـين اللواما واللوليندي يشـكل النهر الأساسـي زاويـة قائمة، تجري إلى الغـرب نحو قرية سـيكابودي (Sekabudi)، ثم إلى الشـمال حيث ملتقى النهرين باللوليندي. عسـكرنا على الضـفة اليسرى من اللوامـا، ويتسـع هذا النهر حـين التقائه باللوالابا لمسـافة 250 يـاردة، وبتيار سـريع جداً. وتبدو جبال بينا تويتي على الضـفة اليمنى للواما على بعد عشرة أميال. وإذ نعبر نهرين صـغيرين على الضـفة اليمنى - الكاسيما (Kasima) والكلامبيجا (Kalambija) - نصـل منحدرات امتوكا (M'Toka). وتتشكل هذه المنحدرات من صـخور مبيضـة، تقسـم النهر إلى جداول صغيرة. ويتسع هذا التيار الرئيسـي مائة ياردة، وقد مخض زبداً، وكان من الواضـح أنه ليس شديد العمق.وإذ صعبت رؤية الضفاف، ومتابعة مجرى النهر، استحال تقدير

اتساعه هنا تماماً بدقة؛ ولكن يتوجب عليّ الاعتقاد بأن المسافة من البر الرئيسي من ناحية إلى البر الرئيسي من ناحية أخرى تمتد على طول ميلين تقريباً، وإن كان ذلك يعتمد وإلى حد كبير على الفصل. لقد رأينا هنا أسراباً كبيرة من البط وبعض أفراس النهر. ويطلق على الجبال التي تبدأ [296] من ميل من ضفة النهر على كل جانب، وحتى الشلالات التي تلي،اسم سيمبي (Simbi)؛ وهي ليست شديدة الارتفاع، ومغطاة بالغابات الكثيفة. وبعد أن نصعد تلك المنحدرات في موتيتيلا (Mutetela)؛ يضيق اللوالابا هنا، ولا يزيد اتساعه فوق الشلالات تماماً على 100 ياردة. وهكذا تمكنا من رؤية جبال زرقاء عالية إلى الجنوب الغربي، ومن الواضح أنها تقع على بعد عشرين ميلاً. وارتدى أحد تلك الجبال، الذي يطلق عليه الآن اسم، الجبل الرئيس (Mount President)، شكلاً غريباً - يشبه الفيل وقد اتجه رأسه إلى الشرق. وقد اصطدنا كميات كثيرة من البط البري والبط، أطعمت بها القافلة بأكملها. وكانت أشجار النخيل شائعة بكثرة هنا، وإن رفض الأصليون أن يعطونا نبيذ النخيل، متعللين بالعذر، أنه عادة تسرقه الفيلة.

في شلالات سيمبي كان في حوزة الزعيم الأصلي تاموي (Tamwe) مائتا رجل مستعدون لسحبنا إلى الأعلى، لدى وصولنا. وكانت ضفاف الأنهار مغطاة بالغابات الكثيفة، وبدا أن هناك أعداداً كبيرة من الجواميس على السهول. وارتفعت التلال من علو 200 قدم إلى 300، وانتصبت من مسافة ميل من جانب النهر. وكانت سرعة النهر الذي يراوح اتساعه ما بين 100 و 200 ياردة، هائلة، [297] وبقاع صخري. وكان من الجلي أن النهر حين يكون في أشد امتلائه، فإنه يتسع لـ 400 ياردة على الأقل ويعمق بدرجة كافية لتغطية الصخور كافة. وتكثر أشجار النخيل، ويندر الأصليون، وبدا أن تلك البقاع قد تعرضت للغزو في الأيام السابقة.

ووصلنا في أعلى المنحدرات إلى بقعة قريبة من فامبوسي (Fambusi)، وفي تلك البقعة كان ما يشبه البركة؛ فهي ليست بحيرة؛ بل اتساع في النهر نفسه. وكانت الجبال مغطّاة بالغابات، وتكثر فيها الطرائد، وتمتد السهول المعشبة لميلين أو ثلاثة أميال إلى الداخل من ضفاف النهر. وينتمي الأصليون هنا إلى جنس جديد، الوجابيليو، ويتحدثون بلهجة من لغة الباتيتيلا. رأينا هنا، في فامبوسي، الجبل الرئيسي المشابه للفيل، على بعد عشرين ميلاً إلى الغرب. وبعد ثلاث ساعات تلت من الملاحة السهلة، وصلنا إلى منحدرات جديدة، حيث رأيت للمرة الأولى، كميات كبيرة من الزقزاق الرمادي، وأيضاً أسراباً كبيرة من البط البري، التي كانت محل قبول كبير بين القافلة. ولقد نمنا في قرى الوجابيليو.

وكانت المنحدرات التالية هي اللوكالونجا (Lukalonga)، التي تشكلت من صخور بلون غامق. وكانت هناك جزيرة كبيرة جداً في وسط النهر، تقطنها مستوطنة تابعة لسيف. وصلنا هناك في الثالث والعشرين من مارس، وقيل لنا إن تلك كانت آخر منطقة يحتفظ العرب فيها بمركز. واصلنا [298] إلى كينسالي (Kinsali)، ومنها إلى كوفي (Kufi). وبدت البلاد مليئة بالسكان في تلك المقاطعة، حيث بدا أنهم لم يُغزَوا قطّ. امتدت الغابات إلى الأسفل إلى ضفاف النهر، حيث رؤيت جيوش كبيرة من القرود. وبدا إلى الشرق، فيما يتضح أنه على بعد عشرة أميال تقريباً، بضعة جبال جميلة جداً. ويمتد هذا النطاق من النهر باتساع ميل من المياه العالية، ولربما كان ميلين لو حسبت الجزر المعشبة. ويأتي الاقتراب التالي للنهر من الغرب، وبجبال عالية على الضفة اليسرى، وكان خالياً من المنحدرات، وهادئ الجريان، وبدا واضحاً أنه شديد العمق. إذ إنني لم أصادف قاعاً على عمق خمسة وثلاثين قدماً.

عبرنا مصب الموكالي (Mukalli)، وهو رافد من المؤكد أنه غير مهم، على الضفة اليمنى. وامتدت سلسلة عالية من التلال في الزاوية بين الضفة

اليسرى للموكالي واللوالابا، وبدأت المنحدرات من هناك مجدداً. وبعد صعودنا إياها لساعات عدة وصلنا إلى واحد منها صعب على نحو خاص يسمى (Nyangi). ولم يكن الشلال هنا ليقل عن خمسة عشر قدماً. ونتأت صخرة مخروطية الشكل لافتة للاهتمام بارتفاع أربعين قدماً، يتبين أنها من الكوارتز، من وسط النهر وبرزت على جانبيها كتلتان هائلتان من الكوارتز، وبرزت قمة على الضفة اليسرى بارتفاع تسعين قدماً. عسكرنا على جزيرة، وبدا أنها كتلة صلبة من الكوارتز لا ينمو عليها إلا عشب رديء. [299] وتسمى الجزيرة بـ كيتينجي، وذلك إثر الزعيم الذي يمتلكها، وتمتد بطول ثلاثة أميال تقريباً، وبعرض من نصف ميل إلى ميل.

ولقد واجهنا صعوبات جمّة مع الأصليين هنا، وبعد العمل طوال النهار لتحقيق تقدم بلغ ثلاثة أرباع الميل، رفض كيتينجي إعطاءنا الأكل وكان شرساً جداً. وكان من الممكن أن نجوع في موقعنا على جزيرة، لكن رجالي كانوا محظوظين باصطيادهم سمكة يبلغ وزنها مائتي رطل. وواجهنا صعوبات أخرى لدى مغادرتنا، حيث إن الزعيم لم يزودنا لا بالقوارب ولا بالرجال. وما إن بدأنا بالسير، حتى اكتشفنا بأن البلاد مليئة بالسكان، وخرج الناس بالألوف لرؤيتنا مغادرين. وأخبرنا مجذفونا بأن من الاستحالة علينا أن نمتطي المنحدرات النهرية، لكننا تمكنا على الرغم من الاستحالة من العمل على ذلك. وكانت قرية كونغولو تقع على رأس المنحدرات، حيث يشكل النهر بركة، تكاد تشبه البحيرة: وقيل لنا هنا أن لا منحدرات بعد ذلك، وأن في إمكاننا أن نسافر لثلاثة أسابيع أو لشهر مصعدين اللوالابا دون مواجهة أي عوائق. وأنا آسف لأنني لم أتمكن من تمحيص ذلك؛ إلا إن من المرجّح أنه غير صحيح.

جذّفنا الآن ليومين مارين بجزر [300]، في جدول يجري بسرعة عقدتين في الساعة فقط. وبقدر ما كان يمكننا أن نرى في الداخل، فلقد تتابعت القرى واحدة تلو الأخرى، وتغطت ضفتي النهر بكثافة بأناس،

أخرجهم حب الاستطلاع لرؤية الرجل الأبيض. وكان بينهم عِرق جيد يسمى جامبولوس (Jambulus)، يلتف الفرد منهم بشكل شبه كامل بقماش محلي، وقد صفف شعر الرجال بشكل رائع بأشكال متعددة. وارتفع نطاقان رائعان من التلال، واحد على كل ضفة من اللوالابا؛ ويسمى ذلك الذي على الضفة اليمنى بـ موامبو (Muambo)، وذلك الذي على اليسرى كلوني (Kaloni). أما بالنسبة إلى الناس فكانوا يتحدثون بهجين من الباتيتيلا، التي لم نكن لنفهمها، ويمكن ألا يكون هذان الاسمان للجبال أبداً، وإنما لا يزيدان عن كونهما اسمي زعيمي المقاطعتين.

في الحادي والثلاثين وصلنا إلى مصبات اللوكوجا، التي تشكل دلتا. ويمتد المصب الشمالي بعرض ثلاثين ياردة تقريباً، والجنوبي بعرض ثمانين ياردة. ويحتوي الأخير على تيار سريع جداً. ويمتد اللوالابا في ملتقاه مع اللوكوجا بعرض 400 ياردة، وتصعيداً حوالي نصف ميل لربما سيتسع لميل كامل. ويجري باتجاه الشمال على 20 درجة غرباً لعدة أميال، وليس هناك من أثر بأي شكل لبحيرة لانتشي التي رسمت على خرائط عدة. يجري اللوالابا من مصب اللوكوجا جنوباً، وهو يسير بشكل مستقيم للغاية، فيما عدا بعض قمم فيها نخيل، فإن السماء والماء يلتقيان في الأفق. وحالما بتنا في [301] اللوكوجا، أخبرنا الأصليون أن تلك هي مياه تنجانيقا. وكان ذلك مثيراً من حيث إنني أرى أن السيد إتش إتش جونستون (H. H. Johnston)[58] قد قال إنه لم يتسن له قط أن رأى أي أصليين يسمون تنجانيقا بهذا الاسم.

---

58 - قارن بقصة حياة ترد في (*History of a Slave* by H. H. Johnston) (http://books.google.com.bh/books?id=amgB99D0iGsC&dq=H.+H.+Johnston&printsec=frontcover&source=bl&ots=zvsQg1kgKW&sig=4MXmD6zCT3VK_tV0oB8h7TbRspw&hl=en&ei=4YzsSsziIsvRjAfs_cSTDQ&sa=X&oi=book_result&ct=result&resnum=6&ved=0CBUQ6AEwBQ#v=onepage&q=&f=false) (المترجم).

يغـزر اللوكوجـا فوق الدلتا لحوالي عشـرة أقدام عمقاً، وكان في ذلك الفصـل صـافياً جداً، يراوح ما بين ميل وميل وربع اتساعاً، وبالعمق نفسه في الاتجاه نفسـه. ونما العشـب في كثير من أجزائه. ولم تكن هناك أيةّ إشارات لمسـتنقعات على ضفتيه. وانتصبت بعد بضعة أميال صـعوداً أعشاب أعاقتنا، لكننا تمكنا من متابعة مجرى النهر بالذهاب ضـد التيار، على الرغم من أننا لم نتمكن من رؤية الضـفتين. وبعد ثلاثة أميال أو أربعة أميال خلال الأعشاب وصـلنا إلى امتداد مفتوح من الماء بعرض أربعين يـاردة. وكان الامتداد المائي بكامله من الضـفة للضفة بعرض ميل تقريباً. توقفنا عند قرية تسمى أنجوما (Angoma) . وكانت البلاد مأهولة بكثافة، إلا أنه لم يبد أن الناس يعرفون أي شـيء عن العرب. وكانوا يتحدثون ما يشـبه اللهجة العامية من لغة الباتيتيلا، والتـي كان لدينا رجلٌ من لوسـونا فـي ماليلا (Malela) ، قـادر على فهمها. وصـلنا إلى امبولي (M'Bulli) (مر بها دولكومون قبل سـنة ونصف سابقاً) في اليوم الخامس، وهنا مرضـت. وانتصـب قبالة مبولي نطاق تلال، بدا أنها ترتفـع أكـثر حين اتجاهها شـرقاً. وقال لي مبولي إنه أرسـل عاجـه ليباع في تنجانيقا، وهي رحلة تستمر لستة أيام.

تسلّم السيد موهون هنا قيادة الحملة، وعاد هابطاً النهر إلى كاسونجو.

(.S.L.H)

الكشاف

حسب صفحات الأصل الانجليزي المشار اليها بمعقوفين [ ]

الألف

الباء

التاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الراء

الزاء

السين

الشين

الصاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

النون

الهاء

الواو

الياء

- ترجمة النصوص المرافقة للرسوم التوضيحية بحسب ورودها في الصفحات (رقم الصفحة) أو في صفحات تقابل الصفحة المرقمة بسبب أن بعض الرسوم أو الصور

وردت دون ترقيم

مصادر بحث للمترجم

سـعيد، زاهر. 1981. تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار، رتبه لويس صابونجي، مسقط.

المرجبـي، حمـد. 2005. حيـاة حمـد بـن محمـد بـن جمعـة المرجبي (1840-1905) المعروف بتيبو تيب، ترجمة محمد المحروقي. مسقط.

المغـيري، سـعيد. 1979. جهينـة الأخبـار فـي تاريـخ زنجبـار، تحقيق عبدالمنعم عامر، مسقط.

Brode, Heinrich. 2000. *Tippu Tip: The Story of His Career in Zanzibar & Central Africa,* Zanzibar.

Phillips, Wendell. 1971. *Oman: a History*, Beirut.

المواقع

en.wikipedia.org

fr.wikipedia.org

ftp.columbia.edu

www.answers.com

www.artnet.com

www.1911encyclopedia.org

www.alderneysociety.org

www.brainyhistory.com

www.drugs.com

images.google.com.bh

www.mauserguns.com

www.militaryrifles.com

www.net.lib.byu.edu

openlibrary.org

www.thefreedictionary.com

www.wku.edu

www.zum.de